الدكتور محمود بوترعة

دراسات حول نظام الحكم في الإسلام



تأليف

الملك أبو حمو موسى الثاني الزياني

723هـ - 791هـ - 1321م - 1389م

تحقيق و تعليق

الدكتور محمود بوترعة



دار النعمان
للطباعة والنشر

دار الشيماء

دراسات حول نظام الحكم في الإسلام

واسطة السلوك في سياسة الملوك

تأليف: الملك أبو حمو موسى الثاني الزياني

(723 هـ - 791 هـ/1321 م - 1389 م

تحقيق وتعليق: الدكتور محمود بوترعة









2012

رقم الإيداع: 1428 _ 2011

ردمك: 8 _ 14 _ 302 _ 9931 _ 978

دار الشيماء
للنشر والتوزيع

دار النعمان
للطباعة والنشر

العنوان: الشارع الرئيسي نقاوس 05600

هاتف / فاكس: 61 77 88 033

هاتف محمول: 56 25 64 0772

dairelchima@hotmail.fr

العنوان: ص. ب 251 برج الكيفان 16411 الجزائر

هاتف / فاكس: 45 63 21 021

Darelnoamane@yahoo.com

مقدمة

يكوّن التراث الفكري لأي شعب أو أمة إحدى أهم عناصر بناء كيانها المعنوي، وتشكل المخطوطات، التي لم تجد ما تستحقه من العناية في بلدنا، الجزء الأكبر من هذا التراث.

وخلال مرحلة إعدادي كتاب في نشأة الفكر السياسي الإسلامي لاحظت كثرة إشارة الكتاب والبحثين من مختلف مشاربهم إلى كتاب مخطوط بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو موسى الثاني، الذي عاش في القرن الثامن الهجري (723 هـ – 791 هـ/1321 م – 1389 م).

وبعد إكمال كتابي السابق ذكره دفعني الفضول إلى البحث عن هذا المخطوط، وقد يسر الله لي العثور على كتاب للدكتور عبد الحميد حاجيات بحث استعرض فيه حياة أبي حمو وبعض آثاره، وكان مما ذكره كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وأشار إلى أهميته، وكانت تلك الإشارة حافزا آخر على البحث عنه.

وقد وفقني الله إلى الحصول على المخطوط، وعن قراءته تبين لي أنه أحد أهم المخطوطات التي اهتمت بالفكر السياسي في المغرب الأوسط خلال القرون السابقة من حياة الشعب الجزائري؛ بل لعله أهمها على الإطلاق؛ إذ لم أطلع على كتاب ألف في الجزائر في مستوى هذا الكتاب، في مجاله.

إن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" مصدر فكري مهم في مجال السياسة والتاريخ والأدب، لذلك رأيت ضرورة تحقيقه وإخراجه للقراء والباحثين، وذلك مساهمة مني في نفض الغبار عن تراثنا الفكري المخطوط، الذي لم ينل من

مقدمة

يكوّن التراث الفكري لأي شعب أو أمة إحدى أهم عناصر بناء كيانها المعنوي، وتشكل المخطوطات، التي لم تجد ما تستحقه من العناية في بلدنا، الجزء الأكبر من هذا التراث.

وخلال مرحلة إعدادي كتاب في نشأة الفكر السياسي الإسلامي لاحظت كثرة إشارة الكتاب والبحثين من مختلف مشاربهم إلى كتاب مخطوط بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو موسى الثاني، الذي عاش في القرن الثامن الهجري (723 هـ – 791 هـ/1321 م – 1389 م).

وبعد إكمال كتابي السابق ذكره دفعني الفضول إلى البحث عن هذا المخطوط، وقد يسر الله لي العثور على كتاب للدكتور عبد الحميد حاجيات بحث استعرض فيه حياة أبي حمو وبعض آثاره، وكان مما ذكره كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وأشار إلى أهميته، وكانت تلك الإشارة حافزا آخر على البحث عنه.

وقد وفقني الله إلى الحصول على المخطوط، وعن قراءته تبين لي أنه أحد أهم المخطوطات التي اهتمت بالفكر السياسي في المغرب الأوسط خلال القرون السابقة من حياة الشعب الجزائري؛ بل لعله أهمها على الإطلاق؛ إذ لم أطلع على كتاب ألف في الجزائر في مستوى هذا الكتاب، في مجاله.

إن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" مصدر فكري مهم في مجال السياسة والتاريخ والأدب، لذلك رأيت ضرورة تحقيقه وإخراجه للقراء والباحثين، وذلك مساهمة مني في نفض الغبار عن تراثنا الفكري المخطوط، الذي لم ينل من

العناية والاهتمام ما يستحق، خاصة التراث الفكري في الجزائر والمغرب العربي عامة.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد

تمهيد: تعريف بالمؤلف والكتاب وعملي في تحقيق

المبحث الأول:

التعريف بالمؤلف

يتناول هذا المبحث تحقيق اسم المؤلف ونسبه ونشأته وعمله في سبيل استعادة ملك بني زيان وآثاره، وقسمته إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

المطلب الثاني: عودة أبي حمو إلى تلمسان وبداية بروزه على مسرح الأحداث

المطلب الثالث: آثار أبي حمو

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

الفرع الأول: اسمه ونسبه

مؤلف الكتاب هو موسى بن يوسف بن عبد بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان بن محمد بن زكرار بن بندوكس بن طاع الله[1] بن علي بن القاسم بن عبد الواد[2]، ويكنى أبا حمو[3].

كما يكنى موسى الثاني، وهذا ما أشار إليه البغدادي عندما ذكر الكتاب فقال:"واسطة السلوك في سياسة الملوك"، تأليف موسى الثاني بن يوسف بن زيان ملك التلمسان* المتوفى سنة 791 هـ[4]، وفي مصادر أخرى يكنى: أبا حمو موسى الثاني[5]، ويعود نسبه إلى بني عبد الواد[6].

---

1 – ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج 7، ص 149.

2 – ن م، ج 7، ص 75.

3 – ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 444.

* نقل المقري عن بغية الرواد في بيان معنى كلمة تلمسان أنها "تسمى في لغة البربر تلمسن؛ كلمة مركبة من تلم ومعناها: تجمع، وسن ومعناها: اثنان أي الصحراء والتل". نفح الطيب، ج 7، ص 133.

4 - البغدادي إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج 2، ص 699.

5 – التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، عام 1985 م، ص 157.

6 - ذكر يحي بن خلدون في التعريف ببني عبد الواد أن هذا القبيل له نظم وفضل، وشأن وإكرام فيهم، وترام إلى المعالي مع صبرهم لنوازل الخطوب ومطاعنة الدهور، قد خبروا الأيام وابتلوا... ... الدهور، وسبروا الإحلاء والإقرار، فما يراعون لواقع، ولا يهابون بعسر ولا يسر إلا الدين المتين والعفاف والصون المبين، والوفاء بالعهد وحفظ الجوار.

ويعود أصل تسميتهم إلى جدهم الذي عرف باسم عابد الواد لرهبانيته، وهم خمس قبائل هي: بنو ياتكين، وبنو وللو، وبنو مصوجة، وبنو تومرت، وبنو درسطف، وهذه القبائل استوطنت المنطقة الصحراوية الممتدة من سجلماسة إلى أرض الزاب... من إفريقية.

وكان بنو عبد الواد هم أول من أعلن الطاعة لعقبة بن نافع عندما فتح إفريقية وأعانوا جيشه بألف فارس على جيش البربر فنصره الله عليهم واستأصلهم.

وفي العشرينات بعد المئة السادسة للهجرة صاروا يميلون إلى الإقامة في التل بدل الصحراء بسبب ما في التل من خصابة وخضارة؛ فكان تل تلمسان وجهتهم المختارة.

وينتهي أصلهم بني عبد الواد إلى قبيلة زناتة، وهي قبيلة بربرية[1] استوطنت الشام وهاجروا إلى إفريقيا قبل الإسلام؛ فقد ذكر المؤرخون أن زناتة من البربر الذين كانوا يعيشون في فلسطين على عهد الملك جالوت، ولما قتل جالوت انتقلوا إلى لوبية ومراقيا وهما من كور مصر الغربية ثم تفرقوا فسادت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب فسكنوا الجبال[2*].

وفي عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان وفد أميرهم صولات بن وزمار على عثمان (ر ض) فعقد له عقد تولية على قومه[3]، فاختص صولات نتيجة هذا

وخلال فترة استقرار بني عبد الواد في تلمسان كانت الحرب سجالا بين المرينيين والدولة المؤمنية واستمرت هذا الوضع إلى عام 623 هـ، آخر أيام عبد بن يوسف بن عبد المؤمن، حيث اضطرب حال الدولة المؤمنية. انظر ابن خلدون ـــبو زكريا يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1903 م، ص ص 94 - 106.

وفي تلك الأثناء كان الحسن بن حيان الكومي عامل تلمسان مسيئا جوار بني عبد الواد، وأراد أن ينال منهم فحرض عليهم أبا سعيد عثمان أخ أمير المؤمنين – أمير الدولة المؤمنية – ادريس المأمون بالقبض على كبار بني عبد الواد، ففعل ذلك واعتقلهم مدة طويلة إلى أن شفع فيهم إبراهيم بن اسماعيل بن علان الصنهاجي شيخ مترجلة لمتونة كانوا يومئذ مستخدمين في تلمسان، فرد شفاعته، فأنف لذلك وجمع قومه فقتل الحسن بن حيان وسرح بني عبد الواد واعتقل مكانهم أبا سعيد وخلع طاعة بني عبد المؤمن ثم حاول أن يحيي ملك لمتونة فأراد أن يقضي على بني عبد الواد، فطلب منهم الاجتماع في المدينة من أجل وليمة عنده، وكان خبر مراده قد بلغ بني عبد الواد، فقبضوا عليه وعلى أصحابه ودخل جابر بن يوسف العبد الوادي وقومه تلمسان سنة 627 هـ، فحل دار إمارتها وضبط أمورها واستقل بحكمها، ولم يترك للمأمون – أمير الدولة المؤمنية – إلا الذكر على المنبر والدينار والدرهم وما أشبه ذلك من المظاهر. وبذلك بدأ حكم بني عبد الواد وزحف جابر على حواظر ذلك القطر سوى ندرومة فزحف إلى حصارها وهلك فيها. وكان ذلك آخر سنة 629 هـ، فولي ابنه الحسن بن جابر، فظاهر عنه بنو راشد وبنو مظهر، فقدم بنو عبد الواد أخاه أمير المسلمين يغمراسن بن زيان وبايعوه بيعة الملك المستقل وخلعوا بني عبد المؤمن.

انظر – التنسي، نظم الدر والعقيان، ص 113.

ويحي بن خلدون، بغية الرواد، ص 107.

1 – انظر – ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج 2، ص 228.

والذهبي، العبر في خبر من غبر، ج 1، ص 197.

2 – انظر – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 461.

وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج 2، ص 123.

* ادعى بعض المنتمين إلى زناتة مثل أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أنهم من العرب كما ادعى بعض بني زيان ملوك تلمسان ذلك، غير أن ابن خلدون رفض هذا الإدعاء، وقال: (بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤسس سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزيانية ما معناه: أما الدنيا والملك فنلناهما بسيوفنا لا بهذا النسب وأما نفعهما في الآخرة فمردود إلى الله). لبن خلدون، التاريخ، ج 1، ص 132.

3 – الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ت د، ج 2، ص 209.

العقد وسائر الأحياء من مغراوة، وهي إحدى فروع زناتة، بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية[1].

وكانت هذه القبيلة متكونة من عدة فروع؛ فكانت فروع الطبقة الأولى هي:

جراوة، وهي قوم الكاهنة* الذين كانوا ذوي سلطان وانقضى أمرهم في الفتح الإسلامي، ومنهم: قوم صولات بن زومار الذي عقد له عثمان بن عفان على ولاية قومه وقد استمر سلطانهم إلى أن غلبتهم صنهاجة، فانتقلوا إلى المغرب وأسسوا عدة إمارات في تلمسان وفاس وسجلماسة؛ منهم بنو يلو وبنو ومانو، أما الطبقة الثانية من فروع زناتة فهي بنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان وبنو توجين أصحاب وانشريس[2].

ولكثرة فروع قبيلة زناتة انتشرت في أنحاء واسعة امتدت من الأوراس شرقا إلى إمارات في فاس وسجلماسة وتلمسان، كما تمكنوا من تأسيس إمارة في طرابلس[3]، وهذا يدل على امتدادهم كتجاوز حدود الأوراس شرقا، ومن هنا يتضح أن أبي حمو موسى الثاني ينتسب إلى أكبر قبيلة بربرية في شمال أفريقيا، وأن أصل هذه القبيلة يعود إلى فلسطين.

---

1 – ابن خلدون عبد الرحمن، التاريخ، ج 7، ص 24.

* كان موطن جراوة في الأوراس. الميلي، م س، ص 211.

2 – الميلي، م س، ص ص 210 – 211.

3 – ن م، ص 210.

الفرع الثاني: نشأة أبي حمو

تحدث ابن الخطيب عن ميلاد أبي حمو فقال: (ولد بمدينة غرناطة حسبما وقعت عليه بخط الثقة من ناسه في أول عام ثلاثة وعشرين وسبعمئة)[1].

وفي نفس السنة عاد به والده إلى تلمسان بدعوة من عمه أبي تاشفين الأول* ملك بني زيان[2].

وكان هذا الملك يميل إلى الحرب[3]، وخاض الكثير منها منذ توليه الحكم عام 718 هـ، كما كان ولعا ببناء الدور والمنتزهات حتى وصف يحي بن خلدون ما أنجزه بأنه (آثار لم تكن قبله لملك، ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير)[4].

ولعل هذا ما جعله يدعو أبا يعقوب يوسف والد أبي حمو وإخوته الآخرين أبي سعيد وأبي ثابت وإبراهيم[5] بالرجوع إلى تلمسان، غير أن أبا يعقوب أعرض عن كل ما يتعلق بالإمارة وعن الدنيا وأقبل على الآخرة[6]، واتخذ من ندرومة مقرا له وتفرغ للعبادة[7].

وفي ندرومة نشأ أبو حمو بعيدا عن بلاط الملوك، ولم تذكر المصادر التاريخية أية معلومات عن أبي حمو في طفولته وحياته في ندرومة[8]؛ غير أن ما كان عليه حال والده من عزوفه عن الدنيا وملذاتها، خاصة وأنه من العائلة المالكة، سيكون له أثره الطيب على حياته ومواقفه.

---

1 - ابن الخطيب، م س، ج 1، ص 446.

* بويع ابن تاشفين الأول على حكم الزيانيين يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 718 هـ. بغية الرواد، ص 133.

2 - د. حاجيات، م س، ص 134.

3 - انظر: نظم الدر والعقيان، م س، ص ص 143 – 146.

4 - بغية الرواد، ص 134.

5 - ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، ص 74.

6 - نظم الدر والعقيان، ص 149.

7 - بغية الرواد، ص 151.

8 - ذكر الزركلي في الأعلام أن أبا حمو (نشأ ذكيا فطنا أديبا يقول الشعر).
انظر الزركلي خيرالدين، الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د ت، ج 7، ص 325.

وخلال سنة 735 هـ استولى السلطان المريني أبو الحسن على ندرومة[1]، موطن أبي حمو، وبدأت منذ هذا التاريخ مرحلة السيطرة على بني زيان.

وفي سنة 737 هـ سيطر المرينيون على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية وقتلوا ملكهم أبا تاشفين الأول وأولاده جميعا ووزيره[2]، وبذلك سقطت الدولة الزيانية.

وقد حاول السلطان المريني أبو الحسن إسكات صوت بني زيان فاستخدم بني عبد الواد وحفظ لهم رتبتهم، وأبقى لقبائلهم ما أبقوه من المراسم تفاخرا بأنه أصبح ملكا وبني عبد الواد كلها*، وجعل الإمرة في يد أبي سعيد وأبي ثابت ابني تاشفين، الذي أطاح بملكه وقتله، كما عرض الأمر على أبي يعقوب والد أبي حمو غير أنه رفض ذلك، لكونه قد ابتعد عن السياسة منذ هجرته من الأندلس عام 723 هـ، وتفرغه للعبادة في ندرومة[3].

وقد وصف ابن خلدون وضع بني زيان بعد السيطرة المرينية فقال: (مضت الأيام وهم بين بني مرين لهب مخمود، وصارم مغمود، والأكباد تنفطر غيرة،

---

1 – ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج 1، ص 140.

2 – كان ذلك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة 737 هـ.

انظر: – التنسي محمد بن عبد الله، م س، ص 146.

بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص 44.

* بنو عبد الواد وبنو مرين قبيلتان يعود أصلهما إلى قبيلة زناتة البربرية، ولذلك ولى أبو الحسن المريني أبا سعيد وأبا ثابت الأمر حتى يظهر أنه لم يخضع قبلة لأخرى، وهذا ما جعل أبي سعيد وأبي ثابت يوافقان على التولية في الظاهر إلى أن وجدت الظروف المناسبة لمحاربته فأعلنا الحرب على السلطان المريني وإلحاق الهزيمة به.

انظر: نظم الدر والعقبان، ص ص 152 – 154.

3 انظر: – التنسي ، نظم الدر والعقبان، ص ص 149 – 152.

– يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص ص 143 – 144.

* شازرة: قال ابن منظور في بيان معنى كلمة شازرة: (شزره يشزره شزرا وشزر إليه نظر منه في أحد شقيه ولم يستقبله بوجهه، ابن الأنباري: إذا نظر بجانب العين فقد شزر يشزر، وذلك من البغضة والهيبة، ونظر إليه شزرا وهو نظر الغضبان بمؤخر العين، وفي لحظه شزر بالتحريك وتشازر القوم أي نظر بعضهم إلى بعض شزرا، الفراء: يقال شزرته أشزره شزرا ونزرته أنزره نزرا أي أصبته بالعين وإنه لحمئ العين ولا فعل له وإنه لأشوه العين إذا كان خبيث العين). محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1: د ت، مادة شزر

والقلوب تتحرق حنقا، بالعيون شازرة* والألسن هامسة، إلا أن الصبر مستشعر، والخضوع والتسليم مستظهران للظفر)[1].

وهذا يشير إلى أن بني زيان وإن كان بعضهم خاصة أبي سعيد وأبي ثابت أظهروا الرضا بالوضع القائم إلا أن ذلك لم يكن سوى انتظارا للوقت المناسب للانتفاضة ضد السلطان المريني أبي الحسن.

واستمر الخضوع للسيطرة المرينية دون إظهار أي رفض أو معارضة لها إلى عام 748 هـ[2].

ويبدو أن أبا حمو قد أقام خلال هذه الفترة بعض الوقت في فاس؛ فقد قال ابن الأحمر: (أدركته بفاس وهو يسكن بها في عين أصليتين يتعيش برد الفك للمفكوكين، وذلك في دولة المولى أمير المسلمين أبي الحسن المريني، ورأيت بفاس أباه يوسف بن عبد الرحمن بعد الهزيمة عليهم بأنجاد وهو في حانوت بالسقاطين يبيع السقط)[3].

ولم يذكر المؤرخون مدة إقامة أبي حمو بفاس التي انتقل إليها صغيرا لا يتجاوز عمره أربعة عشر سنة[4].

المطلب الثاني: عودة أبي حمو إلى تلمسان وبداية بروزه على مسرح الأحداث.

الفرع الأول: عودته إلى تلمسان

---

1 - بغية الرواد، ج 1، ص ص 143 – 144.

2 - ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص 144.

3 - ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل ، تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2001، ص 81.

إن قول ابن الأحمر أدركت أبا حمو نفاس بعد الهزيمة يفيد أنه انتقل إليها بعد سنة 737هـ، لكون الهزيمة وقعت في هذه السنة، لذلك فإن عند انتقاله إلى فاس كان عمره أربعة عشر سنة لأن ميلاده كان سنة 723 هـ والهزيمة وقعت سنة 737 هـ.

4 - أشار الدكتور عبد الحميد حاجيات إلى أن انتقال أبي حمو ووالده وكثير من أفراد قبيلته إلى فاس كان على غير إرادة منهم بل كان نفيا.

انظر الدكتور حاجيات، م س، ص ص 71 – 72.

لم يذكر المؤرخون تاريخ عودة أبي حمو من فاس إلى وطنه تلمسان، وقد ذكر الدكتور حاجيات أن رجوعه إلى تلمسان ربما كان عام 750 هـ[1]، وقد وردت بعض النصوص الدالة على رجوعه خلال هذه الفترة وربما قبلها بقليل.

ومن تلك النصوص ما ذكره يحي بن خلدون؛ كقوله: (لما حلت الطامة الكبرى بالسلطان المرحوم أبي تاشفين وصار ملك تلمسان إلى السلطان أبي الحسن -المريني- استخدم قبيل عبد الواد... وحفظ عليهم رتبتهم... فمضت الأيام وهم بين بني مرين لهب مخمود وصارم مغمود...

وكانت أمورهم يومئذ متوسطة في الأخوين السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت... لإعراض أخيهما أبي يعقوب – والد أبي حمو- عن الدنيا وإقباله على الآخرة حتى أذن الله بحركة السلطان أبي الحسن – المريني- إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمئة)[2].

يتحدث يحي بن خلدون في هذا النص عن وجود والد أبي حمو في تلمسان قبل عام 748 هـ، وهذا يفيد أن أبا حمو كان موجودا فيها قبل هذا التاريخ خاصة وأن أبا حمو عاد إلى وطنه تلمسان مع والده كما ذكر حاجيات نفسه[3] لذلك فإنه ن المرجح أن تكون عودته قبل عام 748 هـ، لأن والده عاد قبل هذا العام وهو كان معه.

الفرع الثاني: بداية ظهور أبي حمو على مسرح الأحداث، ثم وصوله إلى منصب الملك.

استمر خضوع الزيانيين لسلطان بني مرين أبي الحسن المريني منذ عام 737 هـ، ولما أحس هذا السلطان باستقرار الوضع أراد أن يتوسع شرقا فاتجه نحو تونس

---

1 – قال الدكتور حاجيات: (لا تذكر المصادر تاريخ مغادرة أبي حمو لفاس، ورجوعه إلى وطنه، والظاهر أنه قدم منها إلى تلمسان مع أبيه وابن عمه أبي زيان بن أبي سعيد في أوائل سنة 750 هـ).
انظر: حاجيات، م س، ص 73.

2 – بغية الرواد، ج 1، ص 144.
قارن بما ذكره التنسي في نظم الدر والعقيان، ص 149.

3 – د. حاجيات، م س، ص 73.

سنة 748 هـ، وكان معه الأميران أبو سعيد وأبو ثابت عما أبي حمو وبنو عبد الواد، فتمت له السيطرة عليها وعلى أمصارها، واشتدت وطأة أبي الحسن على قبيلة سليم وأحلافهم فبايعوا أحمد بن أبي دبوس أميرا عليهم في القيروان، فتوجه إليهم أبو الحسن المريني لإنهاء معارضتهم، وهنا استغل الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت الفرصة وتعاونوا مع العرب على مقاتلة أبي الحسن المريني، ولما تراءى الجمعان قرب القيروان يوم الاثنين سابع محرم سنة 749 هـ، تمكنوا من ايقاع الهزيمة بالسلطان أبي الحسن، وهنا طمح بنو عبد الواد إلى إعادة إحياء دولتهم فبايعوا أبا سعيد ملكا، وكان ذلك في آخر شهر ربيع الأول سنة 749 هـ[1]، أما أبو حمو فإنه قد استقر مع والده في ندرومة بعيدا عن كل نشاط سياسي، وتزوج خلال هذه الفترة وولد له ابنه أبا تاشفين علم 752 هـ[2]، غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا، فقد انظم أبو حمو إلى عمه أبي ثابت في حروبه ضد المرينيين ومن شايعهم؛ فذكر ابن خلدون أن أبا حمو حضر المعركة التي دارت رحاها خلال سنة 753 هـ في وادي شلف بين بني عبد الواد وبونزمار بن عريف ومن معه من العرب، وكانت فيها هزيمة بني عبد الواد الزيانيين، وفر أبو ثابت وابن أخيه أبو حمو في بزة منكرة وتم اعتقال أبي حمو وأبي ثابت في بجاية من طرف حاكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي، وكان مؤيدا للسلطان المريني أبي عنان، ونقل أبو ثابت إلى تلمسان وأمر أبو عنان بقتله فقتل[3]، وأما أبو حمو فقد أطلق سراحه لعدم التعرف عليه، فاتجه نحو تونس متنكرا في ثوب حتى وصلها[4] يوم السادس من شوال عام ثلاث وخمسين بعد سبعمئة[5]، فاستقبله السلطان أبو إسحاق بن أبي يحي الحفصي

---

1 - انظر:
- التنسي، م س، ص ص 149 – 150.
- ابن خلدون، بغية الرواد، ص ص 144 – 147.

2 - د. حاجيات، م س، ص 73.

3 - بغية الرواد، ج 1، ص ص 161 – 162.

4 - التنسي، م س، ص 157.

5 - ن م و ص، هامش رقم 293.

وحاجبه ابن تافراكين استقبال الأمراء، وأقام عندهما مكرما يجرى عليه، وأحله بمكان أعيان الملك من مجلس سلطانه[1]، فبقي خمس سنوات عنده[2].

وخلال هذه المدة كان السلطان المريني أبو عنان الذي استولى على دولة بني زيان يطلب من أبي اسحاق الحفصي طرد أبي حمو وإخراجه من بلاده، إلا أن أبا اسحاق كان يرفض ذلك، وهو ما عجل باحتلال تونس من طرف أبي عنان عام 758 هـ، وفر أبو حمو والسلطان أبو اسحاق الحفصي إلى الجريد جنوب إفريقية (تونس)[3]، وكان فرارهما سنة 759 هـ[4].

الفرع الثالث: بداية العمل لاستعادة ملك بني زيان.

بعد فرار أبي حمو موسى مع أبي إسحاق سلطان تونس إلى منطقة الجريد في الجنوب التونسي بدأ يحضر لاستعادة ملك أجداده الزيانيين؛ فبدأ بإقامة علاقات طيبة مع رؤساء القبائل التي كانت مستقرة هناك، ومنهم: قبيلة الزواودة[5] ولم يدم الاحتلال المريني لتونس طويلا، إذ سرعان ما عاد أبو حمو وأبو إسحاق إليها[6].

وفي نفس السنة (أي 759 هـ) التي فر فيها أبو حمو إلى الجريد اجتمع الزواودة إلى الحاجب ابن تافركين ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بالعرب من زغبة وأنهم ركابه لذلك ليجلب على نواحي تلمسان ويجعل السلطان أبي عنان يشغل عنهم، ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة من بني عامر[7]، وورد على على أبي شيخ بني عامر بقبيلة بني عامر، وجماعة من زناتة[8]، كما ورد عليه بعض من الزواودة، وبنو سعد، وطالبوا بالذهاب إلى تلمسان لاستعادتها من السلطان

1 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.
2 – د. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، عام 2002، ج 1، ص 53.
3 – د. عبد العزيز فيلالي، م س، ص53.
4 – ابن خلدون، التاريخ، ج 7، ص 122.
5 – د. فيلالي، م س، ص 53.
6 – التنسي، نظم الدر والعقيان، م س، ص ص 157 – 158.
7 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.
8 – التنسي، م س، ص 158.

المريني[1]، فارتحلوا بعد عيد الفطر من عام 759 هـ (فيلالي، ج 1، ص 54) مغربين على جبل عياض، ومنه توجهوا إلى الأوراس، ثم توجهوا إلى الزاب[2] وارجلا؛ فكانوا يسيرون عشرة لم يحلوا فيها سرجا ولا حطوا رحلا[3]، فاتجه نحو الشمال الغربي وحط رحاله بوادي زرقون وعسكر فيه عدة أيام للراحة والاحتفال بعيد الأضحى، ثم واصل طريقه متتبعا آثار أعداء بني زيان، فهاجم في ذي الحجة عام 759 هـ عرب سويد وقتل قائدهم عثمان بن ونزمار بن عريف الذين كانوا في منطقة وادي ملال جنوب مدينة تلمسان وطرد عرب سويد منها[4]،وعند ذلك تمت مبايعة أبي حمو من طرف من كان معه من العرب وغيرهم من بني زيان، وكان ذلك يوم الخامس من محرم عام 760 هـ[5].

وفي اليوم السادس من نفس الشهر بلغ أبا حمو خبر وفاة السلطان أبي عنان المريني الذي كان يسيطر على تلمسان(6) فقويت بذلك عزيمته لاسترجاع ملك الزيانيين، فواصل سيره نحو تلمسان ولما وصل إلى المكان المسمى أوماكرا* بلغت أخباره إلى أهل تلمسان فجاءت وفودهم أبا حمو من كل حدب[7]، فتوجه أبو حمو نحو تلمسان ونزل بساحتها وحاصرها ثلاثة أيام، وفي صبيحة اليوم الرابع اقتحمها، فخرج ابن السلطان أبي عنان المريني منها، ودخل السلطان أبو حمو موسى

---

1 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122

2 – الزاب: كلمة كانت تطلق على منطقة واسعة من افريقية تشمل بسكرة وتوزر وقسطيلية وطولقة وقفصة وقفصة ونفزاوة ونفطة.

انظر السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد، أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت، 1963، ج 1، ص 120.

3 – التنسي، م س، ص 158.

4 – د. فيلالي، م س، ص 54.

5 – التنسي، م س، ص 159.

6 – ن م و ص، هامش رقم 302.

* أوماكرا: هذا المكان يوجد بالقرب من تل أبي راشد شرق تلمسان، ن م ، ص 303.

7 – التنسي، م س، ص 303.

لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة 760 هـ، واحتل قصر الملك واقتعد أريكته وبويع بيعة الخلافة ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه وإخراج بني مرين من أمصار مملكته[1].

وبذلك بدأت ولاية أبي حمو كسلطان لبني زيان على تلمسان.

وقد صف ابن الخطيب أبا حمو فقال:(هذا السلطان مجمع على حزمه، وضمه لأطراف ملكه. واضطلاعه بأعباء ملك وطنه، وصبره لدولة قومه. وطلوعه بسعادة قبيله. عاقل، حازم، خصيف، ثابت الجأش، وقور مهيب، جماعة للمال، مباشر للأمور، هاجر للذات، يقظ، متشمر. قام بالأمر غرة ربيع الأول في عام ستين، مرتاش الجناح بالأحلاف من عرب القبلة، معولاً عليهم عند قصد عدوه، وحلب ضرع الجباية، فأثرى بيت ماله، ونبهت دولته، واتقته جيرته، فهو اليوم ممن يشار إليه بالسداد)[2].

---

1 – ابن خلدون، التاريخ، ج 7، ص ص 122 – 123.
قارن: التنسي، نظم الدر والعقيان، ص 159.
2 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 444.

المطلب الثالث: آثار أبي حمو موسى

لم يذكر المؤرخون المعاصرون له، خاصة المقربين منه مثل ابن يحي بن خلدون الذي كان كاتبه، أي شيء عن كيفية تعلمه ولا شيوخه، مع أن ابن خلدون خصص الجزء الثاني من كتابه "بغية الرواد" لحياة أبي حمو[1]، والظاهر أنه أخذ العلم في فاس زمن إقامته فيها، فقد ارتحل إليها وسنه لم يتجاوز الرابعة عشر، وكان ذلك سنة 735 هـ، ولم تثبت عودته إلا حوالي عام 749 هـ[2]، ومعلوم أن مدينة فاس في ذلك العهد كانت موطنا للعلماء والأدباء[3].

وصفه الزركلي فقال: (نشأ ذكيا فطنا أديبا يقول الشعر)[4].

قال المقري: (كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله)[5].

ولاهتمامه بالأدب وتقريب أهله كان الأديب الشاعر ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب مهتما بشعره، وعزم على زيارته ولم يتمكن من ذلك، فقال: (لما تعرفت كلفه – إشارة إلى ابن حمو – بالأدب والإلمام بمجاورته عزمت على لقائه وتشوقت عند العزم على الرحلة الحجازية إلى زيارته، ولذلك كنت أخاطبه بكلمة منها: على قدر قد جئت قومك يا موسى... فجلت بك النعمى وزالت بك البوسى؛ فحالت دون ذلك الأحوال)[6].

---

1 – بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج 2، تحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات، نشر

2 – انظر الدكتور حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، م س، ص ص 72 – 73.

3 – استمرت فاس عاصمة للدولة المرينية طيلة عهدها، فكانت، كما قال ابن خلدون: (حاضرة ملكهم وكرسي سلطانهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى). تاريخ ابن خلدون، ج 1، ص ص 8– 9.

4 – الزركلي، الاعلام، ج 7، ص 325.

5 – المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، موقع الوراق، وعنوانه: www.Al.warraq.com، ص 83.

6 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 441.

عاش أبو حمو، قبل توليه ملك بني زيان سنة 760 هـ حياة متنوعة الثقافة، فقد كانت طفولته مع والده أبي يعقوب، الذي اختار الإقامة في ندرومة، بعيدا عن تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

لقد فضل أبو يعقوب والد أبي حمو حياة الزهد والتفرغ للعبادة عن حياة الرفاه وبلاد الملوك.

واستمر مدة إقامته في ندرومة من عام 723 هـ إلى 735 هـ، حيث ارتحل أبو يعقوب، ومعه ابنه أبو حمو ذو الأربعة عشر ربيعا ، إلى فاس عرف خلالها أبو حمو أنواع الحرمان، وآلام الاغتراب[1]، وكان يتعيش برد الفك للمفكوكين في عهد أبي الحسن المريني[2].

وعندما عاد من فاس حوالي عام 749 هـ، وكان عمره ستا وعشرين سنة، انضم إلى عميه أبي سعيد وأبي ثابت في حربهما ضد المرينيين وانتهى به المطاف هاربا متنكرا في بلاد السلطان الحفصي أبي إسحاق سنة 753 هـ، وأحله هذا الأخير محلا يليق به، فقد أنزله مترلة الأمراء، وأجلسه في مجلسه وأجرى عليه[3]، واستمر هذا الوضع خمس سنين[4]، اضطر بعدها للفرار سنة 758 هـ إلى منطقة الجريد في الجنوب التونسي ليعيش في ضيافة القبائل الصحراوية ويقيم معهم علاقات ساعدته على محاولة استعادة ملك بني زيان من الاحتلال المريني وتم له ذلك في وقت قصير لم يتجاوز السنتين حيث تمكن من إسقاط الحكم المريني على تلمسان وعين ملكا سنة 760 هـ.

1 – انظر: د. حاجيات، م س، ص 72.
2 – ن م و ص.
3 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.
4 – د. فيلالي، م س، ص 53.

إن هذه الظروف التي عاشها أبو حمو ساهمت في تكوين شخصيته وثقافته؛ فطفولته تعلم منها التدين وحب الله ورسوله، ومعاناته في الاغتراب وحروبه أكسبته صفات الشجاعة والحزم والاعتماد على الذات، ومخالطته الملوك ورجالات السياسة والفكر علمته حزم الملوك وعاطفة الشعراء ورزانة الحكماء، ومن هنا جمعت آثاره بين الشعر والحكمة في الكتابة والإبداع في العمران.

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه ومدحه

أثنى كثير من العلماء على أبي حمو وما اتصف به من أخلاق الكرم والحزم[1] ومدحوه بقصائد شعرية كثيرة، ومن هؤلاء العلماء أذكر على سبيل المثال: الفقيه الخطيب الشاعر ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب، والكاتب الشاعر أبو زكرياء يحي بن خلدون، والفقيه الشاعر الناثر أبو عبد الله بن يوسف الثغري، والفقيه الشاعر محمد بن جمعة الشهير بالتلاليسي.

ومن قصائدهم التي مدحوا فيها أبا حمو ما يلي:

أولا- من قصائد ابن الخطيب وأقواله:

كان ابن الخطيب من أكثر الشعراء إعجابا بشخصية أبي حمو ومخاطباته كثيرة جدا[2]، مع أنه لم يلتق به، وكان يريد مقابلته عندما أراد أن يذهب إلى الحجاز مرورا بتلمسان، ولم يوفق إلى ذلك بسبب ظروف خاصة[3].

وقد نظم ابن الخطيب العديد من القصائد الشعرية مدح فيها أبا حمو، كما نقلت عنه الكثير من الكتابات التي جاءت لنفس الغرض أذكر بعضا منها.

أ – من القصائد

من القصائد التي نظمها ابن الخطيب في مدح أبي حمو على سبيل المثال:

---

1 – قال ابن الخطيب: (السلطان أبو حمو موسى بن الأمير أبي يعقوب يوسف... كان... متفقها على خلال الكرم والحزم، مضطلعا بأمر، والقيام على ما بيده).
انظر الإحاطة، ج 1، ص 155.

2 – أزهار الرياض، ص 87.

3 – انظر (فيما سبق).

* السدف: قال الصاحب بن عباد: (السدف: ظلام الليل، وقد أسدف الليل. وسواد الشخص تراه من بعيد. والضوء أيضا، وهو من الأضداد، وأسدف الليل: أضاء)، المحيط في اللغة، منشور على موقع الوراق، ج 2، ص 253.

* القدود: جمع قد وهو القوام ،قال الزمخشري: (جارية حسنة القد وهو القوام، كما يقال: حسنة التقطيع، وهي مقدودة)، أساس البلاغة،ج 1، ص 368.

* أدواح: جمع دوح وتعني الشجرة العظيمة، كما تعني البطن الممتلىء، قال الصاحب بن عباد: (الدوح: الشجر العظام، الواحدة: دوحة عظيمة.وانداح بطنه وداح: أي عظم وامتلأ)، م س، ج 1، ص 244.

1 - قصيدة مطلعها:

اطلعن في سدف* الفروع شموسها... ضحك الظلام لها وكان عبوسا

وعطف قضبا للقدود* نواعما... بوئن أدواح* النعيم غروسا[1].

وهذه القصيدة طويلة عرفت بالسينية، وجهها ابن الخطيب إلى أبي حمو عندما أحس بتغير سلطانه عليه فجعلها مقدمة بين يدي نجواه لتمهد له مثوى، وتحل له المستقر إذا ألجأه الأمر إلى المفر[2].

2 - قصيدة أخرى مطلعها:

لقد زار الجزيرة منك بحر... يمد فليس تعرف منه جزرا

أعدت لها بعهدك عهد موسى... سميك فهي تتلو منه ذكرا[3]

وهذه القصيدة خاطب بها ابن الخطيب أبا حمو يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس[4].

3 - قصيدة أخرى مطلعها:

يا إمام الهدى وأي إمام... أوضح الحق بعد خفاء رسمه

أنت عبد الحكيم حلمك نرجو... فالمسمى له نصيب من اسمه[5]

ب – جزء من نص نثري لابن الخطيب في مدح أبي حمو

مما كتبه ابن الخطيب في مدح أبي حمو نص نثري مطول، منه قوله: (أبقى الله أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع والثناء المسموع والملك المنصو

---

1 - هذه القصيدة طويلة أوردها المقري في كتابه أزهار الرياض، ص ص 83 - 84، وسنوردها كاملة في الملاحق.

2 - أزهار الرياض، ص 83.

3 - ن م، ص 87.

4 - ن م و ص.

5 - أزهار الرياض، ص 87.

الجموع *نفثه من باح بسر هواه ولبى دعوة الشوق العابث بلبه * وقد ظفر بمن يهدي خبر جواه إلى محل هواه * ويختلس بعثت حيته إلى مثير أريحيته * وهي بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال الشاذ عن الآمال عنوان من الكتاب وذواق من أوقار ذات أقتاب وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه أو يكافئ إحسانها إحسانه أو يستقل بوصفها يراعه أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه * ولا مكابرة بعد الاعتراف والبحر لا ينفذ بالاغتراف لا سيما وذاتكم اليوم والله يبقيها * ومن المكاره يقيها * وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقيها * ياقوتة اختارها واعتبرها ثم بلاها بالتحميص في سبيل التخصيص واختبارها * وسبيكة خلصها وسجرها فحلصها بسجره من الشوب * وأبرزها من لباب الذوب * وقصرت عن هذا الأثمان وسر بصدق دعواه البهرمان * ليفاضل بين الجهام والصيب ويميز الله الخبيث من الطيب فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة * وعرفكم بنفسه في حال الشدة ثم فسح لكم بعد ذلك في المدة لتعرفوه إذا دال الرخاء وهبت بعد تلك الزعازع الريح الرخاء * وملاكم من التجارب وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب * ونقلكم بين الزمان وإحلائه ولم يسلبكم إلاّ حقيرا عند أوليائه * وأعادكم المعاد المطهر * وألبسكم من أثواب اختصاصه العلم المشهور * فأنتم اليوم بعينه العناية بالإفصاح والكناية * وقد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية * فإن كان الملك اليوم علما يدرس وقوانين في قوة الحفظ تغرس وبضاعة برصد التجارب تحرس فانتم مالك دار هجرته المحسوبة وأصمعي شعوبه المنسوبة إلى ما حزتم من أشتات الكمال المربية على الآمال * فالبيت علوي المنتسب والملك بين المورث والمكتسب والجود يعترف به الوجود * والدين يشهد به الركوع والسجود * والبأس تعرفه التهائم والنجود * والخلق يحسده الخلق المجود والشعر يغترف من عذب نمير * ويصدق من قال بدىء بأمير وختم بأمير وإن مملوككم حوم من بابكم على العذب البرود فعاقه الدهر عن الورود واستقبل افقه ليحقق الرصد ولكنه أخطأ القصد * ومن أخطأ الغرض أعاد ورجا من الزمان الإسعاد فربما خبئ نصيب أو كان مع الخواطي سهم مصيب وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز

فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز * وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب * ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب * ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه وجب العمل على اطراحه * فإنما هي البحر الزاخر الذي لا يدرك منه الآخر والرياح متغايرة والسفينة الحائرة فتارة يتعذر من المرسى الصرف وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف * هذا إن سالمها عطبها واعقى من الوقود حطبها * ولقد علم الله عز وجل إنّ لقاء ذلك المقام الكيرم عند المملوك تمام المطلوب ممن يجبر كسر القلوب فانه مما انعقد على كماله الإجماع * وصح في عوالي معاليه السماع * وارتفعت في وجوه مقاله الأطماع أخلاقا هذبها الكرم الوضاح وسجية كلف بها إكمال الفضاح * وحرصا على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلاّ من سمت همه وكومت ذممه وألفت الخلد زممه * إذ الوجود سراب وما فوق التراب تراب * ولا يبقى إلاّ عمل راق أو ذكر بالجميل يسكر في أوراق حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب وضوع أشار به من كانت له طاعة فوفت بمقترحه استطاعه *... والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب أن يمكنها من حسن المثاب فتحظى بحلول ساحته ثم بلثم راحته ثم بالإصغاء ولا مزيد للابتغاء إلى أن ترتفع الوساطة * وتغنى عن التركيب البساطة * وينسى الأثر بالعين ويحسن الدهر قضاء الدين...)[1].

ثانيا: من قصائد يحي بن خلدون:

كان يحي بن خلدون كاتبا للسلطان أبي حمو وحاجبه[2]، وهذا جعله يطلع على كل صغيرة وكبيرة في بلاط الدولة الزيانية، وكتب عنها كتابه الشهير " بغية الرواد في ذكر دولة بني عبد الواد" وخصص الجزء الثاني من الكتاب لأبي حمو، وما اتصف به حكمه وإنجازاته[3].

---

1 – ذكرها المقري في أزهار الرياض، ص 86.

2 – تولى يحي بن خلدون منصب كاتب السلطان أبي حمو باقتراح من أخيه عبد الرحمن بن خلدون، وذلك عندما كان عبد الرحمن مقيما في بسكرة وأرسل إليه أبو حمو يدعوه لتولي المنصب المذكور فاعتذر واقترح تولية أخيه، فوافق أبو حمو وولاه، انظر: تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 420، 421.

3 – الجزء الثاني من بغية الرواد حققه ألفرد بل ونشرته مطبعة فونتانا الشرقية في الجزائر سنة 1910.

كما كتب يحي العديد من القصائد الشعرية التي مدح فيها السلطان أبي حمو، ومن تلك القصائد أذكر على سبيل المثال:

1- قصيدة مطلعها:

ما على الصب* في الهوى من جناح... أن يرى حلف عبرة وافتضاح

وإذا ما أعجب عيا اصطبار... كيف يصغي إلى نصيحه لاح[1]

هذه القصيدة كتبها يحي بن خلدون وقدمها للسلطان أبي حمو في الاحتفال بالمولد النبوي سنة ثمان وسبعين وسبعمئة[2].

1 - قصيدة مطلعها:

أخليفة الرحمن والملك الذي ... تعنو* لعز علاه أملاك البشر

لله مجلسك الذي يحكى علا ... بك مالكي أفق السماء لمن نظر[3]

وهذه القصيدة كذلك كتبها ابن خلدون لأبي حمو في الولد النبوي سنة سبع وستين وسبعمئة[(4)].

ثالثا- من قصائد الفقيه الشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري[5].

---

* الصب: قال ابن منظور: (اصطب الماء: اتخذه لنفسه على ما يجيء عليه عامة هذا النحو حكاه سيبويه، والماء ينصب من الجبل ويتصبب من الجبل أي يتحدر، وصب في الوادي: انحدر.
وفي حديث الطواف: حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي أي انحدرت في السعي). لسان العرب، مادة صبب.

1 - المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 510، انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

2 - المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 510.

* تعنو: تظهر.
انظر الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، م س، ج 24، ص 8513.

3 - المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 515.
انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

4 - ن م و ص.

5 - الثغري كان كاتبا للسلطان أبي حمو. المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 121.

نظم الثغري عدة قصائد في مدح السلطان أبي حمو، منها:

1-قصيدة طويلة هذا مطلعها:

تاهت تلمسان بحسن شبابها... وبدا طراز الحسن في جلبابها

فالبشر يبدو من حباب ثغورها... مبتسما أو من ثغور حبابها[1]

2- قصيدة أخرى لأبي يوسف الثغري مطلعها:

قم مبصرا زمن الربيع المقبل ... تر ما يسر المجتني والمجتلي

وانشق شيم مطلولا وما ... أهداك من عرف وعرف فاقبل[2].

3- قصيدة أخرى مطلعها:

أيها الحافظون عهد الوداد... جددوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصلا ثلا بليال... كلال نظمن في الأجياد[3].

رابعا: من قصائد التلاليسي:

نظم أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي قصيدة مدح فيها السلطان أبا حمو، مطلعها:

لي مدمع هتان... ينهل مثل الدرر

قد صيد الأجفان... ما إن لها من أثر

حق له يجري... دما على طول الدوام[4]

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 125.

2 - ن م، ج 7، ص 126.

انظرها كاملة في الملاحق.

3 - ن م، ج 7، ص 121.

4 - المقري، أزهار الرياض، ص 82.

انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

المبحث الثاني: تعريف بالكتاب وعملي في تحقيقه.

يتناول هذا المبحث بيان اسم الكتاب ونسبته إلى أبي حمو، وموضوعه، ومنهج المؤلف في كتابته، ثم ما قمت به في سبيل إخراج هذا المخطوط،

وقسمته إلى مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالكتاب

المطلب الثاني: عملي في تحقيق المخطوط

المطلب الأول: التعريف بالكتاب.

يتناول هذا المطلب تحقيق اسم الكتاب ووصفه ونسبته إلى أبي حمو، وموضوعه، ومنهج المؤلف في إعداده.

الفرع الأول: اسم الكتاب ووصفه ونسبته إلى أبي حمو.

أولا: اسم الكتاب ووصفه.

اسم الكتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذه التسمية من وضع المؤلف نفسه؛ فقد قال أبو حمو في مقدمته: (... فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكيمة وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك وتنتظم به أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك ولذلك سميت هذا الكتاب "بواسطة السلوك في سياسة الملوك" ليكون اسمه موافقا لمسماه ولفظه يطابق معناه)[1].

وأما وصفه فإن النسخة المعتمدة هي النسخة المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، والمسجلة تحت رقم 1298، توجد نسخة مصورة عنها في مركز المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، مسجلة تحت رقم 7226 ف 1504 / 4 عدد أوراقها 63.

خطها مغربي واضح ومقروء بصورة جيدة، ليس فيها أي حزم أو قطع.

- عناوين الفصول والعناوين الفرعية في الورقتين الأولى والثانية بخط عريض ولون أحمر، أما في باقي الأوراق فالعناوين بخط أسود عريض.

- المساحة المكتوبة في كل ورقة 29 سم X 20 سم، تحتوي كل صفحة 30 سطرا، و في كل سطر ثلاثة عشر كلمة بالمتوسط.

---

1 - أبو حمو موسى، مخطوط واسطة السلوك، الورقة رقم 1.

يبدأ المخطوط بقول المؤلف: (بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا. قال الملك المعظم الشأن الماجد الفخم السلطان محي رسوم دولة بني زيان ويليه حاضرة تلمسان)[1].

وينتهي بقول الناسخ: (أنتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله، وكان الفراغ منه أوائل شعبان المعظم عام تسعة وعشرين ومائة والف)[2]. ولم يذكر اسم الناسخ.

ثانيا: نسبة الكتاب إلى أبي حمو.

وردت الكثير من الدلائل على نسبة كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" إلى أبي حمو، ومنها:

1- ما جاء في مقدمة الكتاب نفسه؛ فقد افتتح الكتاب بقوله: (قال الملك المعظم...أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن الأمير يغمراسن بوزيان... الحمد لله...).

ثم قال: (لذلك سميت هذا الكتاب: بواسطة السلوك في سياسة الملوك" ليكون اسمه موافقا لمسماه)[3].

2 - قال المقري: (كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله وله رحمه الله تأليف حسن في السياسة لخص فيه سلوان المطاع لابن ظفر، وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك

---

1 - الورقة الأولى من المخطوط.

2 - الورقة الأخيرة من المخطوط.

3 - الورقة الأولى من المخطوط.

بني مرين وغيرهم، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين، وسماه "نظم السلوك في سياسة الملوك")[1]

3- قال الزركلي في الأعلام: (صنف أبو حمو كتابا سماه: واسطة السلوك في سياسة الملوك)[2].

4- قال البغدادي: (واسطة السلوك في سياسة الملوك – تأليف موسى الثاني ابن يوسف بن زيان ملك تلمسان المتوفى سنة 791 هـ)[3].

الفرع الثاني: موضوع الكتاب ومنهج المؤلف في إعداده.

أولا: موضوع الكتاب.

تناول الكتاب أهم المسائل المتعلقة بالنظام السياسي العادل، المستمر والمستقر، وفق ما رآه مؤلفه؛ فقد تضمن بابه الأول الوصايا والآداب والحكم التي ترشد الملك إلى الصواب في قراراته، وتمنعه من الزلل[4].

ومن تلك الوصايا والآداب والحكم: الاتصاف بالعدل في الحكم والتحلي بالفضل، وتحكيم العقل في إصدار القرارات ونبذ الحكم بالهوى، والتحصن بالتقوى[5].

وحفظ المال وعدم إنفاقه إسرافا أو تبذيرا إذ بالمال ينتظم الملك، مع الاستعانة بالثقات في تسيير الأموال، والتسوية في صرفها بين الرعية[1]، والعمل على بناء جيش

---

1 – انظر أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 83.

ونلاحظ هنا أن المقري أخطأ في اسم الكتاب فذكر أنه سماه "نظم السلوك في سياسة الملوك"، غير أن أبا حمو ذاته ذكر في مقدمة الكتاب أنه سماه: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذا هو الصحيح.

انظر الورقة رقم 2 من واسطة السلوك.

2 – الزركلي خيرالدين، الأعلام، م س، ج 7، ص 332.

3 – البغدادي، إيضاح المكنون، م س، ج 2، ص 699.

4 – الورقة رقم 1 من المخطوط واسطة السلوك.

5 – الورقتان 2 و3 من المخطوط.

قوي وحفظه، والعناية بالبطانة القريبة منه كالوزراء والمساعدين، وكذا محاولة تقريب القادة والأمراء[2].

وفي الباب الثاني تحديث عن قواعد الملك المستقر والناجح، فرأى أن أول ما يجب أن يقوم عليه نظام الحكم (الملك) هو اعتماده على العقل في تدبير شؤون الدولة والاستعانة بالعقلاء في اتخاذ القرارات ونبذ الرأي القائم على الهوى، إذ أن هذا النوع من الحكم لا يحقق مصالح الدنيا ولا الآخرة[3].

وفي الباب الثالث ذكر الأوصاف المحمودة تحدث عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الملك لكسب ود رعيته، وهي: الشجاعة[4] والكرم[5] والحلم[6] والعفو[7].

أما الباب الرابع فتحدث فيه عن الفراسة[8]، ووجه نصائح إلى ابنه أبي تاشفين جاءت بشكل خطابات موجهة إليه مباشرة ، وتبدأ بقوله: (يا بني).

ثانيا: منهج أبي حمو في تأليف كتابه "واسطة السلوك".

بدأت الكتابة السياسة لدى المفكرين المسلمين من غير الفقهاء في وقت مبكر من تاريخ الإسلام، حيث يعود الاهتمام بهذا الفن إلى القرن الثامن للهجرة، فقد كان لعبد الحميد الكاتب[9] فضل السبق إليه، إذ أن رسالته إلى عبد الله بن مروان

---

1 - الورقتان 4 و5 من المخطوط.
2 - الورقتان 5 و6 من المخطوط.
3 - الأوراق من 9 إلى 12 من المخطوط.
4 - الورقة رقم 47 من المخطوط.
5 - الورقة رقم 49 من المخطوط.
6 - الورقة رقم 50 من المخطوط.
7 - الورقة رقم 50 من المخطوط.
8 - الورقة رقم 51 من المخطوط.
9 - عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحيى أبو يحيى الكاتب، كان يعلم الصبيان ويتنقل في البلدان سكن الرقة، كان من الكتاب البلغاء الذين يضرب بهم المثل في الكتابة، وكان أوحد دهره، [illegible] رسائله نحو ألف ورقة تولى الكتابة لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية، قتل سنة 132 هـ وقيل سنة 134 هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، منشور على شبكة الانترنت موقع الوراق www.alwarraq.com.

آخر خلفاء بني أمية حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الخارجي[1]، والتي تضمنت تضمنت نوعين من الأفكار:

الأول: أفكار جاءت في شكل نصائح وتوجيهات أخلاقية وسياسية ينبغي أن يتحلى بها ولاة الأمور، كالعلم والحكمة والتقوى والعزم والجد.

أما النوع الثاني؛ فهو ما يتعلق بكيفية التعامل مع الأعوان مثل: الأناة وعدم التسرع إلى تصديق كل ما يصله من أخبار من جهة الجيش، وعدم قبول أي شيء من ذلك حتى يكون مرسلا عن طريق الوزير الكاتب، وعدم اتخاذ أي موقف إلا بعد تدبر ورفض كل ما يأتي من طريق البطانة من أخبار متعلقة بأعراض الرعية، والمشورة في ما يتخذه من قرارات[2].

كما أن عبد الله بن المقفع[(3)] كان له فضل في هذا المجال؛ فقد كانت كتاباته، كتاباته، ومنها رسالة الصحابة والأدب الصغير والأدب الكبير، أول ما ألف في الفكر السياسي.

وجاءت رسالة الصحابة في شكل تقرير تقويمي للأوضاع السياسية والمالية والإدارية للدولة الإسلامية في عهد أبي جعفر المنصور ومن قبله، وتضمنت آراء ابن المقفع واقتراحاته فيما يجب عمله من أجل إصلاح النقائص في القطاعات التي أشار إليها[4]، أما الأدب الصغير فإنه جاء في شكل عرض لأهم الأخلاق والصفات

---

1 – خرج الضحاك بن قيس على الأمويين سنة 127 هـ.
انظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية، القاهرة، 1913، هامش 1، ص 139.

2 – انظر رسالة عبد الحميد الكاتب في رسائل البلغاء، م ن، ص ص 139 – 165.

3 – كان عبد الله ابن المقفع مجوسيا في بداية حياته، غير أنه تربى في الوسط الإسلامي، وأولع بالعلم، فجاء منه في سن العشرين ما يندر أن يكون مثله لأبناء الأربعين والخميس واتصل بعيسى بن علي عم السفاح، الخليفة العباسي الأول، وكتب له واختص به، وأعلن الإسلام على يد عيسى بن علي المذكور وتسمى بإسم عبد الله وكنى بأبي محمد، قتل بالبصرة سنة أربع وأربعين ومئة.
انظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913، ص 9.
وابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، موقع الوراق وعنوانه: www.Alwarraq.com، ج 2، ص 71.

4 – انظر نص الرسالة في رسائل البلغاء، محمد كرد علي، ص ص 120 – 131.

الحميدة التي يستحسن تحلي ولاة الأمور بها مثل: صحة العقل، واختيار الأمور بالتبصر، وتنفيذ الأمور بالعزم[1]، كما تضمن كيفية اختيار ولي الأمر للوزراء والأعوان وأصنافهم والشروط المطلوب توفرها لاختيارهم[2]، ثم جملة من النصائح حول الوسائل التي يجب أن يتعامل بها مع أعوانه ووزراءه ورعيته[3] وخلال القرن الثالث ألف الجاحظ[4] كتاب "التاج في أخلاق الملوك" تحدث فيه عن كيفية تعامل الملك مع بطانته وعامة أفراد رعيته وأورد فيه مجموعة من النصائح إلى الملك في ذلك[5].

وفي هذا القرن أيضا بدأت تظهر إلى الوجود بعض المصنفات المستقلة عن الملوك وغير موجهة إليهم في الفكر السياسي على أيدي فلاسفة مسلمين؛ غير أن تلك المصنفات كانت تستند إلى مرجعية غير إسلامية، فقد كانت مجرد ترديد لفلسفات أجنبية كالهندية والفارسية واليونانية[6].

ومن أشهر الفلاسفة الذين كتبوا في القرن الثالث الهجري أبو نصر الفارابي[7]، الذي أخذ فلسفة أرسطو وأفلاطون ونقل أكثر مسائل كتبهما[1].

---

1 – ابن المقفع، الأدب الصغير، ضمن رسائل البلغاء، م س، ص 19.

2 – ن م، ص ص 33 – 50.

3 – ن م، ص 50 – 54.

4 – الجاحظ هو عمرو بن بحر أبو عثمان البصري، صاحب التصانيف الكثيرة في الفنون، كان بحرا في العلوم، رأسا في الكلام والاعتزال، أخذ عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، وأبي إسحاق النظام، توفي سنة 255 هـ.

انظر: الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، موقع الوراق www.alwarraq.com، ج 1، ص 86.

5 – الجاحظ عمر بن بحر، التاج في أخلاق الملوك، منشور على شبكة الانترنت، موقع الوراق وعنوانه www.alwarraq.com ، ص 18.

6 – انظر الحمداوي عبد الكريم محمد مطيع، في النظام السياسي الإسلامي، محاولة نقدية للتأصيل والتطوير، منشور على موقع الشبيبة الإسلامية المغربية بصيغة html، وعنوان الموقع هو: www.achabibah.com تاريخ الدخول: 2010/12/23.

7 – أبو نصر الفارابي هو: محمد بن محمد بن طرخان بن أورلغ، فيلسوف تركي، قدم بغداد وأدرك بها متى بن يونس الفيلسوف فأخذ عنه، وسار إلى حران فلزم يوحنا بن حبلان النصراني وأخذ عنه، وأتقن العربية في

وفي بداية القرن الرابع الهجري كتب الأشعري[2] "الإبانة عن أصول الديانة"، خصص فيه بالموضوع الإمامة، سلك في عرضه مسلك الفقهاء، ولم يأخذ بآراء الفلاسفة سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

وفي هذا الكتاب تحدث الأشعري عن عدة أمور من أهمها:

1 - بيان من هو الأفضل في تولي الإمامة.

2 - اعتباره العهد طريقا لتولي منصب الخليفة.

3 - رأيه بجواز العهد إلى جماعة لاختيار الخليفة.

4 - قوله ببيعة أهل الحل والعقد طريقا آخر لتولي المنصب المذكور.

5 - إجازته المعارضة التي تمت ضد علي بن أبي طالب وغيره[3].

وفي القرن الخامس الهجري ألف الماوردي[1] كتابه المشهور "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" سلك فيه مسلك الأشعري، أي مسلك الفقهاء، وتناول في هذا الكتاب مجمل المسائل الفقهية المتعلقة بالخليفة والوزراء والأمراء باختلاف أصنافهم.

بغداد، وأخذ الفلسفة من اللغة اليونانية، وأكب على مصنفات أرسطو وشرحها، توفي بدمشق عام 339هـ.

انظر: الزركلي، م س، ج 7، ص 20. والصفدي، م س، ج 1، ص 51.

1 - تأثر الفارابي بآراء أرسطو وأفلاطون وكانت الكثير من آراءه مجرد ترديد لآرائهما.

انظر: د. محمد جلال شرف، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1982، ص ص 177 – 204.

2 - الأشعري هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل (260 هـ - 324 هـ) كان معتزليا، ثم أظهر فضائح وقبائحهم، له من الكتب. مقالات الإسلاميين والإبانة عن أصول الديانة مر في حياته بمراحل: أولاها: انتماؤه إلى مذهب الاعتزال، ثم تزعمه، والثانية: تخليه عن الاعتزال ونقده وسلوكه منهجا عقليا في إثبات الصفات، والثالثة: ميله إلى منهج الإمام أحمد.

انظر الأشعري ابو الحسن بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة ، تحقيق محمد بشير أبو عون ، نشر مكتبة دار البيان، دمشق، ط 3، 1990،ص 168-179.

3 - ن م ص 179.

كما ألف كتابا آخر يتضمن مجموعة من النصائح الموجهة للخليفة سماه "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك" تحدث فيه عن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الملك والقواعد التي تقوم عليها سياسته[2].

وفي ذات القرن ظهرت العديد من المؤلفات التي تحدثت عن أخلاق الملوك ومنها: كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ - 1111 م)، وكتاب "سراج الملوك"، لمحمد بن الوليد الطرطوشي (ت 520 هـ - 1121 م)[3] وفي القرن السادس كتب أخرى في ذات الموضوع وبنفس المنهج ومنها: كتاب "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" لعبد الرحمن بن عبد الله الشيرزي (ت 589 هـ - 1194 م)[4]، و"سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لابن ظفر الصقلي (ت 570 هـ)[5].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن التأليف في الفكر السياسي عند العلماء السابقين عن عصر أبي حمو موسى الثاني سلك منهجين، أولهما قام على توجيه النصائح إلى الملوك حول ما يجب أن يتحلوا من الأخلاق وبيان القواعد التي يقوم عليها الملك، أما الثاني فقد سلك المنهج الفقهي القائم على بيان الأحكام الشرعية التي تبنى عليها الخلافة والوزارة وغيرهما من المناصب الشرعية.

---

1 – الماوردي هو: أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري فقيه شافعي، له تصانيف في الفقه وأصوله والتفسير والأحكام السلطانية والأدب توفي سنة 450 هـ.
انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، منشور على شبكة الانترنت، موقع الوراق وعنوانه: www.alawarraq.com، ج 1، ص 36.

2 – الماوردي أبو الحسن علي بن حبيب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي الدين هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، عام 1981.

3 – حاجي خليفة، كشف الظنون، ج 2، ص 1113.

4 – الشيرازي عبد الرحمن بن عبد الله، المنهج المسلوك، تحقيق ودراسة علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1987.

5 – ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، مطبعة الدولة التونسية، عام 1279 هـ، 1862 م.

وقد اختار أبو حمو المنهج الأول في تأليف كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، إذ جاء عنوانه على نفس سياق الكتب السابقة، وفي مقدمته وصف مضمون كتابه فقال: (... فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا وصايا حكيمة، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك)[1].

ثم فصل تلك الوصايا والسياسة فذكر أنها تشمل الوصايا والآداب التي ترشد الملك إلى طريق الصواب، وقواعد الملك وأركانه وما يحتاج إليه الملك في تنظيم سلطانه، والأوصاف الدالة على كمال الملك وجماله، وختم الكتاب بموضوع القراسة التي هي أساس اتخاذ القرارات الصائبة[2].

وبناء على ذلك جاء تقسيم أبي حمو كتابه إلى أربعة أبواب، وفي كل باب فصول أو عناوين مستقلة دون فصول أعرضها بإيجاز.

الباب الأول: الوصايا والآداب والحكم المرشدة إلى طريق الصواب.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى الإتصاف بتحكيم العقل على الهوى، والتحصن على ملازمة التقوى.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال.

الفصل الرابع: توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والأجناد والأمراء والقواد[3].

---

1 – الورقة رقم 1 من المخطوط.
2 – نفس الوثيقة.
3 – الورقة رقم 1 من المخطوط.

الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قواعد سلطانه وهي أربعة قواعد.

القاعدة الأولى: قاعدة العقل.

القاعدة الثانية: قاعدة السياسة.

القاعدة الثالثة: قاعدة العدل.

القاعدة الرابعة: قاعدة جمع المال والجيش[1*].

الباب الثالث: في الأوصاف المحمودة: وهي أربعة قواعد:

القاعدة الأولى: قاعدة الشجاعة[2].

القاعدة الثانية: قاعدة الكرم[3].

القاعدة الثالثة: قاعدة الحلم[4].

القاعدة الرابعة: قاعدة العفو[5].

الباب الرابع: في الفراسة[6]، وهي خاتمة السياسة، وهذا الباب يتضمن نصائح موجهة إلى ابنه أبي تاشفين جاءت بشكل خطابات موجهة إليه مباشرة وتبدأ بقوله:(يا بني).

---

1 – الورقة رقم 13 من المخطوط.

* لتمكين القارئ من فهم الكتاب بسهولة وضعت كل قاعدة في فصل مستقل.

2 – الورقة رقم 47 من المخطوط.

3 – الورقة رقم 49 من المخطوط.

4 – الورقة رقم 50 من المخطوط.

5 – الورقة رقم 50 من المخطوط.

6 – الورقة رقم 51 من المخطوط.

ولم تختلف طريقة أبي حمو في عرض أفكاره وآرائه عن سابقيه من حيث الاستدلال ومحاولة الإقناع؛ فكان مصدره الأول في الكتاب هو"سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لمحمد بن أبي محمد بن ظفر[1]، فهو يبدأ بعرض فكرته ثم يستدل لها بما يناسبها من الأدلة، لذلك نجده يستدل بالنصوص الدينية سواء أكانت من القرآن أم من السنة، أو بالسوابق المنقولة عن الصحابة وأقوال العلماء المسلمين، كما يستدل بالشائع من الأقوال والحكم الهندية والفارسية وسوابقهم في العمل.

الفرع الثالث: أهمية الكتاب.

إن كتاب أبي حمو له أهمية علمية وتاريخية وأدبية.

أولا: الأهمية العلمية.

تبرز الأهمية العلمية لكتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو من وجهين:

1- إن كتاب أبي حمو يقدم للقارئ معلومات هامة حول الأسس الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي يقوم عليها أي نظام سياسي.

ومن هذه الناحية فهو يساهم في طرح النظرية الإسلامية في الحكم كما عرفها علماء الإسلام في أزهى عصور الدولة الإسلامية.

---

1 – قال المقري: كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله وله رحمه الله تأليف حسن في السياسة لخص فيه سلوان المطاع لابن ظفر، وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين، وسماه "نظم السلوك في سياسة الملوك".

انظر أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 83.

ونلاحظ هنا أن المقري أخطأ في اسم الكتاب فذكر أنه سماه "نظم السلوك في سياسة الملوك"، غير أن أبا حمو ذاته ذكر في مقدمة الكتاب أنه سماه: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذا هو الصحيح.

انظر الورقة رقم 1 من المخطوط.

2- يقدم هذا الكتاب أنموذجا لمفكر سياسي مسلم يجمع بين الخبرة العلمية في ممارسة السلطة مدة تفوق الثلاثين سنة، وتشربه معارف عصره وإطلاعه على آراء وأقوال سابقيه من الملوك والعلماء على حد سواء.

ثانيا: الأهمية التاريخية.

لكتاب "واسطة السلوك" أهمية كبرى من الناحية التاريخية من.

1- إن الكتاب يتحدث عن مرحلة تأليفه وما عاصره المؤلف من أحداث لذلك فهو من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامة تساعد على فهم أسباب الصراعات التي كانت قائمة في تلك الحقبة وما تلاها، وكذا حركة القبائل المختلفة وأهم مكوناتها وأصولها.

2- يقدم الكتاب معلومات هامة عن الكثير من الأحداث التاريخية التي اطلع عليها المؤلف في مختلف المصادر التاريخية، أو السماع المباشر من أشخاص اتصل بهم أو سمع عنهم، وهذه المعلومات تساعد القارئ والباحث على فهم حقيقة ما كان سائد سواء في المغرب الإسلامي أم في غيره.

ثالثا: الأهمية الأدبية:

اشتمل الكتاب على الكثير من القصائد الشعرية التي كتبها المؤلف، وهذه القصائد تتضمن معلومات مهمة حول الحياة الأدبية في تلمسان في ذلك الحين، والتي تميزت بعد مميزات، منها:

1- بلوغ التذوق الفني مستوى راقيا، إذ أن لغة قصائد أبي حمو وأسلوبه تدل على أن النخبة العلمية والأدبية في ذلك الوقت كانت مهتمة بمختلف الأنواع الأدبية.

2- إن أبا حمو، مع كونه بربريا في الأصل، قد تمكن من أصول العربية، وتحكم في أدواتها مما جعله يعبر بأقل الألفاظ على أقوى المعاني، مما يدل على الاهتمام الواسع باللغة العربية في ذلك العهد.

3- إن اشتغال أبي حمو بالسياسة وخوضه حروبا متواصلة لا تخمد نيران إحداها حتى تندلع حرب أخرى، ومع ذلك ترك لنا هذا الإرث العلمي التاريخي والأدبي، مما يدل على عظمة الرجل وواجبنا أن ندرس هذا الإرث وأن نخرجه للباحثين والقراء.

المطلب الثاني: عملي في تحقيق المخطوط.

حاولت أن أقدم مخطوط واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو موسى الزياني بالشكل الذي يستحقه، لذلك بدأت بالتعريف بأبي حمو ثم كتابه، وتوثيق ما كانت هناك ضرورة إلى توثيقه من معلومات واردة في متن الكتاب، وقد اهتممت بالمسائل التالية:

1 – التعريف بالمؤلف

2 – التعريف بالكتاب

3- عزو الآيات إلى السور التي جاءت فيها و ترقيمها.

4 - تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب.

5- شرح المفردات اللغوية الغريبة لتمكين القارئ من فهم الكتاب، لاسيما القصائد الشعرية التي استعمل فيها مفردات غير متداولة ويصعب على غير المتخصص فهمها.

6- وضع عناوين بارزة للأبواب والفصول والأجزاء الفرعية لها، من أجل تيسير قراءة الكتاب وربط أجزاءه ببعضها.

7– تغيير طريقة رسم بعض الحروف لعدم استعمالها في هذا العصر ، وذلك قصد تيسير قراءة الكتاب، مع الإبقاء على بعضها لكونها سهلة على القارئ، مثل كتابة الهمزة على السطر قبل الألف في كلمة ءاخر، وكلمة رءاه، وغيرهما.

الورقة الأولى من المخطوط

الورقة الأخيرة من المخطوط

كتاب واسطة السلوك

في سياسة الملوك

مقدمة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم... صلى الله على سيدنا ومولانا

قال المالك المعظم الشأن الماجد المفخم السلطان محي رسوم دولة بني زيان ومجد الملك ويليه حضرة تلمسان أبو حم[2] موسى بن يوسف ابن عبد الرحمان بن الأمير يغمرا سن[3] بوزيـــــان رحمة الله تعالى عليـــــه.

الحمد لله الذي جعل نعمته على الخلق بما ألفهم عليه من الحق شاملة شائعة، ويسر طوائف من عباده لليسرى فأتت إليها مساعدة مسارعة، وحظهم على الأخذ بالحسنى ولا أحسن من نفوس أرشدت فأقبلت لأمرها طالبة، ولربها طائعة، ولا أسمى من همم نظرت بحسن السياسة في تدبير الرياسة، التي هي لأشتات الملك جامعـــة، ولأسباب الهلك مانعة، وأظهرت من معادنها درر الحكم وغرر الكلم لامحة لامعة فاجتلت أقمارها طالعة واجتلت[4] أزهارها يانعة، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم المبعوث بالآيات البينات ساطية ساطعة والمعجزات المعجبات قاصمة لظهور الجاحدين قاطعة الذي زويت[5] له الأرض فتدانت أقطارها وهي يانعة[1]

---

1 - كلمة "مقدمة" من وضعنا.

2 - في مختلف المصادر والمراجع التي رجعنا إليها لاحظنا أن كلمة حم كتبت بالواو (حمو).

3 - يغمراسن هو مؤسس الدولة الزيانية ، بويع في تلمسان عام 631 هـــ ومات فيها 681 هـــ وله 81 سنة، ودام حكمه خمسين سنة وخمسة أشهر.

انظر ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص ص 59 - 60.

4 - اجتلت: قال ابن منظور: اجتلت منهم جولة وانتضلت نضلة ومعناهما الاختيار وحلت هذا من هذا أي اخترته منه واجتلت منهم جولا أي اخترت .لسان العرب، مادة اجتل.

5 - قال ابن منظور في معنى كلمة زويت: (زوي) الزي مصدر زوي الشيء يزويه زيا وزويا فانزوى نحاه فتنحى، وزواه قبضه، وزويت الشيء جمعته وقبضته، وفي الحديث: إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها زويت لي الأرض جمعت، ومنه دعاء السفر وازو لنا البعيد أي أجمعه واطويه، وزوى ما

شاسعة واشتاقت له المياه فبرزت بين أصابعه نابعة وامتثل السحاب أمره فسبح باستسقائه دررا هامية[2] هامعة[3]، وحن الجذع له وكان حنينه لهذه الآيات الثلاث آية رابعة إلى ما لا يحصى مما أتت به متواترات الأخبار وصحيحات الآثار، ناصرة لنبوته ناصعة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته التي أجابت داعي الله خاشية خاشعة، وأذعنت لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت من الاستبداد خالية،

وللأنداد خالعـــة، صلاة ديمتها دائمة متتابعة، وسلم كثيرا أثيرا، أما بعد: فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وشفاء الصدور وثمار القلوب، وجلاء الكروب، وأفضل بغية وأجمل مطلوب، وأخلص محب وأحسن محبوب، ودرة كل زين وقرة كل عين ووصلة للأنساب، وسلسلة التناسل والاعتقاب وورثة الآباء، ومنشأ الأبناء، وسر الحياة، وحياة العظام الرقاة يرغب فيهم الأنبياء ويعبر فهم الأولياء، قال الله عز وجل مخبرا عن نبيه زكرياء إذ دعاه فقال: (فَهَبْ لِي مِنْ

بين عينيه فانزوى جمعه فاجتمع وقبضه، قال الأعشى يزيد يغض الطرف عندي كأنما زوى بين عينيه على المحاجم. لسان العرب مادة زوي.

1 – يانعة بمعنى ناضجة؛ قال الزمخشري:

ثمرة يانعة ومونعة: نضيجة، وقد ينعت وأينعت، وهذا أوان ينعه وينعه، ورمان ينيع. قال عمرو بن معد يكرب:

كأن على عوارضهنّ راحا... يفضّ عليه رمان ينيع.

انظر: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، أساس البلاغة، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 32.

2 – هامية، قال بان منظور في معناها: من (همى يهمي وهمى الشيء هميا سقط عن ثعلب وهمت الناقة هميا ذهبت على وجهها في الأرض للرعي ولغيره مهملة بل راع ولا حافظ، وكذلك كل ذاهب وسائل، والهميان هميان الدراهم بكسر الهاء الذي تجعل فيه النفقة، والهميان شداد السراويل، قال ابن دريد: أحسبه فارسيا معربا، وهميان بن قحافة السعدي: اسم شاعر تكسر هاؤه وترفع، والهميان: موضع أنشد ثعلب وإن امرأ أمسى ودون حبيبه سواس فوادي الرس فالهميان لمعترف بالنأي بعد اقترابه ومعذورة عيناه بالهملان، وهمت الماشية إذا ندت للرعي، وهوامي الإبل ضوالها، وفي الحديث أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنا نصيب هوامي الإبل، فقال: لضالة المؤمن حرق النار، أبو عبيدة الهوامي الإبل المهملة بلا راع، وقد همت تهمي فهي هامية إذا ذهبت على وجهها، ناقة هامية وبعير هام وكل ذاهب وجار من حيوان أو ماء فهو هام، ومنه همى المطر، ولعله مقلوب من هام يهيم، وكل ذاهب وسائل من ماء أو مطر أو غيره فقد همى) لسان العرب، مادة همى.

3 هامعة، قال الزمخشري في بيان معنى هذه الكلمة: (عين دامعة: هامعة وقد همعت بالدمع هموعاً). الزمخشري، أساس البلاغة، ج 2،ص 5.

لذلك وليًا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيًا)[1]، ويجب أن تكون لهم الآباء كالسماء الظليلة و الشمس المنيرة والسحب المنيلة، فيتحفونهم بكل أدب وفضيلة ويمنحونهم من كل فائدة جليلة.

وخير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأولاد من رياحين الجنة)[2].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محبا في ولده سالم: تلومونني في سالم وألومهم وجلده بين العين والأنف سالم[3].

وقال الطائي:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

إن هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض[4].

فرأينا أولى ما نتحف به ولى عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا[5]، وصايا حكمية، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه ورتبناه ترتيبا وبوبناه تبويبا على أربعة أبواب.

---

1 - سورة مريم ، الآيتان 5 – 6.

2 - اخرجه الكوراني أبو طاهر محمد بن إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي في كنز العمال عن خولة بنت حكيم، حديث رقم 44422، ولفظه (الولد من ريحان الجنة)،

3 - انظر ابن سعد محمد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1968 م، ج 5، 196.

4 - انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، منشور على موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 235، تاريخ الدخول: 08 /2010/12.

5 - يقصد ابنه أبا تاشفين الذي تعاون مع المرينيين على قتله ، وقد سبق ذكر وقائع ذلك.

الباب الأول: في الوصايا و الآداب والحكم المرشدة إلى طريق الصـــواب.

الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج إليه الملك في قوام سلطانه.

الباب الثالث: في الأوصاف التي هي نظام الملك وكماله وبهجته وجمالـــه.

الباب الرابع: في الفراسة وهي خاتمـــــة السياســــــــــــــة.

الباب الأول:

في الوصايا والأدب والحكم التي ترشد إلى طريق الصواب وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضـــــــل.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى الاتصاف بتحكيم العقل على الهوى والتحصن على ملازمة التقـــــــوى.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال.

الفصل الرابع: توصية ترشد إلى حفظ الجيوش و الأجناد و الأمراء والقواد[1] .

---

1 - هذا الفصل لم يرد محتواه في المتن.

الفصل[1] الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل[2]

يا بني العدل سراج الدولة فلا تطف سراج العدل بريح الظلم إذا عصفت نصفت، وريح العدل إذا هبت ربت.

ومن شروط الأمانة العدل في الأحكام والتجنب عن الحرام والصبر في الشدائد والجري على أحسن العوائد؛ فأن صلاح الدولة بقواعدها وفسادها بخرق عوائدها.

يا بني ألبس ثياب العفة وتردّ رداء الوقار وتتوج بتاج الحياء وتزين بزي السكينة وتقلد بصارم العدل وتحل بحلية الكرم وتختم بخاتم الهيبة.

يا بني التزم الصبرعند الشدة والعفو عند القدرة، وأظهر المحبة لمن تحب[3]، ولا تفش البغض لمن تكره.

يا بني إياك والإعجاب فإنه للملك خطأ غير صواب، ومن أعجب من نفسه قرب من رمسه[4]*.

يا بني أربعة لا يزال معها الملك: حسن التدبير في الأمور، والعدل في الخاصة والجمهور، والأخذ بالحزم، والصبر في الأزم.

يا بني أربعة لا يثبت معها الملك: سوء التدبير، ومخالفة النصيح والمشير، وخبث السريرة والنية، والجور على الرعية.

---

1 – كلمة "الفصل" من إضافتنا.

2 – العنوان من إضافتنا

3 – إشارة إلى قول عمر بن عبد العزيز: (إن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل العفو عند القدرة، وتسكين الغضب عند الحدة، والرفق بعباد الله). ذكره البهقي في شعب الإيمان، مو قع السنة على الأنترنت، وعنوانه: http://www.alsunnah.com، ج 17، ص 355.

4 – الرمس: الدفن، رمسه يرمسه ويرمسه رمسا فهو مرموس ورميس: دفنه وسوى عليه الأرض. انظر: أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com ، ص 3965.

* كان أبا حمو يتمثل قول الشاعر:

والشيخُ لا يَترُكَ أخلاقَهُ... حتّى يُوارَى في ثَرَى رَمْسِهِ

يا بني إن الملك خليفة الله في أرضه[1] الموكل بإقامة أمره ونهيه قلده بقلائد الخلافة، وجعله حصنا منيعا لذوي المخافة، وأمره بإقامة الشرائع وسد الذرائع، ليقيم قسطاس الحق في رعاية الخلق، وأتاه الله من ملكـــه، وجعـــل الرعيـــة تحت إيالتـــه وفلكـــه[2]؛ فإن أطاعه فيما قلده به وأنفذ الحق في حكمه ومذهبه دام له الملك ونجا من الهلك، وإن خالف الحق ومال إلى التقصير لم يكن (له)[3] من ولي ولا نصير.

يا بني من تدرع بدرع العدل وقي شر العدا، ومن تلبس بلبس الجور سقي كأس الردا[4]، والعدل خير من ماء الحياء، والجور أشر شيء يتقى، والعدل نعم ما يجتنى والجور بئيس ما يقتنى، والعدل كنز الأمير وحياة الغني والفقير.

يا بني ولا تنسى ذكر الله في سرك ولا في جهرك ولا تدعه في جميع شأنك وأمرك، واجعله أنسك وشعارك وقوتك ليلك ونهارك، ولا يشغلك ما تقلدت من أمـــر الخلافة عن ذكر الله لأن كل شيء باطل سواه، ورضّ نفسك للأذكار، وتوسل بربانيات الأشعار، وهذا يابني هو دأبنا، والله حسبنا، وقد ذكرنا في ذلك قصائد نتوسل بها لله جل وعلا ونشكره على ما أنعم وأولى؛ فمنها قولنا هذا الخبـــب[5] البديع أشهر في أنواع التصوير والترصيع وهـــــو:

دمع ينهل من المقل بقبيح كان من العمـــــــل

---

1 - إشارة إلى حديث (السلطان ظل الله في الأرض....)، والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في الإمام العادل.

2 - إشارة إلى قوله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله) سورة ص، الآية 26.

3 - ما بين هلالين من زياداتنا

4 - الردى والردا بمعنى الهلاك ؛ قال الصاحب بن عباد: (الردى: الهلاك، وقد ردي فهو رد، وأرداه الله؛ من قوله عزوجل: "تالله إن كدت لتردين". والتردي في مهواة: التهوي فيها)، المحيط في اللغة، منشور على موقع الوراق وعنوانه: http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 357.

5 - الخبب ضرب من العدو وقيل هو مثل الرمل وقيل هو أن ينقل الفرس أيامنه جميعا وأياسره جميعا وقيل هو أن يراوح بين يديه ورجليه وكذلك البعير وقيل الخبب السرعة وقد خبت الدابة تخب بالضم خبا وخببا وخبيبا واختبت حكاه ثعلب وأنشد مذكرة الثنيا مساندة القرى... جمالية تختب ثم تنيب.

وجرى في الصدر له حرق فالقلب لذلك في شغـــــل

وَنهيت النفس فما قبلت وتولى الصبر فما حيــــل

ناس ركبوا التقوى لقد ركبت نفسي طرق الزلـــل

أبا أدني الوقر فما سمعت والذنب تكاثر من خلــــل

ليلي سهر نومي فكر دمعي درر برأســي علـــــل

نفسي زجرت[1] هل لا افتكرت لما نظرت ما يصلح ل[2]

إثمي كثرا شيي ظهرا واشتهر والأمر جـــــل

في القلب شجا[3] كيف المنجا لمن الملجا بارت[4] حيــــل

من ينقذني من يسعدني من يرحمني من يغفـــر ل

إلا مولى مسدى الطولان بني الأعلى يحي الــــدول

أحياها بي وبأعرابي وأنا الزابي[5] والدولة ل

الله قضى والحكم مضى ولنا فرضا فدعوا عــــدل

فله الشكر وله الأمر منه النصر لا من قبــــل

---

1 - في النسخة الحجرية ضجرت.

2 - حرف اللام مضاف لضرورة شعرية.

3 - شجي الرجل يشجى شجا من باب تعب حزن فهو شج بالنقص، وربما قيل على قلة شجي بالتثقيـــل كما قيل: حزن وحزين ويتعدى بالحركة، فيـــقال شجاه الهم يشجوه شجـــوا من باب قتل إذا أحزنـــه. انظر الفيومي أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، موقع الإسلام وعنوانه: http://www.al-islam.com ، ج 4، ص 450.

4 - قال ابن منظور في بيان معنى كلمة بارت: (البوار الكساد وبارت السوق وبارت البياعات إذا كسدت تبور، ومن هذا قيل: نعوذ بالله من بوار الأيم أي كسادها، وهو أن تبقى المرأة في بيتها لا يخطبها خاطب، من بارت السوق إذا كسدت والأيم التي لا زوج لها).
لسان العرب . مادة بور.

5 - الزابي: نسبة إلى إقليم الزاب، وقد سبق ذكره.

حملني الملك ومن يقوي يحمل ما فيه من الثقـــــل

ألا بمعونة خالقنا مولى النعماء وخيـــــــــر ول

احمي المظلوم وأنصره و أقيم الحق بلا ميل

أنزلت الناس منازلهم[1] وتركت الظالم في وجـــــل

فأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهـــــــل

والرفق كذلك من شيمي والعدل به أعطى أمل

وأنيل القاصد حاجته وأنيل المال بلا مـــــــلل

وأنا للحرب كعنترها وأنا في السلم اخو جـــــــدل

خيلي للحرب ملحمة وكذا للشر ولا تمـــــــل

وأنا موسى وأمر حمو أصلح للملك ويصلــــح ل

سيفي إن ملت بقائمة أدنى المراق إلى الأجل

وكذلك كفاي إذا انبسطت من كان مقلاعا[2] دمـــل[3]

أهل تلمسان بدولتنا كالشمس لدى برج الحمـــــل

تفنا الدنيا وصحبتهم فينا وحياتك لم تحـــــــل

---

1 - إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزلوا الناس منازلهم).رواه أبو داود في سننه. باب تنزيل الناس منازلهم.

2 - المِقْلاع، وهو ما يُجعل فيه الحجر ويُرمى به لطرد الطير وغير ذلك ،ابن دريد ،جمهرة اللغة، موقع الوراق وعنوانه: http://www.alwarraq.com، ص 304.

3 - قال الزَّبيدي في بيان معنى دمل: (دمل بينهم دمل: إذا أصلح قال الكميت:

رأى منها تحش لفتنة ... وإيقاد راج أن يكون دمالها يقول: يرجو أن يكون سبب هذه الحرب كما أن الدمال يكون سببا لإشعال النار. كدومل بينهم وهذه عن ابن عباد. وتداملوا: تصالحوا عن ابن دريد. والدمل كسكر وصرد: الخراج لأنه إلى البرء والاندمال ما هو نقله الأزهري).

الزبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني،تاج العروس من جواهر القاموس، م س. مادة دمل.

ولقد بذلوا في خدمتنا أقصى الغايات بلا كسـل

فلهم منا عدل وندى ولنا منهم أقصى الأمل

فبفضله ومنته أرشدت إلى أهدى السبـل

وأنا أرجو من رحمته أن يغفر لي يوم الخجـل

بعناية أحمد سيدنا وهو المبعوث إلى الملـل

مبدي الإسلام ومظهره علم التقوى خير الرسـل

يا بني فعلى هذا المنجا يكون سيرك فيرجى من الله خيـرك.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى تغليب العقل على الهوى والحظ على ملازمة التقوى.

اعلم يا بني أن العقل راحة النفس فاجعل عقابك راحة نفسك واستجلاب أنسك، واجعل العقل ميزان رأيك والفكرة مرآة عقلك، واعلم أن الدنيا منقلبة فلا تغتر بغرورها ولا تطمئن لسرورها ولا تفرح لها إذا أقبلت ولا تحزن لها إذا أدبرت.

يا بني إن الاعتزاز بالدنيا باطل فاركب لها جواد الحق، وإذا أعطيت ما يفنى فاشتريه ما يبقى فإن الدنيا منهج للآخرة، ومن جعل الدنيا رأس ماله كانت تجارته خاسرة.

يابني أربعة من علامات العقل: اتباع المكارم، واجتناب المحارم، وملازمة التقوى، ومخالفة الهوى، وأربعة تدل على عقلك وتوجب المحبة لك: تأخير العقاب، وتعجيل الثواب، والنطق بالصواب، والصدق في الخطاب.

يا بني إن الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره لا تطفيه عواصف الرياح، ولا يبتغي للعاقل أن يجالس الأحمق فان مجالسته غرر وقيامه عنك حذر، يابني العقل شجرة من أشجار الأنس فمن استظل بها ولازمها اجتنى منها ثمار المحبة، يابني أصمت عما يضرك تبلغ ما يسرك، يابني من رحم يرحم[1]، ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الباطل يأثم ومن لا يملك لسانه يندم، يابني إذا رأيت سرك فشي في الناس فاخصص به اثنين من أصحاب سرك واحدا بسر دارك والأخر بسر عدوك ثم اغفل عنهما فما خرج من سريهما فهو صاحب الإفشاء.

يا بني لا تكثر من مجالسة النساء لئلا يفسرن عقلك بعقولهن ويسترق طبعك من طباعهن فإنهن ناقصات عقل ودين وان أشرن عليك بأمر فخالفهن فيه لأن

---

1 – إشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله). رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في رحمة الناس، ح ر 1847.

عقول النساء غير موافقة لعقول الرجال فإنك إن أحسنت إليهن قابلن الإحسان بالإساءة ومن ضعف عقولهن أن لا يفرقن بين المحسن والمسيء، فاحذر مطاوعتهن ولو كان فيهن مثل أخت ملك الخرز حكي الفضل بن سهل قال كان عندي رسول ملك الخرز فكان يحدثني عن أخت للملك تسمى خاتور قالت أصابنا سنة مجاعة شديدة ففزع الناس إلى الملك فلم يدري ما يجيبهم به فقالت له خاتور أيها الملك إن الحرم علق لا يخلق جديدة ولا يمتهن عديدة وهو دليل الملك على استصلاح رعيته وزاجر له عن استفسادها، ولقد لجأت إليك رعيتك بفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزا ولا ينقص العود بالإحسان إليهم ملكا وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعية من الراعي ولم تزل في نعمة لم يغيرها نقمة وفي رضي لم يكدره سخطه إلى أن جرى القدر بما عمى عنه البصر ودهل[1] عنه الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد النعم وعد به من اليم النقم فمتى تنسه ينسك. ولا تجعل الحياء من التذلل للمعز المذل شركا منك ومن رعيتك فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة وبتبديل الألسن في الدعاء لمحضر الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه من سيئ فعل إلى صالح عمل وليبعثه على ذوي شكر يحوز به فضل اجر فأمرها الملك أن تقيم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه، وقد علم الله منهم قبول ذلك الوعظ بالأمر والنهي فحال عليه الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع؛ فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك وجمع الرعية علـــى الطاعة لها في المحبوب والمكروه فلا تطاوع أمره ولو كانت مثل خاتور

---

1 – قال الليث: لاَ دَهْل بالنَّبطيّة: لا تَخَفْ وأنشد البشّار:
فقلتُ له: لا دَهْلَ من قَمْل بعد ما... مَلاَ نيفَقَ التُّبان منه بعاذِرِ.
انظر الأزهري محمد بن أحمد الهروي، تهذيب اللغة، موقع الوراق وعنوانه: http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 304.

هذه التي سمي في الحكاية قدرها ومثل الزبالة اشتهر في الدهر أمرها وسيأتي في كتابنا هذا ذكرها.

يا بني إياك والميل للنساء بالكلية فان ذلك عين الأذية وسبب البلية فإنك إذا ملت إليهن بكليتك كن سبب أذيتك فيقضي بك الأمر إلى ما أفضى باليزيد بن الوليد المرواني حين شغف بحبابة وفاضت نفسه عليها صبابة وهي التي أشرنا إليها في قصيدتنا التي نذكرها الآن ونختم بها هذا الفصل الثاني ونقيم بها البرهان على نحو ما لخصناه واختصرتاه:

اعلم يا بني إن اليزيد المرواني[1] كان مولعا بالنساء وكان له جوار يخلو بهن للهو والغناء فكلف بجارية منهن اسمها حبابة فكان يحبها حبا شديدا ويؤثرها على نفسه قريبا وبعيدا حتى نطقه الذي ينطق به وسمعه الذي يسمع به وعينه التي يبصر بها فاتفق له أن صنع يوما مهرجانا في قصره أبدع في احتفاله وبالغ في أمره وعمل على راحته مع جواريه وما علم أن القدر يجاريه ووكل وزراءه بأعماله وعرفهم براحته واشتغاله ثم أمر فتيانه أن لا يدخلوا عليه أحدا لا أهلا ولا ولدا، رغبة منه في الخلوة بحبابة والتشفي بها، لما به منها من الصبابة[2]، فبينما هو يتلذذ بمحبوبته ويريح نفسه معها في اطروبته ويأنس منها بالخلوة ويتلذذ بها تلذذ الصفوة إذ أوتي برمانة أهديت إليه في غير إبانها أبدع مما تكون في زمانها فاثر حبابة من فوره من

---

1 – يعني يزيد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الذي تولى الملك يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة، ويكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتوفي يزيد بن عبد الملك بإربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمسٍ بَقين من شعبان سنة خمس ومائة، وهو ابن سبع وثلاثين سنة.

انظر المسعودي، مروج الذهب، موقع: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 434.

2 – قال ابنُ دريد: الصَّبابة: رِقَّة الهوى، والحب، وقال نفطويه: الصّبابة: رِقة الشوق، والعشق: رقّة الحب، والرأفة: رقة الرحمة.

انظر عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، المزهر، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 135.

حبها لما في قلبه من حبها فشرقت حبابة من حبة من ذلك الحب ومات اليزيد أسفا عليها من الحب.

يحكى أنه بعد ثلاثة أيام بالموضع الذي ماتت فيه حبابة وهو نهيم[1] ، والجواري يصبرونه، فقال لهن: أنشدنني شعرا فأنشدت إحداهن: كفى حزنا بالهائم الصف أن يرى منازل من يهوي معطلة فقرا، فصاح صيحة وغشي عليه ولم يفق فوجدوه ميتـــــا.

يابنـــــــي انظر إلى اليزيد هذا وأين أفضى به الميل إلى النساء وكيف استحوذ عليه الهوى حتى اتلف نفسه وخسر ملكه وهذا من كثرة ميله وفساد عقله، وقد تغزلنا بقصيدة أنجز نظمها بسببها اليزيد وحبابة لتجتنب الميل إلى النساء ولئلا تمتحن بهذه الصبابة وهذه القصيدة المبار كـــــــــــة:

كتمت حبي فأفش الدمع كتمان وزاد شوقي على قيس وغيـــلان

ياحيرة الحي إني قد فتنت بكم كم تهجروني كأني مذنب جـــــان

ناديتهم ودموع العين هامية بأي ذنب رضيت اليوم هجـــــران

يافتنة القلب كم لي في هواك وكم أصلت هجري وقال صار صـــدان

الماء والنار تشكوا من فراقكم وحبكم قد رمي قلبي بنيــــــران

كم تهجروني وهجري لا يحل لكم الموت أهون من بعدى وهجران

وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا بانْ الزمان بحالي أي تبيـــــان

يا أحسن الناس مالي عنك مصطبر وكيف صبري وصبري اليوم أعيان

أنا جلبت الهوى حتى بليت به وخاض بحر الهوى قلبي وجثمـــــان

1 – نهم الأسد نهيماً وهو فوق الزئير. ونهمت الإبل: زجرتها. وله في هذا الأمر نهمة: شهوة، وقضى منه نهمته. وهو منهوم به: لا يشبع منه. الزمخشري، م س، ج 1،ص 492.

نازعت عيني على ما كان من نظر فقالت العين إن القلب ابـــــــلان

مهما نظرت إلى شيء أراقبه لميل نحوهم سري و إعلان

وهذه حالي باجيرتي ولكم تضاعف الوجد من شوقي وأشجان[1]

إني فتنت بذات الحال يا خوَلي وعذبت بجفاها العاشق الفـــــــان

يا قرة العين كم ترضى تفارقني رفقا علي أما يكفيك هجـــــــران

أنت لحالي وما قد بان من شغف و أعطفت بعد ذاك البحر سلـــــوان

قالت وحق هواك اليوم ما نظرت عيناك عيناي إلا دبت من شـــــان

الحب من شيمتي و الوجد معرفتي والصبر نافلتي يا ءال زيـــــــان

إني شغفت بكم من زمان مضى وأنت لم تدر ما قد كان أخفان

رقت حشاشة[2] قلبي من هواك وقد تضاعف السقم في روحي وأبدان

إني وحق جناة الحب ما اكتحلت والله بعدكم بالنوم أجفان

ولا شغفت بحسن غير حسنكم ولا أحدث عليكم في الهوى ثـــــان

ولا شربت لذيذ الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك خـــــــلان

ولا جلست مع قوم أحدثهم إلا حديثك مع قاص ومـــــــع دان

إن كنت مثلي فنعم الحب منقسما فافعل بفضلك ما أرضاك أرضـــــان

ضممتها حين زارتني ببهجتها وقلبها عندما أدعوه لبـــــــان

بتناوبات نعيم الدهر يانسا[1] والعيش صاف وروض الوصل ريـــــان

---

1 - أشجان: جمع شجن وهو الهوى، قال الأزهري: والشَّجَنُ: هوى النفس، والشجن: الحاجة، والجمع: أشجان. أنظر تهذيب اللغة، م س، ج 3، ص 450.

2 - قال ابن منظور: (كل بقية حشاشة والحشاش والحشاشة بقية الروح في المريض). لسان العرب، مادة حشش.

ولا رقيبا ولا واش يطوف بنا إلا الحسان بأصوات وألحـــــــــان

من كان غانيه رقت شمائلها تزهوا على ناعمات القضب[2] والبـــــــــان

وكل عاطرة فاحت نواسمها من عنبر ومسكي وريحـــــــــان

هم سبوني وكم أسبوا الذي خطر من الملوك وحيي اليوم برهـــــــان

قد كان فيما مضى قبلي وإن جهلت مولى حباب وكسرا نوشـــــروان

دلت لعزتها أسد الوغى ولقد تزهو علينا وأيم الله غـــــــــزلان

كم من كريم وكم من ماجد بطل أفنى العزام وكم من عابد عـــــان

يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن فما خلى من هواكم قلب إنســــان

وهذه قصتي يا عادلي وكفى إن الملام قد أعياك وأعيـــــــــان

ولا جعلت بنات الحي من شغلي حتى شغفت بقد البيض والــــــزان

وقد ألفت من الهيجاء عاطلة تشب يوم الوغى والحرب نيـــــــران

وكم سقيت كؤوس الموت من بطل وقد حميت بحد السيف أوطـــــان

وكم قهرت عدوا ظالما غشما يوم اللقاء باظعان واظعان[3]

وقد عمرت ديارا قل عامرها وقد جعلت ديار الأنس عمـــــــران

وقد أقمت رسوم قل ناصرها يوم الهياج وكل الناس عـــــــادان

حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه والحمد لله في سري وإعــــــلان

---

1 – يانس: مطمئن.

2 – القضبُ مَن الشجر: كل شجر سبطت أغصانه وطالت، الأزهري، تهذيب اللغة، م س، ج 3، ص 148.

3 – ظعن، أي سار، ظعنا وظعنا بالتحريك. وقرئ بهما قوله تعالى: "يوم ظعنكم". وأظعنه: سيره. والظعينة: الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن، والجمع ظعن وظعن، وظعائن وأظعان. وهذا بعير تظعنه المرأة أي تركبه. والظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، فإذا لم تكن فيه فليست بظعينة. انظر الجوهري، الصحاح في اللغة، م س، مادة ظعن.

نعم ولا بد من أخذ أرضهم بالمرهبات وحرد[1] تحت عقبـــــان

حتى أروي سيوفي من دمائهم ريء الحجيج إذا حلت بغيـــلان

وتسقط الهام والألباب طائشة والخيل عارية من غير فرســـان

والبيض تضرم نار الحرب إن خمدت والشمر[2] مثل شهاب إثر الشيطـــان

والخيل عابسة كلت فوارسها والأرض كاسية من نور مرجـــان

فما ترى غير أبطال مجدلة[3] ما بين سهل وأهضاب وكثبـــان

والأرض هامدة[4] والأسد داهشة[5] والسيف ضاحكة الـــزان

هناك تحمى حماها عندما اشتعلت والأسد ما بين سكران ونشـــوان

ونضرم الحرب صدمات يكل لها أسد الحروب ويعمور بن زيـــان

ونأخذ الثار مما قد نأى ودنى ويرجع الشرق بعد الغرب ديـــوان

فانظـــر يا بني هل ألهاني شيء عن طلب المجد أو ملنا بكليتنا إلى النساء وحدنا عن القصد فاعتبر ما رسمناه وخذ بما قررنـــاه.

---

1 – حرد: غضب، وهو حرد عليه وحارد. وأسد حارد، وأسود حوارد.

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، م س، مادة ح ر د.

2 – الشمر: الاختيال في المشي. يقال: مر فلان يشمر شمرا. وشمر إزاره تشميرا: رفعه. يقال: شمر عن ساقه. وشمر في أمره، أي خف. ورجل شمري، كأنه منسوب إليه. الجوهري، الصحاح في اللغة، موقع الوراق http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 367.

3 – قال ابن سيده في المحكم: (الأَجْدل: الصَّقر، صفة غالبة، وأصله: من الجَدْل الذي هو الشدة). ومنه فإن كلمة المجدلة تعني الأشداء.

انظر المحكم والمحيط الأعظم، منشور في موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 3، 268.

4 – الهمود: الموت. ورماد هامد: قد تلبد وتغير، وهميد. وثمرة هامدة: عفنت. وأرض هامدة: مقشعرة، وهو من الشجر: اليابس. والإهماد: السرعة في السير. والإقامة بالمكان. وهمدان: قبيلة من اليمن، وهمد الثوب يهمد: بلي، وثياب همد، الواحد هامد.

انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 1، 301.

5 – دهش، كفرح، فهو دهش تحير، أو ذهب عقله من ذهل أو وله.

الفيروز آبادي، القاموس المحيط، منشور فعلى موقع الوراق http://www.alwarraq.com، ج 2، 137.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال

اعلم يابني أن المال حرز الملك وبه ينتظم انتظام السلك، فأحرز حرز مالك بقليل الثناء وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء.

واعلم يابني أن الثناء خير ما يقتنى، فابذل مالك في الثناء فإنه خير من الغنا ولا تكثر فيه السرف فإنه يؤدي إلى التلف.

إن الجود ساتر العيوب غارس المحبة في القلوب وقد يكون سببا لكثر المال، ويحرز الكثير من جميل الخصال، فليكن جودك معتدلا في التقدير غير منسوب إلى التقصير ولا محسوب في السرف والتبذير، ثمر مالك تبلغ ءامالك، فإن من قل ماله تلاشت حاله وقلت أعوانه وضعفت أنصاره، المال زين والإقلال شين، والمال عون على العزى وحصن يتقى به من الردى، تدفع ءالام الإعراض ويتوصل إلى المقاصد والأغراض، وبه يستفتح الصياصي[1] وتستملك النواصي، ويقاد العاصي ويستدنى القاصي، وبالمال تستعبد الرجال وتبلغ الآمال وتذل به الرقاب وتستفتح به الأبواب وتسهل الأمور الصعاب وتنال الرغايب وتنجوا به من المصاب، خير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع يقتر المرء على نفسه توفير أمنه على غيره فاجمعه من مواضعه ووفره ونم حيالته وثمره ، وقوم ذمته بالعدل وتوسط في العطار والبدل.

وقد قال المتنبي:

فلا تجعلن في المجد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذي المجد كفه ... إذا حارب الأعداء والمال زنده

---

1 – الصياصي: جمع واحدها صيصة بالتخفيف، والصيصة الحصن ومنه قوله تعالى: "من صياصيهم "أي من حصونهم التي تحصنا بها. "وكل ما امتنع به "فهو صيصية" ج صياص" بحذف الياء على التخفيف. انظر الزَّبيدي، م س، ص 4472.

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجـــــده[1]

يا بني استعن بثقات عمالك على جميع مالك فول الرفيق بالرعية الجاري على سبيل السوية تنل بذلك فـــي الدارين الدرجة العلية ولا يحملنك حب المال على المسامحة في جور العمال فإنه إذا هلكت الرعايا عدمت الجبايا وإذا عوملت الرعية بالرفق كثر فيها النما والرزق، خذ المال من حقه وانفقه في مستحقه تكن أعـــدل الناس وأفضل من ملك وساس، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه[2]، حاسب نفســك وعمالك يحفظون مالك.

يابني وبالجملة فالمال أعظم الذخائر الفاخرة وبه تنال الدنيا والآخرة، عليك بالإيثار مما أفاء الله عليك من الأنعام[3] وخصوصا على حجاج بيت الله الحرام وزوار قبر النبي عليه السلام واجعلهم وسيلة يدعون لك فـــي ذلك المقام فإن الدعاء هناك مجاب وليس بينه وبين الله حجاب.

وقد نظمنا في الشوق إلى ذلك المقام الشريـــف والمحل الأنوه المنيف قصيدة ورسالة بعثنا بهما رجاء للثواب وتيسيرا للأسباب، وهي قولنا من وزن الخبـــب.

نام الأحباب و لم تنم عيني بمصارعة النــــــدم

والدمع تحدر كالديم[4] جرح الخدين فيا ألـــــــم

---

1 – هذه الأبيات لأبي الطيب المتنبي وليست للمثنى.

انظر الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، منشور على موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ص 99.

2 – هو نص حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولفظه:(ما كان الرفق في شيء إلا زانه و لا نزع من شيء إلا شانه). صححه الألباني.

انظر محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، ج 22، ص 91.

3 – إشارة إلى قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) سورة الحشر، الآية 9.

4 – الديم: جمع ديمة ، وهو المطر الذي يدوم دوما يوما وليلة أو أكثر.

انظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق:

وزجرت النفس فما انزجرت ونهيت القلب فلم يلم

والشيب نذير قد وافى و حلول الشيب مع الهـرم

والعمر تولى منصرما آه للعمر المنصـــرم

وكذا الأيام لها عبر وليالي الدهر كما الحلـــم

والدار تغر بساكنها ويح المغرور بها النهـــم[1]

يا نفسي خدعت بزخرفها كم ذا تعتريها وكـــم

يا رب ذنوبي قد عظمت فامنن بالعفو لمجتـــرم

فالعفو إلهي منك وأن الذنب وحقك من شيـــم

شأن المملوك الذنب وشأن المولى العفو عن الخـدم

إني بذنوبي معترف والخوف أشد من الألم

يا رب إذا لم تعصمني مالي بذنوبي من عصـــم

كم اجني الذنب وتمهلني وتقابل ذاك بالنعـــم

ولكم أعصيك وتسترني يا ذا الأفضال وذا الكـرم

ما زلت بفضلك ترحمني وتجود علي القـــدم

والعبد ببابك ملتزم وبغير حمايتك لم يحـــم

ورضى المحبوب له ارب فرضاه الفوز لمغتنـــم

يا رب سألتك تغفر لي بشفيع الخلق من الأمم

http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 129.

1 - النهم: الأكول. انظر الفيروزآبادي، م س، ج 1، ص 374.

أدعوك إلهي معتذرا في جنح الليل وفي الظلـــــم

قلبي انفطر و الدمع جرى و الركب سرى نحو العلم

قلب بنواه أسير هواه فيا شوقاه إلى الخيـــــم

سرت الإبل لما ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهـــم

حملوا خلدي افنوا جلدي تركوا جسدي رهن السقـــم

حط العشاق ركابهم بين العلمين وبالخـــدم

وصروف الدهر تعارضني عما أبغيه من القســـم

ساروا والذنب قد أقعدني فقرعت السن من النـــدم

وبكيت الدمع على زلل ومزجت الدمع بفيـــض دم

بدت الأنوار على السار من الأقمار بذي سلــــم

طرنا في ذلك أعظم مخاطره، ويسر الله لنا في الفتح أتم مياسرة، ونزلنا ساحتها ورياح النصر على راياتنا خافقة، ودلائل السعد تشهد مقدمتها صادقة، فالتقينا بها ابن السلطان فأنزلنا وساء صباح المنذرين ليخرجـــوا عن بلادنا وميراث آبائنا وأجدادنا فأبوا إلا تماد في عنادنا وبرزوا إلينا بظاهر مدينة تلمسان في عدة تـــنيف على ألفين من أنجاد الفرسان يقدمهم المهدي من السلطان أبي عنان[1]، فلما التقى الجمعان وشرعا في الضراب والطعان، رأوا منا ما لا قبل لهـــم به ولا طاقة، لمن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا لحزبه فأقحموا بعد الإقدام وتزلزلت منهم الأقدام وهزموا هنالك أي انهزام، حتى كان البطل من أبطالنا يقدم منهم عشرة من أمام طعنا بالرمح وضربا بالحسام، فنكصوا على أعقابهم وسيوفنا متحكمة من رقابهم

1 – يقصد السلطان أبا عنان المريني الذي احتل تلمسان وقتل ملكها أبا سعيد وأخاه أبا ثابت عمي أبي حمو، وكان ذلك سببا لفراره إلى تونس عام 749 هـ، ثم إلى الجريد جنوب تونس.

ولجوا إلى الفـــرار، وأيقنوا بالتباب[1] والتبار[2]، وحل بهم الخسار والبوار، ولم ينفعهم التحصن بالأسوار من شبا[3] سُمْرِ الرماح وظفا[4] بيض السفار[5]، وتركناهم إلى غد ذلك اليوم إبقاء منا على القوم، ولم تكتحل أجفانهم تلك الليلة بنوم، فلما كان من الغد افتتحناها عنوه عليهم وخلصناها من جميع جهاتها إليهم وذلك غرة ربيع الأول من عام ستين وسبع مائة[6]، فتشفعوا إلينا بالفقهاء والصلحاء في الإبقاء عليهم وخلوصهم إلى غربهم بجميع ما لديهم، فأسعفناهم بما طلبوا من العفو وسوغناهم من الأمان العذب والصفو، وذلك هو المعهود منا ومن أسلافنا الكرام وخيرناهم بين الانصراف والمقام فمن انصرف فمبلغ المراد والمرام، ومن أقام للخدمة المرضية فمرعى الذمام، ومحمول على البر والإكرام فاستقللنا بحضرتنا العلية والبلاد كلها مرينية واستولينا على ما كان بتلمسان واستقر لنا بها الملك والسلطان ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم، ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم فلم نزل.

يا بني نستعمل معهم المحاولات والمكائد وننصب لهم الاشراك بكل المراصد إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم وجازيناهم على تعديهم وذلك بين محاولة وقهر وتأييد ونصر، ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش ولا مال فبلغنا بالسياسة

---

1 – التباب: بالفتح الخسران والهلاك تقول منه تببت يا رجل تتب بالكسر تبابا. وتبت يداه وتبا له أي ألزمه الله هلاكا وخسرانا . انظر زين الدين الرازي،مختار الصحاح، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ص 38. .

2 – التبار: الهلاك والفناء، الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 136.

3 – شبا: مصدر شب أي اشتعال، .تقول شب النار والحرب أوقدها يشبها شبا وشبوبا وأشبها وشبت هي تشب شبا وشبوبا وشبة النار اشتعالها.
انظر ابن منظور، لسان العرب ، مادة شب.

4 – ظفا: شد ، قال الكسائي: ظففت قوائم البعير وغيره أظفها ظفا إذا شددتها كلها وجمعتها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة ظفف.

5 – السفار: خيط يشد طرفه على خطام البعير فيدار عليه، ويجعل بقيته زمامها، وربما كان السفار من حديد، والجمع أسفر. ن م،ج 2، ص 61.

6 – إشارة إلى محاصرته المرينيين في تلمسان قبل فرار السلطان أبي عنان المريني.

والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم وأحوالنا أحسن من أحوالهم وأعدادنا أكثر من أعدادهم وأجنادنا أوفر من أجنادهم وبلادنا أمهر من بلادهم، وقد شرحنا ذلك في قصيدة نظمناها ومقتضى الحـــال ضمناها، وهي

قولنـــــــا:

جرت دموعي بين الرسوم الطواسم[1] لما شحطتها[2] من هبوب الرواكم

وقفت بها مستفهما لخطابها وأي خطاب للصفات الصـــلادم[3]

وسرت على حذر مشحب[4] كلمعة برق أو كلمحة صـــارم

وجلت بطرف الطرف في عرصاتها[5] كجولة واه أو كوقفة هائـــم

وصفقت مابين الطلول[6] خوامسي وسالت سواقي الدمع مثل الأراقم[7]

وقلت لصحبي لا تمل من السرى ولا تزدريك اليوم لومة لائـــم

1 – الطواسم: ما طمسه الغبار واخفى معالمه ورسومه. ابن كثير ابو الفداء اسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، حققه ودقق اصوله وعلق حواشيه علي شيري، إحياء التراث العربي، ط 1، 1988 م،ج 11، ص 280، تعليق المحقق، هامش 2.

2 – الشحط: البعد، شحط يشحط شحطا. ومنزل شاحط وشحيط، أي بعيد.

انظر ابن دريد،جمهرة اللغة، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 275.

3 – صـــلادم: أشداء، فرس صلدم بالكسر: صلب شديد، والأنثى صلدمة. ورأس صلدم وصلادم بالضم: صلب. والجمع صلادم بالفتح. الجوهري،الصحاح في اللغة، موقع الوراق:

http://www.alwarraq.com ، ص 393.

4 – مشحب: من شحب بمعنى تغير، تقول شحب لونه، كجمع ونصر وكرم وعني، شحوبا وشحوبة تغير من من هزال أو جوع أو سفر. انظرالفيروزآبادي، م س،ج 1،ص 79.

5 – العرصات: جمع عرص، و(العرص خشبة توضع على البيت عرضا إذا أرادوا تسقيفه وتلقى عليه أطراف الخشب الصغار). ابن منظور، م س، مادة عرص.

6 – الطلول: جمع مفرده طل، والطلل الشاخص من الآثار والجمع أطلال مثل سبب وأسباب وربما قيل طلول طلول مثل أسد وأسود. الفيومي ،المصباح المنير ، موقع الإسلام:

http://www.al-islam.com، ج 5، 427.

7 – الأراقم: ضرب من الحيات. ابن منظور، م س، مادة رقم.

وسل سائرات الحي أين تحملوا فقد عيل صبري بين تلك المعالـــم

ديار عهدناها الشمل جامع مع الغانجات[1] الآنسات النواعـــم

وكم ليلة بات السرور مساعدي بشعري وسلمى والمنى أم سالـــم

فعادت رسوم الدار بعد أنيسها هشيما ولا تخفى بقايا المراســم

وكم نسجتها من جنوب وشمال وكم سجعتها من لغات الحمائـــم

كأني بهم والله يوم تحملوا وحادي النوى يحدو بذات المقاســم

قطعنا الفيافي بالقلاص[2] وإنما تجاب الفلى[3] بالخف أو بالمناســم[4]

وقد خلتها بين الرياح زوابعا تسابق في البيدا ظليم النعائـــم

مكحلة الأحداق فيها هشاشة مهملجة[5] الأطراف سود المباســم

ومعها أسود الحرب تطوي بها السرى يرون المنايا بعض المغانم

وخضت الفيافي فدفدا[6] بعد فدفد لقصد العلى والصبـــر إذ ذاك لازم

وكم ليلة بتنا على الجدب[1] والطوى[2] نراقب نجم الصبح في ليل عاتـــم[3]

عاتـــم[3]

---

1 – "الغنج بالضم وبضمتين وكغراب" الأخيرة عن كراع: الشكل" بالكسر وقيل: ملاحة العينين. الزَّبيدي، م س، مادة غنج.

2 – القلاص: جمع مفرده قلوص وهي الناقة الصغيرة

3 – الفلى: جمع مفرده فلاة وهي القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أي فطمت وعزلت وقيل هي التي لا ماء فيها. ابن منظور، ن س، مادة فلا.

4 – المناسم: المنسم كمجلس، طرف خف البعير، وهما كالظفرين في مقدمه بهما يستبان أثر البعير الضال قال قال الاصمعي وقالوا منسم النعامة كما قالوه للبعير كما في الصحاح وخلف الفيل منسم والجمع مناسم، الزَّبيدي، فصل النون.

5 – مهملج مذلل منقاد. الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 329.

6 – الفدفدة هي الأرض الغليظة المرتفعة ذات الحصى فلا تزال الشمس تبرق فيها، فلذلك خصوا بالتشبيه بها الرحال في الحرب إذا برقت بينهم السيوف. ابن دريد، جمهرة اللغة، موقع الوراق http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 70.

على متن صهال[4] أغر محجل[5] مديد الخطى لم يخش صعب الصـــلادم[6]

تسربل[7] كردوسين[8] من ءال عامر ومن ءال إدريس الشريف ابن قاســم

رجال إذا هاج الوطيس[9] تراهم أسود الوغى[10] من كل ليث ضبـــارم[11]

وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة وطوعت فيها كل باغ وناعـــــم

وجئت لأرض الزاب فاضت مدامعي تذكرت أطلال الرسوم الطواســم

وشبكت عشري فوق رأسي فلم أرى بها مخبرا غير الربا[12] والمعالـــم

وجاوزتها مابين هوج[1] هجائن[2] رقاق الهوادي[3] عاليات القوائـــم

القوائـــم

---

1 – الجدب المحل نقيض الخصب وفي حديث الاستسقاء هلكت المواشي وأجدبت البلاد أي قحطت. ابن منظور، م س، مادة جدب.

2 – الطوى: الجوع. الأزهري، تهذيب اللغة،ج 4، 424.

3 – عاتم: مظلم.

4 – الصهيل: صوت الخيل. صهل يصهل صهيلا، وفرس صهال: كثير الصهيل. الخليل بن أحمد، م س، ج 1، 259.

5 – يوم أغر محجل: مشهور. الدكتور سعدي أبوحبيب، القاموس الفقهي، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1988 م، ص 78.

6 – الصلدم: القوي الشديد الحوافر، والأنثى صلدمة، قال: يخطفها بمخلب صلادم وكذلك الصلادم، وجمعه صلادم. الخليل بن أحمد، م س، ج 2،ص 49.

7 – السربال: القميص والدرع وقيل كل ما لبس فهو سربال وقد تسربل به وسربله إياه وسربلته فتسربل أي ألبسته السربال وفي حديث عثمان رضي الله عنه لا أخلع سربالا سربلنيه الله تعالى. ابن منظور، م س، مادة سربل.

8 – الكردوس الخيل العظيمة، يقال كردسوهم كراديس، والكردوسين مثنى. الصاحب بن عباد،م س، ج 2، ص 72.

9 – هاج الوطيس: اشتدت الحرب. الدكتور سعدي أبوحبيب، م س، ص 103.

10 – الوغى: اختلاف الأصوات في الحرب، وكثر ذلك حتى سميت الحرب: الوغى. انظر ابن دريد، جمهرة اللغة،ج 1، ص 93.

11 – ضبارم: شديد. ابن دريد، م س، ج 2، ص 185.

12 – الربا هكذا مكتوبة في الأصل والصواب الربى، وهي أرض مرتفعة، وجمعها الربى.
انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 176.

وجزت بأرض الزيغ زاغت بأهلها ببلقعة[4] قفراء قفاها عزائـــــم

سألت ربوع الدار يوما فلم أجد بها معلما يأتي إلي بعالـــــم

شردت عرى للنجع من كل جانب وسيرتها مثل الرياح الرواكـــم

تخيلتها مثل القطا[5] في مسيرها وفوق ذراها[6] كل سهم وحـــازم

وحفت بنا الأبطال من كل جانب تذكرها عهد الهوى بالصمائـــم

وجيت لواركلا وجزت مصابها ولا مخبرا غير الصلادم[7] الأعاجم

ومازلت أطوي سيرها وأكامها وأحطمها بين الربا والهضائـــم[8]

قطعت الحمادى والسراب غديرها على هيكل عبد الذراعين هاضـــم

مكر ليوم الحرب لا يشتكي ألونا[9] مفر إذا طالت عظام الهزائـــم

إلى أن بدا لي واد زرقون أزرقا وبانت عليه شاحبات الغمائـــم

طرقت برأسي واستفزيت بالكرى[10] وكم من ليالي بتها غير نائـــم

---

1 – الهوج: مصدر الأهوج، وهو الأحمق. ويقال للشجاع الذي يرمي بنفسه في الحرب: أهوج. والطوال إذا أفرط في طوله: أهوج الطول. والهوجاء: الناقة السريعة. ن م، ص 275.

2 – هجائن الإبل البيض. ابن دريد، م س، ج 1، ص 250.

3 الهوادي: الهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه، والمقصود في البيت رقاب النوق. انظر الأزهري، م س، ج 2، ص 359.

4 – البلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها. انظر الجوهري، م س، ج 1، ص 53.

5 – القطا: طير، والواحدة قطاة. انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 407.

6 – ذراها بفتح الذال: ناحيتها.

7 الصلدم: القوي الشديد الحوافر، والأنثى صلدمة، قال: يخطفها بمخلب صلادم ، وجمعه صلادم. انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 49.

8 – الهضائم جمع مفرده الهضيمة وهي الطعام يعمل في وفاة الرجل. انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 290.

9 – ألون، بالضم، بمعنى ذوو. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 3، ص 52.

10 – الكرى: النعاس. الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج 5، ص403.

وجددت في طلب السرايا مسربلا بسير حثيث أو سرى متـــــــداوم

وكم من فيافي قد قطعت آكامها[1] وكم نسمة جادت عليها نسائــــــم

وكم ربوة تعلو من القلب صاعدا جراها وكم دمع على الخد ساجـــــم

وبتنا نسوق النجع[2] في غياهب[3] الدجى[4] وحرصاننا فيها كشهب عواتـــم

إلى ملل ملنا وما ملت السرى سرايا ركاب كالقسي[5] السواهم[6]

ولما بدا لي غيهب القوم ظاهرا وحبهم بين الطلال الغياهـــــــم[7]

جبدنا مجابيدا وجدت جيادنا وجالت كما العقبان بين السقاهـــــــم

وضمر عناجيج[8] على صهواتنا[9] كرام تجود بالنفوس الكرائـــــــم

تطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعداء كر الهزائم

---

1 الآك- ام والإكام هو ما علا من الأرض على ما حوله. ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 2، 109.

2 نجع الطعام، كمنع، نجوعا هنأ آكله، والوعظ والخطاب فيه دخل.

انظر الفيروزآبادي، م س، مادة نجع.

3 – الغياهب جمع غيهب وهو الظلمة تقول فرس غيهب إذا اشتد سواده، قال أبو عبيد: أشد الخيل دهمة الأدهم الغيهبي وهو أشد الخيل سوادا والأنثى غيهبة والجمع غياهب. ابن منظور، م س، مادة غهب.

4 – الدجى: الظلمة. يقال: دجا الليل يدجو دجوا. وليلة داجية. وكذا أدجى الليل وتدجى. ودياجي الليل: حنادسه، كأنه جمع ديجاة. وقال الأصمعي: دجا الليل إنما هو ألبس كل شيء، وليس هو من الظلمة. قال: ومنه قولهم: دجا الإسلام، أي قوي وألبس كل شيء. انظر الجوهري، م س، مادة دحص.

5 – القسي: نوع من الأشجار. انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص408.

6 – السواهم: جمع مفرده ساهم ، قال ابن دريد في بيان معناها: (سهم وجه الرجل فهو ساهم، إذا ضمر وتغير من جوع أو مرض؛ ومنه قولهم: خيل سواهم، إذا اعترق التعب لحم وجوهه) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 1، ص 482.

7 – الغياهم جمع غيهم وهو الظلمة.

انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 275.

8 – العناجيج: واحدها عنجوج، ويقال لجياد الخيل: عناجيج.

انظر الزبيدي، م س، مادة عوج.

9 – صهو: استوى على صهوة الفرس وهي موضع السرج. وركب صهوة الجمل وهي مؤخر السنام. ونشأوا ونشأوا على صهوات الخيل.

انظر الزمخشري، م س، ج 1، ص 268.

شددنا عليهم شدة مضرية فولوا شرادا مثل جفل النعائم

فدلت بسويد ثم حلت بجيرها وشيخ حماها في لجوج[1] المصادم

وكم خلفوا مابين فكر وفكرة وكم عادة ملتفة في العمائم

وكم قبة طاحت وطاح أميرها على الأرض مابين الصفا والرتائم[2]

وجالت خيول للحجاز كأنها عقاب تمطى[3] بين فرق الحمائم

فحاز الثنا فيها سفير ابن عامر كما حاز من قبل ذياب ابن غانم

وطاحت هياشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للنسور القشاعم[4]

فكانوا إلى الطير الغشيم فرائسا وكانت على الأعداء شؤم النعائم

وهبت رياح النصر من كل جانب وكانت إلينا مبهجات الغنائم

ولما قضينا الأمر في الحرب منهم رحلنا بعون الله نحو المعالم

وخضرا كبود قد تبدت هضابها وهبت رياح عاطرات النواسم

درحنا إلى درج ولاحت بشائر بهلك الأعادي التاعسين الأشائم

---

1 - اللحاج، والملاحة الخصومة، والملحوج المخاصم.
انظر الفيروزآبادي، م س، ج 1، ص 149.

2 - الرتم: خيط يعقد على الإصبع للعلامة وهي الرتيمة، والجمع الرتائم، والرتمة نبات من دق الشجر شبه بالرتم لدقته.
انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 374.

3 - تمطى من التمطط وهو التبختر ومد اليدين. وأصل تمطى تمطط، تفعل من المط وهو المد.
الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق:
http://www.alwarraq.com

4 - القشاعم: المسنة من النسور، والمفرد قشعم.
انظر ابن دريد، الاشتقاق، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق، وعنوانه:
http://www.alwarraq.com

ألا أيها الناعي البشير الذي نعى أمير مرين حزت أسنى المقاســــــم

لقد قرب الله البعيد بهلكه فبشراك بالخيرات يا خير قـــــادم

ولاحت لنا فرتون فافترت المنى إلينا ابتساما بالثغور البواســــم

وصارت أسود القلب تأتي مطيعة وعادت لنا الأيام مثل المواســـم

قطعنا الثنايا والخميس مسربل صلاصله[2] مثل الرياح القواصـــم

وفي يسر ءامالنا فسرت لنا وجردت للأوطان فيها عزائـــم

وبتناوبات النوم غير مساعدي وإني على جد الثرى جد عـــازم

وصرنا ضحى والنصر يهفو أمامنا برايات سعد فوقنا كالغمائـــم

قدمنا وكان النصر يرجو قدومنا وكان على الأعداء شر المقـــادم

وصفوا صفوفا ثم صفت صفوفنا وسالت دموع القوم مثل العنادم

وجالت ليوث الحرب بين صفوفها وحط بها الخطى بين الحلاقـــم[3]

ولاح شعاع الهند بين صفوفنا كبدر تبدي بين درج الأراقم[4]

---

1 - الأشائم من الشؤم، يقال: رجل مشؤوم، وقد شئم..وشأم فلان أصحابه، إذا أصابهم شؤم من قبله، ويقال: طائر أشأم، وطير أشأم،والجمع: الأشائم.

انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 6، ص295.

2 - صلاصل: أصوات، جاء في الإمام مسند أحمد عن عبد اله بن عمر سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي؟ فقال: (أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض).

انظر الإمام أحمد بن حنبل ، مسند أحمد، نسخة الكترونية منشورة على الانترنت موقع الإسلام:

http://www.al-islam.com، ج 14، ص 312.

قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته.

انظر السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، نسخة الكترونية منشورة موقع الوراق:

http://www.alwarraq.com

3 - الحلاقـــم: جمع حلقوم وهو الحنجرة.

4 - الأراقم: هي نوع من الحيات.

سمونا إلى اصطفطيك واشتد بيننا حروب تشيب الرأس قبل الفطائم

كررنا عليهم كرة بعد كرة وقد سعرت للحرب نيران جاحـــــم[1]

بضرب يزيل الهام[2] عن مستقره وطعن مضى بين الكلا والحيـــازم[3]

فهذا أسير صفدته يد الوغى وهذا قتيل في عجاج المصــــــادم

فطوبي لعبد الواد عند ازدحامهم لقد جدلوا في الحرب كل مزاحـــم

وجالت خيول العامرية فوقها أسود الثرى في بحرها المتلاطـــــم

وعادت شعاع الشمس في الجو اصفر وحال ذباب السيف فوق الغلاصم[4]

جعلنا كرديسا على كل ربوة وطالت رقاب الأسد تحت العمائـــــم

شددنا عليهم شدة بعد شدة فولوا فرارا والتجوا للمعاصـــــــــم

وداروا بأسوار المدينة كلها كدور سوار فوق حسن المعاصـــــم

وقد برزت من حذرها كل غادة درجن على الأسطاح درج الحمائـــم

وقد عاد ذاك الجمع منهم مكثرا بجمع لنا بين الكتائب سالـــــــــم

فرامت مرين الصلح بعد فرارها وقد ظلموا عمدا ولست بظالـــــم

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، م س، ج 1، ص 180.

1 – نار جاحمة: شديدة الحر.

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، ص 54.

2 – الهام: جمع هامة وهي الرأس.

انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 1،ص 284.

3 – قال القرطبي: الحيازم جمع حيزوم وهو وسط الصدر.

تفسير القرطبي، موقع: http://www.yasoob.com، ج 18، ص 216.

4 – الغلصمة: رأس الحلقوم بشواربه وحرقدته وهو الموضع الناتئ في الحلق، والجمع الغلاصم وقيل الغلصمة اللحم الذي بين الرأس والعنق، وقيل متصل الحلقوم بالحلق إذا ازدرد الآكل لقمته فزلت عن الحلقوم، وقيل هي العنجرة التي على ملتقى اللهاة والمريء، وغلصمه أي قطع غلصمته ويقال غلصمت فلانا إذا أخذت بحلقه. ابن منظور، م س، مادة غلصم.

فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها وتتساقط الأبدان تحت الجماجـــــم

وتخلى من الأعداء دارا عهدتها الغانجات الناعمات الكــــــــرائم

وجئت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكروه في كتاب الملاحـــــم

وخلصت من غصابها دار ملكنا وطهرتها من كل باغ وظالـــــم

لقد أسلموها عنوة دون عدة وقد طلقوها بالقنا والصـــــوارم

ولم يغنهم ما شيدوا من معاقل ولم يجدهم ما حصنوا من معاصـــم

ولا كثرة الجيش اللهام[1] مذرعا ولا ما أعدوا من قس وسواهـــــم

إذا لم يكن للمرء سعد مساعد فما تغني تعداد الجيوش الخضـــــارم[2]

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظـــــم

شددنا له أزرا وشِدنا بناءه بأوثق أركان وأقوى دعائــــــم

فعادت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكـــــارم

وجاءت لنا من كل أوب[3] وجهة تبايعنا طوعا أجود العمائـــــم

أنا الملك الراسي ولست برأسي ولكني مفني الطغاة الأعاظم[4]

فقمنا بأمر الله في نصر دينه وفي كف ما قــد أحدثوا من مظالم

---

1 – اللهام: الجيش الكثير كأنه يلتهم كل شيء.

ن م، مادة لهم.

2 – الخضارم: الكثيرة ؛ قال ابن منظور: الخضرم (الواسع) الكثير من كل شيء.

لسان العرب، مادة خضرم.

3 – أوب: ناحية؛ قال ابن دريد: جاء القوم من كل أوب، أي من كل ناحية.

جمهرة اللغة، ج 1، ص 84.

4 – الورقة رقم 8 سقطت من المخطوط، وهي تبدأ من قوله: (فقمنا بأمر الله في نصر دينه) وتنتهي بقوله: (يا بني أعمل بوصيتي تنجح)، وقد نقلنا محتوى هذه الورقة من النسخة الحجرية.

فلله منا الحمد والشكر دائما وصلى على المختار من ءال هاشم.

فانظر يا بني ما قاسيناه في هذه الأمور الشديدة، وما ضربناه لأعدائنا من شدة الحرب ورقة المكيدة إلى أن تأتينا أبلغ السبل، وتوصلنا بعناية الله إلى أوفق مأمول، فكذلك ينبغي لك أن تقتدي بكل أفعالنا، ويؤول أمرك إلى ما ءال إليه مآلنا، تأخذ باليقضة والحزم والرفق في بعض الأمور وبعضها بالعزم، ولا تنيب عن يومك في أمره غدا إذا وجدت الفرصة من الأعداء.

يا بني واجعل عزمك في الأدب في الأفعال، والصدق في جملة الأقوال، وإن وعدت عدة فالواجب أنك توفها، ولا تكثر الضحك إلا تبسما فإن كثرة الضحك يميت النفس[1].

يا بني وليكن مجلسك مجلس سكينة ووقار، ولا يجلس معك إلا أناس أخيار.

يا بني ولتكن في هيئة جلوسك متربعا ولتكن حسن السمت، كثير الصمت، ولا تكثر التحرك ولا التقلب يمينا ولا شمالا، وليكن نظرك إلى الناس نظرا خفيا، تلاحظهم بطرفك اختلاسا بحيث لا يشعرون بنظرك إليهم، فتعلم بذلك النظر ما يبدو على وجوههم من المسرة وغيرها، وأما ركوبك يا بني فينبغي لك ألا تكثر من الركوب إلا في أوقات معلومة، لأنك إذا أكثرت من الركوب ملّك الناس، وإذا أقللت من الركوب ذمك الناس، لأنك إذا احتجبت عن الناس ظنوا أنك منشغل بالدنيا ولذاتها، وإن أكثرت من الركوب كثرت مباشرتك للعامة، وإذا كثرت مباشرتهم لك ملّوك وزادوا في النظر إليك، وليكن ركوبك بسكون، وسيرك بتوءدة ولا تلتفت في ركوبك يمينا ولا شمالا لأن الالتفات يمينا وشمالا دال على ضعف العقل، وكذلك التقلب في سرجك، والهمز الكثير في سيرك، وأقصر من الحديث في

---

1 - إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) رواه ابن ماجة في سننه، باب الحزن والبكاء.

ركوبك، لا مع وزيرك ولا مع خاصتك إلا فيما تدعو الضرورة إليه في جميع ما ذكرناه، ولا تكثر اللعب في الميدان إلا في أوقات لا يعاب عليك فيها اللعب.

يا بني وإذا فعلت فعلا حسنا فلا تكن شاكرا نفسك لغيرك، ولا تظهر الإعجاب بنفسك، وعليك بالزينة في جلوسك وركوبك، والتطيب والتجمل بالحسن من الثياب، فإن ذلك مما يزيدك مهابة وجمالا في أعين الناس.

يا بني واستعن على اعتدال مزاجك وحفظ صحتك بالتوسط في طعامك وشرابك، ولا تكن منهمكا في الأكل ولا تاركا له بالكلية، ولكن بقدر معلوم في أوقات معلومة فإن ذلك أحسن لحالك، وأصح لجسمك، ولتأكل من الطعام ما تطيب به نفسك، ويعدل به مزاجك، ولا تدخل الطعام على الطعام.

يا بني لا تكثر الدخول إلى الحمام فإن الإدمان في الدخول عليه يضعف القوى، ويهرم الجسم، ويسرع بالشيب، ويضعف البصر، ولتأخذ من جميع الأشياء بقدر معلوم.

يا بني واختر لنفسك طبيبا ماهرا عاقلا أديبا فاضلا ثقة محبا ناصحا. ومع هذه الصفات لا تمكنه من نفسك حتى لا يكون أعلم منك بنفسك، فإن اتخاذ الطبيب فيه قوة للقلب وراحة للنفس، وهو وإن كان له في الحكمة أوضح دليل وكان كما وصفناه فهو في الحقيقة عليل وإنما الطبيب آلة السماء، فنعم الطبيب ونعم الوكيل، وقد قيل لأبي بكر في مرضه أندعو لك طبيبا؟ فقال: الطبيب الذي أمرضني.

ومع هذا فقد خلق الله الداء وخلق الدواء وجعل الراحة على يد من يشاء، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء)[1].

---

1 – الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، موقع: http://www.yasoob.com، ج 5، ص 422.

يا بني ولا تأمن على طعامك وشرابك الأحداث من النساء لتعرضهن شراهية الصبا إلى أن يخلطن في طعامك وشرابك ما يرين أنه ينفعهن ولا يضرك مما يستملن به قلبك فيؤول أمرهن إلى أن يصنعن لك ما يضرك في طعامك.

يا بني ولا تغفل عن تفقد قصرك في ليلك ولا نهارك، ولا تأمن عليه أحدا غيرك، ولا تجعل لقصرك بابين واقطع الداخل والخارج، ولا يدعوك حب النساء إلى أن تكثر الولائم والأعراس والنزه، وشبه ذلك فإن حب الأعراس والولائم والنزهات يدعو إلى حب الشهوات، وحب الشهوات يدعو إلى فساد العقل والدين، وإذا فسد العقل والدين فسد الملك واختل نظامه، لأنه بفساد العقل تفسد عليك أمور دنياك، وسياسة ملكك، وبفساد دينك تفسد عليك ءاخرتك.

يا بني أياك والغفلة في أحوالك، ولا تكثر النوم في ليلك ولا في نهارك، واشتغل عن نومك بالفكرة، فإن في الفكرة العبرة وفي الغفلة الحسرة، وليكن قصرك يا بني محفوفا بالفتيان والحجاب، ولتكن فتيانك على باب قصرك من خارج، واسلك في تربيتهم أحسن المناهج؛ فلا يطلعون على أسرار قصرك، ولا ينكشفون على مخبآت أمرك، وليكن لك أعوان للأنتقام ممن لزمه الأدب من خدمك وأهل قصرك، ولا يدخلون إلا أمامك، ولا ينتقمون من أحد إلا قدامك، وهذه خاصيتهم لأن لهم مهابة في الأدب بالنسبة إلى غيرهم، ولا تطلع أحدا على قصرك ولو أنه أقرب أولادك إليك.

واعلم يا بني أن أحسن الأشياء وأجلها وأفضلها وأكملها العفاف والصيانة والحزم والديانة وحسن الظن بالله والتسليم لأمر الله.

يا بني أعمل بوصيتي تنجح وجانب معصيتي تفلح، فإنك إن عملت بوصيتي رجوت لسلطانك الدوام ولخلافتك سعادة الأيام والله خليفتي عليك فيما دونته إليك.

الباب الثانـــــي:

في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قوام سلطانـــــــه،

وهي أربعة قواعـــــــد:

- قاعدة العقــل - قاعدة السياســة - قاعدة العــدل - وقاعدة جمع المال والجيش،

على الترتيب.

الفصل الأول[1]: قاعدة العقل

اعلم يابني أنه لما خلق الله العقل فقال أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال الله عز وجـــــل: وعزتي وجلالي لأجعلنك في أحب الخلق إلي[2].

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عمير ازدد عقلا تزدد من ربك حسنا)[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: (أفضل الناس أعقلهم)[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: (سالت عائشة رضي الله عنها عن الرجل يكثر قيامه ويقل رقاده)[5].

وعن الرجل يكثر رقاده و يقل قيامه أيهما أفضل؟ قالت عائشة رضي الله عنها: سالت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن حالهما فقال: (أحسنهما أحسن

---

1 - عبا رة "الفصل الأول" من وضعنا

2 - إشارة إلى ما ورد في زوائد عبد الله بن الإمام أحمد بانه ورد حديث لفظه: (إن الله لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك فبك آخذ وبك أعطي). قال في المقاصد نقلا عن ابن تيمية وغيره أنه كذب موضوع باتفاق.

انظر إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، موقع: http://www.yasoob.com، ج 1، ص 236.

3 - أخرجه ابن حجر العسقلاني، ولفظه: (عن ابن جابان، عن لقمان بن عامر ، عن أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: «يا عويمر، ازدد عقلا، تزدد من ربك قربا»)، انظر المطالب العالية، باب العقل وفضله، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع: http://www.alsunnah.com.

4 - أخرجه الهيثمي في بغية الباحث المسمى بغية الحارث ، ولفظه:(حدثنا داود بن المحبر ثنا ميسرة عن محمد بن يزيد عن سعيد بن المسيب أن عمر وأبا هريرة وأبي بن كعب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس ؟ قال: العاقل، قالوا فمن أعبد الناس؟ قال: العاقل قالوا فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل، فقالوا يا رسول الله أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادة كفه وعظمت مترلته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وإن كل ذلك لما متع الحيوة الدنيا إلى آخر الآية وان العاقل المتقي وان كان في الدنيا خسيسا قصيا دنيا).

انظر الحافظ الهيثمى نور الدين على بن أبي بكر المتوفى سنة 807 هـــ، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث تحقيق وتعليق مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، د ت، ص 260.

5 - لم أجد هذا النص في أي مصدر من مصادر الحديث.

عقلا، قالت: قلت يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما، قال: إنما ينظر لعقولهما فأيهما أعقل كان أفضل في الدنيا و الآخرة)[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تعجبوا من إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله)[2].

وعن ابن وهب بن منبه قال: (وجدت في بعض ما انزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل وأنه يكابد مائة جاهل فيسخر بهم يركب رقابهم فينقادون إليه كيف شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى لا ينال منه شيء من حاجته)[3].

والعقل غريزة يضعها الله حيث شاء وهو نور يقذفه الله تعلى في القلوب الفاضلة وهو ينقسم قسمين: غريزي ومتسبب؛ فالغريزي ما يقع به التفريق الصور والحقائق والتفريق بين أخلاق والخلائق، والمتسبب هو نتيجة وهو إصابة الفكرة وثقافة المعرفة وليس له حد ينتهي إليه لأنه لا يتناهى إن استعمل وينقص إن أهمل، وزيادته تكون بأحد وجهين:

أحدهما: أن يقارن صاحبه من مبدأ النشاءة[4] ذكاء أو حسن فطنة كما قال الأصمعي لأحد أولاد العرب أيسرك أن تكون لك مائة ألف درهم وتكون أحمق؟

---

1 – لم يرد الحديث باللفظ الذي ذكره المولف وإنما بلفظ آخر وهو: (عن أبي قتادة قال: قلت: يا رسول الله أرأيت قول الله («أيكم أحسن عملا») ما عنى به ؟ قال: «أيكم أحسن عقلا» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا ، وإن كان أقلكم تطوعا»). مسند الحارث، منشور على شيكة الأنترنت، موقع: http://www.alsunnah.com، باب: ما جاء في العقل.

2 – رواه البيهقي في شعب الإيمان ، باب لا يعجبنكم إسلام امرئ حتى تعلموا عقدة.

3 – انظر أبو نُعيم الأصبهاني ،حلية الأولياء ،، منشور على شيكة الأنترنت، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، باب: وهب بن منبه.

4 – النشاء ة من نشأ، قال ابن منظور :أنشاه الله خلقه ونشأ ينشأ نشأ ونشوءا ونشاء ونشأة ونشاءة حيي، وأنشأ الله الخلق أي ابتدأ خلقهم، وفي التتريل العزيز: وأن عليه النشأة الأخرى أي البعثة. انظر لسان العرب، مادة نشأ.

قال لا والله، قلت و لم؟ قال أخاف أن يجني علي حمقي جناية فيذهب مالي ويبقى حمقي؛ فاستخرج هذا الصبي بذكائه ما يدق على من هو أكبر منه سنا. الوجه الثاني: ما يحصل لذوي التجربة مرآة العقل و الغرة ثمرة الجهل ولذلك حمدت بعض آراء الشيوخ حتى قالوا الشيوخ أشجار الوقار وينابيع الأخبار ولا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم.

واعلم يا بني أن بالعقل تتميز أصناف العالم وتقع التفرقة بين الأناسي والبهائم، وبالعقل تفصل بين الحق و الباطل، والمفضول والفاضل، والعالم والجاهل، والجائز والمستحيل، والصحيح والعليل.

وبالعقل تكسب الفضائل و تجتنب الرذائل وبالعقل يعمل المرء ويجعل خاتم الملك في يده.

وبالجملة بالعقل تقتني المآثر الفاخرة وتجمع بين الدنيا والآخرة فإذا تقرر هذا فالملك بالنسبة للعقل على أربعة أقسام: ملك له عقل يصلح به الدنيا وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه.

القسم الأول: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه وأخراه

يا بني و هذا هو العقل التام الذي تميز به الخاص من العام والسياسة الكاملة التي تعلو بالمنفعة الشاملة.

يا بني وعلامة المتصف به أن يكون فيما بينه وبين الله عز وجل حسن السريرة، وأن يسير في الرعية بأحسن سيرة ، وأن يكون حاكما على هواه، يؤثر عقله على ما سواه، وأن يحب لرعيته ما يحب لنفسه، وما يستجلب به الرعايا من لطف أنسه، كما قال سالم ابن عبد الله لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين اجعل الناس ثلاثة: كبيرهم أبا وأوسطهم أخا و صغيرهم ولدا، فبر أباك، وأكرم أخاك، وارحم ولدك،

فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها والأوصاف التي بيناها اقتضى ملكه بالدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجى له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام، فإن مات بقي ذكره دائما، والثناء عليه قائما، وهذا في الملوك كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ كان له عقل أصلح به دنياه وأخراه، ونال من كليهما ما تمناه؛ فروي أنه كان له غلام يسمى درهما يحطب له، فقال: ما يقول الناس يا درهم؟ قال: وما يقولون؟ الناس كلهم بخير، أنا وأنت بشر، قال: وكيف ذلك؟ قال: إني عهدتك قبل الخلافة عطر اللباس، فاره المركب، رطب الطعام، فلما وليت الخلافة رجوت أن أستريح وأتخلص، فزاد عملي شدة وصرت أنت في بلاء ومحنة، فقال له: أنت حر فاذهب عني ودعني ما أنا فيه حتى يجعل الله لي فرجا ومخرجا. فهذا عمر بن عبد العزيز كان هذا الحال في خلافته من التقشف، وضعف المعيشة مع قوام الملك والجري على سبيل السوية، والنظر في أمور الرعية، وإجراء الخلافة على عوائدها الشرعية.

وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد المبررين في العبادة، الموصوفين بالزهادة، وكان إذا دعا ربـــه أجابه، وإذا عمل أعطاه وأثابه، وكان صياحا في الجبال، قواما في الليالي، وكان الله تبارك وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير تسكب عليه ماء متى شاء خيرا فيتوضأ ويشرب إلى أن غراه فتور في بعض الأوقات فأزال الله عنه سحابته، وحجبت إجابته، فكثر إذ ذاك حزنه ونحيبه، وطال كمده ووجيبه، وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة الممنون بها عليه فيبكي ويتأسف ويتحسر، فنام ليلة من الليالي فقيل له في نومه: إن شئت أن يرد الله عليك سحابتك فصل إلى الملك فلان الفلاني في بلد كذا وكذا وسله أن يدعو لك فإن الله عز وجل يردها عليك ويسوقها إليك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها وسأل عن الملك فأرشد إلى قصره وإذا عند باب القصر

غلام قاعد على كرسي عظيم وعليه كسوة هائلة ، فوقف الرجل إليه وسلم عليه فرد عليه السلام وقال: ما حاجتك؟ قال: أنا رجل مظلوم، جئت لأرفع إلى الملك نازلتي، قال: إنه لا سبيل إليه، لأنه قد جعل لأهل المسائل يوما يدخلون فيه عليه وهو يوم كذا وكذا فسر راشدا حتى يأتي ذلك اليوم، قال: فأنكر الرجل عليه حجبته عن الناس وقال: كيف يكون هذا وليا من أولياء الله تعالى وهو على مثل هذا الحال؟ قال الرجل: فلما كان اليوم الذي ذكر له البواب وصل فوجد عند الباب أناسا ينتظرون الإذن لهم بالدخول، قال: فوقف إلى أن خرج وزير عليه ثياب عظيمة وبين يديه سدنته وعبيده فقال ليدخل أرباب المسائل، قال فدخلوا ودخل العابد في الجملة فإذا الملك قاعد وبين يديه أرباب مملكته على مقاديرهم ومراتبهم ، فوقف الوزير يقول واحدا بعد واحد حتى وصلت النوبة إلى العابد، فلما قدمه الوزير نظر إليه الملك وقال: مرحبا بصاحب السحابة، اقعد حتى أفرغ لك، قال فتحير الرجل من قوله واعترف بمزيته وفضله فقضى الملك من الناس وفرغ منهم ثم قام فقام الوزراء وأرباب الدولة والمملكة وأخذ الملك بيد العابد وأدخله إلى قصره، فوجد عند باب قصره أسود عليه ثياب وفوق رأسه أسلحة وعن يمينه وشماله دروع وأتراس، فقام إلي مولاه وفتح باب القصر فدخل الملك وبيده صاحب السحابة فإذا بين يديه باب قصر خلو بال ففتحه ودخل دارا في أقصى قصره فأدخله إلى بيت نظيف ليس فيه إلا سجادة وقدح للوضوء، فجرد الملك ثيابه ولبس ثياب العبادة ثم قعد وأقعد العابد ونادى: يا فلانة ، فقالت: لبيك، فقال لها: أتدرين من ضيفنا هذا اليوم؟ فقالت نعم هو صاحب السحابة، فقال: أخرجي لا عليك منه فإذا امرأته كأنها الخيال وكأن في وجهها الهلال، عليها جبة صوف وقناع صوف، فقال الملك: ياأخي إنه كان لي في هذا الأمر أباء كرام يتداولون المملكة ويتوارثونها كابرا عن أكابر إلى أن ما ترى ووصل الأمر إلي

وبغض الله لي الدنيا فأردت أن أسيح في الأرض، وأترك الناس ينظرون لأنفسهم فخفت عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين فبايعوني مكرها فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت العبيد على الأبواب إرهابا لأهل الشر وردا عن أهل الخير وإقامة الحدود، فإذا فرغت من ذلك كله دخلت منزلي وأزلت هذه الأثواب ولبست ما لا أسأل عنه وهذه ابنة عمي وافقتني على الزهادة والعبادة ونحن على هذه الحال منذ أربعين سنة ثم قال بت الليلة عندنا فبت عندهما ثم قاما يصليان ويبكيان إلى السحر ولما كان عند السحر قال اللهم إن هذا يطلب منك رد سحابته قال وأمنت الزوجة قال فإذا بسحابة قد نشأت في السماء فقالا لي البشارة قال فودعتهما وانصرفت والسحابة تتبعني وأنا بعد ذلك لا أسأل الله بحرمتها شيئا إلا أجابني.

انظر يا بني هذا الملك كيف كانت حالته في خلافته وصلاحه وحزمه وكفايته جمع بعقله بين الدنيا والآخرة، فكان ظاهره حسنا وباطنه أحسن فهذا هو العقل التام فكذلك ينبغي لك يا بني أن تكون فافهم.

القسم الثاني: وهو الملك الذي له عقل يصلح به آخرته دون دنياه.

فهذا له عقل ناقص وليس له سياسة، يابني وعلامته أن يتشاغل بالعبادة ويجعل ما يتعلق من أمور خلافته كالزيادة ولا يترفه في ملبس ولا مطعم ولا بأمور رعيته ولايتهم، ويشتغل بأهل الصلاح ويفرط في الجيش والمال الذي بهما صلاح دنياه وأخراه، فصارت الولاة تأخذ ماله ولا شعور له بهم، وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم، فإن دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده لا يجد ما يصادر به عدوه عن رعيته وذلك مما يؤول إلى خراب ملكه وتعجيل هلكه لعدم اكتراثه بأمور رعيته و اتباعه بما جنى على نفسه أعظم مما رجا في انقطاعه، وقد قال عمر رضي الله عنه ليس الرجل رجل الآخرة وإنما الرجل رجل الدنيا والآخرة.

وروي عن المأمون أنه انشده مروان بن حفصة الشاعر هذا البيت:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين والناس في الدنيا مشاغل[1].

فلم يلتفت إليه ولا رفع رأسه ولا عرج عليه، فقال مروان لعمارة بن عقيل: أعلمت أن أمير المؤمنين لا يجيد النظر في الشعر؟ فقال عمارة: ومن ذا الذي يكون أجود منه نظرا في الشعر والله إنا لننشد البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون سمعه، فقال مروان: لقد أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره رفع له رأسا يعني البيت المتقدم، فقال عمارة: ما زدت على أن جعلته عابدا في محراب في يده سبحة.

فإذا كان أمير المؤمنين مشغولا بالدين عن الدنيا فمن يقوم بأمر الدنيا وهو المقلد بأمورها؟ هل لا قلت كما قال عمك جبر لعبد العزيز بن الوليد: فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه و لا غرض الدنيا عن الدين شاغله.

المأمون كيف غاب المدح له بالاقتصار على أمور الدين وترك ما قلد من أمر الدنيا فاجتهد يابني على أن تجمع بين الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه

يابني فهذا له سياسة وليس له عقل تام ويرجى ثبوت ملكه وانتظام سلكه لحسن سياسته التي يقوّم بها أمور رعيته وإن كان يظهر خلاف ما في طويته فأمره راجع إلى مولاه فيما أسره وأخفاه، فهو يجري الناس على عوائدهم المألوفة وأحوالهم المعروفة، وإن حدث على رعيته زيادة لم يشعروا بها حتى كأنها عادة وذلك من لطف سياسته وحسن تدبيره ورياسته، يعامل رعيته بما يجرب به نفوسهم ويوجب ألفتهم وتانيسهم، ويصلح أمورهم، ويحظ خاصتهم وجمهورهم، هذا وإن كان قد ضيع أمر رعيته وأصلح دنياه بحسن محاولته فيرجى له دوام دولته وبقاء

---

1 - الطبري محمد ابن جرير، تاريخ الطبري، منشور على شبكة الأنترنت موقع: http://www.yasoob.com، ج 7، ص 220.

مملكته، ودليل هذا انتظام ملك فارس وغيرهم لسياستهم مع كفرهم، وكثير من ذلك موجود في جميع الوجود كأبي جعفر المنصور[1] فإنه أصلح دنياه واتبع في خلافته هواه، ولم يعتبر في أكثر أموره أخراه، ومن أحواله مع ابن أبي ذيب وملك بن أنس وابن سمعان ما يروي أن مالك بن أنس قال رقا الملاقون المشاءون بالنميمة عني إلى أبي جعفر بكلام كان قد حفظ علي فأتاني رسوله ونحن بمنى وذلك بعد مفارقتي له وخروجي من عنده فلما أعلمني الرسول بذلك لم أشك أنه القتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني وتحنطت ثم هبطت فدخلت السرادق وهو قاعد على فراش قد نظم بالدر والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر حكي له أنه من فروش هشام بن عبد الملك كان هذا قد أهداه إليه صاحب القسطنطينية لا يعرف ثمنه ولا يدري ما قيمته والشمع تحترق بين يديه وهو ينظر في صحيفة في يديه وابن أبي ذيب وابن سمعان قائمان بين يديه ، فلما أن صرت بين يديه سلمت فرفع رأسه فنظر إلي وتبسم وهو شبه مغضب، ثم رمى بالصحيفة وأشار إلى موضع عن يمينه أقعد عليه، فلما جلست وأخذت مقعدي وسكن روعي رفعت رأسي انظر تلقائي فإذا بواقف عليه درع وبيده سيف قد شهره وهم أجمعون قد أصغوا إليه ورمقوه بأبصارهم خوفا أن يأمر في أحد فيجده غافلا ثم التفت إلينا فقال: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم معشر الفقهاء ما قد اشحن صدره وضاق به ذرعا، وكنتم أحق الناس بالكف من ألسنتكم وأولى الناس بالطاعة والمناصحة في السر والعلانية. قال مالك قلت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**)[2]، فقال أبو جعفر: على ذلكم فتكلموا أي الرجال إنا عندكم من أئمة العدل أم من أئمة الجور؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أنا متوسل

---

1 – أبو جعفر المنصور "هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له سنة سبع وثلاثين ومائة. انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، منشور على موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 344.

2 – سورة الحجرات، الآية 6.

إليك بالله العظيم ومحمد عليه السلام وبقرابتك منه ألا أعفيتني من الكلام في هذا، فقال: قل والله أعفاك يا أمير المؤمنين، ثم التفت إلي ابن سمعان فقال له: أيها القاضي أي الرجال أنا عندك ناشدتك الله تبارك وتعالى؟ قال ابن سمعان: أنت والله يا أمير المؤمنين خير الرجال؛ بك يحج بيت الله الحرام، ويجاهد العدو، وتأمن السبل، ويأمن الضعيف بأن يأكله القوى، وبك قوام الدين فأنت خير الرجال وأعدل الأئمة، ثم التفت إلى ابن أبي ذيب فقال له: ناشدتك الله أي الرجال أنا عندك؟ قال: أنت والله عندي أشد الرجال لأنك استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي في أموالهم، وسفكت الدماء في غير حقها، فما حجتك عند الله غدا بين يديه عز وجل؟ فقال أبو جعفر: ويحك أتغفل انظر ما أمامك قال نعم قد رأيت أسيافا وإنما هو الموت ولابد منه فما لابد منه عاجله خير من آجله، قال مالك: ثم خرجوا وحبست، فقال لي: إني لأجد رائحة الحنوط عليك، فقلت أجل لما قضي إليك عني ما مني ثم جاءني رسولك في الليل لم نشك أنه القتل فاغتسلت وتحنطت ولبست ثياب كفني، فقال أبو جعفر: سبحان الله ما كنت لأسلم الإسلام واسعى في نقضه وهدمه، أو ما تراني أسعى في إقامة أود الإسلام وأعز الإيمان عائذا بالله مما قلت يا أبا عبد الله انصرف راشدا مهذبا إلى مصرك، وإن أحببت ما عندنا فنحن لا نؤثر عليك أحدا ولا تعد لوائك مخلوقا، فقلت: إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة وإن يجبرني اخترت العافية ولزوم هذا المحل الكريم، فقال: ما كنت لأجبرك ولا أكرهك انقلب معافى فكلوا، قال فانقلبت فبت ليلتي فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير في كل صرة خمسة ءالاف درهم ثم دعا برجل من شرطة فقال له تقبض هذا المال وترفع إلى كل رجل منهم صرة، وارع ما أقول لك أما مالك ابن أنس فإن أخذها فسبيله لا جناح عليه فيما فعل وإن أخذها ابن أبي ذيب فأتني برأسه وإن تركها فهي عليه عافية، وإن يكن ابن سمعان يردها فأتني برأسه وإن أخذها فسبيله، فنهض بها إلى القوم فأما ابن سمعان فأخذ وسلم وأما ابن أبي ذيب فرد فسلم وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها، ثم رحل أبو جعفر إلى العراق.

وكعبد الملك بن مروان وتجرمه وتوليته الحجاج بن يوسف على العراق ؛ فمن ذهابه أن العامة تنسب الظلم إلى الحجاج لا إليه وأما الخاصة فلا يردون اللوم إلا عليه، وما سفك الحجاج من الدماء فإنما هو في الحقيقة على يديه ، وحصار مكة وهدم الكعبة فإنما الحجاج سيئته من سيئات عبد الملك؛ فهؤلاء صلحوا دنياهم وغفلوا عن أخراهم؛ فينبغي لك أن تتحلى بحسن سياستهم وتتجنب ما أحدثوه من ظلم في رياستهم.

القسم الرابع: ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته

فهذا يابني له عقل ناقص و لا سياسته له، وعلامته أن يجور على رعيته ويسيئ إليهم ويحدث الحوادث عليهم، ويحسن لمن أساء ويسيئ لمن أحسن، وينطق خلاف ما أظهر ويظهر خلاف ما نطق، هذا مع انهماكه في لذاته واستغراقه في شهواته واشتغاله في جميع أوقاته، وتقليد الأمور غير مستحقيها، وتوليها غير أهلها وهذه أفعال الشياطين لا أفعال السلاطين، وشيم الفتاك لا سيرة الأملاك، وهذا غلب على عقله هواه فأظهر من تصرفه من الفساد ما نكر من فعله وجنايته على نفسه وعلى رعيته، أضرت بأوليته وأخرويته، فهذا ولو رأى أنه عاقل فليس له في الحقيقة عقل ولا سياسة، أفسد دنياه وآخرته، ويروى أنه بلغ من دنياه بطايل.

وهذا كالوليد بن اليزيد بن عبد الملك[1] بن مروان فإنه كان كثير الهتار[2]، خالعا في الانهماك الغزار، سيئ السيرة، خبيث السريرة، جائر على أهله، مسيئا في

---

1 - الوليد بن يزيد كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكاً في اللهو والشرب وسماع الغناء، وكان شاعرا محسنا له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر... فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قتل. وكان السبب في قتله أنه كان قبل الخلافة على ما وصفنا من اللهو والشرب وانتهاك حرمات الله، عز وجل، فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكا في اللذات، واستهتارا بالمعاصي، وضم إلى ذلك ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله والإساءة إليهم وتنفيرهم، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته، وهجموا عليه وقتلوه. وكان المتولي لذلك يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، وذلك في سنة ست وعشرين ومائة.

انظر ابن طباطبا محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، د ت، ص 134.

2 - الهتار: من الهتر وهو الباطل والسقط من الكلام، وهاتره: سابه بالباطل من القول نقله ابن الأنباري عن أبي زيد قال ثعلب: وأما غيره فقال المهاترة : القول الذي ينقض بعضه بعضا ، يقال من ذلك: دع الهتار.

فعله، أحدث في قريش الأحداث العظيمة، وأخذ فيهم بالمثائر الذميمة، هتك حرمتهم وأحقر ذممهم، وسفك دمائهم، وخرب أنداءهم، وكان لا يرعوي لعدل عادل، ولا يثني عنانا لقول قائل إلى أن أقعده هتكه وساء به فتكه فانتشر سلكه؛ فمن اشتهاره في المرام وانهماكه مع الندام أنه سمع عن ابن شراعة الكوفي وكان منهمكا كثيرا وفاتكا شهيرا فبعث من الكوفة وعندما وصل إليه وتمثل بين يديه قال له: يا ابن شراعة ما أرسلت إليك أن أسالك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه، فقال له المنهمك: والله لو سألتني عنهما لوجدتني حمارا، قال: وإنما أرسلت إليك لأسئلك عن القهوة فقال أنا دهقانها[1] الخبير ولقمانها الحكيم وطبيبها الماهر فأجابه بما يقبح ذكره ويطوى نشره، فلما كثر تخلفه وانهماكه وإطراحه لسياسة الخلافة وانتهاكه أجمعوا

على قتله وسفك دمه، وولوا الخلافة ابن عمه، فكانت خلافته عاما واحدا وشهرين وعشرين يوما.

وهذا أيضا كالأمين ابن هارون الرشيد [2]فإنه كان ضعيف الرأي ناقص العقل قليل السياسة غير محسن الرياسة قدمه أبوه هارون على أخيه المأمون لشرف أمه زبيده وبجلالة خاله عيسى بن جعفر وتعصب في هاشم وكان الرشيد أعرف بمن هو أولى منهما بالتقديم لكنه غلب عليه وفي ذلك يقول الرشيد:

لقد بان وجه الرأي غير أنني ... غلبت عن الرأي الذي كان احزما

وكيف يرد الدر في الصرع بعدما ... يوزع حتى صار نهبا مقسما

انظر الزبيدي، م س، مادة هتر.

1 - الدهقان: التاجر، ن م ، مادة دهقن.

2 - أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد ، يكنى أبا عبد الله ويقال: أبا موسى، ولد برصافة بغداد سنة إحدى وسبعين ومائة استخلف ثم خلع بعد ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما فمكث مخلوعا محبوسا إلى أن قتله طاهر بن الحسين بن مصعب ببغداد لست بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة.انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، منشور على شبكة الأنترنت، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 128.

أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

ولم يتول الخلافة هاشمي بن هاشمية بعد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه غير الأمين؛ حكي أن أمه رأت في الليلة التي علقت به كان ثلاث نسوة دخلن عليها فدنت إحداهن فوضعت يدها على بطنها، ثم قالت: ملك ضخم عظيم البدن ثقيل الحمل يكل الأمر. ثم قامت الثانية ففعلت فعل الأولى. وقالت الثالثة: ملك عظيم الإتلاف، كثير الخلاف، قليل الإنصاف. قالت أم جعفر فانتبهت وأنا فزعة فلما كانت في الليلة التي وضعت فيها محمد الأمين دخلن علي في الصورة التي وردن علي فيها فقعدن عند رأسي؛ فقالت إحداهن: شجرة نظرة، وريحانة عطرة، وروضة زهرة. وقالت الثانية: عين غدقة، قليل لبنها سريع فناؤها، عامل ذهابها؛ وقالت الثالثة: عدو لنفسه، ضعيف بطشه، سريع عشه، مزال عرشه؛ فاستيقظت من نومي وأنا فزعة، فأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقال: هو بعض ما يطرق النائم فلما تم فصاله أخذت مرقدي فدخلن علي في مهدي فوقفن على رأسي وأقبلن على ولدي فقالت إحداهن: ملك جبار، متلاف مهدار، بعيد الآثار، سريع العمار؛ ثم قالت الثانية: ناطق مخصوم، ومحارب مهزوم، وراغب محروم؛ وقالت الثالثة: أحفروا قبره، وشقوا لحده، وأعدوا جهازه، وقربوا أكفانه، فإن موته خير من حياته.

وكان الأمين هذا ضعيف العقل؛ ذكر إبراهيم المهدي قال: استأذنت على الأمين وقد اشتد عليه الحصار من كل جهة فأبوا أن يأذنوا لي في الدخول إلى أن كابرت ودخلت فإذا هو قد قطع دجله بالشباك وكان لها مخترق في وسط القصر وفي المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا في البركة، وهو كواله فقال لي وقد وثبت: السلام عليك، لا تؤذوني يا عمي قد ذهبت مفرطتي من البركة إلى أن دخلت، والمفرطة سمكة كانت صيدت له صغيرة فقرطها بحلقتي ذهب فيها حبتا جوهر، فخرجت وأنا آيس من فلاحه.

فلا ينبغي لك يا بني أن تكون مثل هؤلاء الذين افسدوا آخرتهم ودنياهم.

الفصل الثاني: القاعدة الثانية، وهي قاعدة السياسة

اعلم يابني أن أصل السياسة التدبير، ولا يكون التدبير إلا بفكر صائب سليم لأنه من تفكر تدبر ومن تدبر تحذر، كاد الحذر أن ينجي من القدر، ومن حسنت سياسته عظمت رياسته، والفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ، فلا تهجم على أمر إلا بعد فكرة ورؤية، ولا تنفذه إلا عن بصيرة؛ لأن من طال تفكره حسن تدبره، ومن ركب العجلة لم يأمن الكبوة والزلة إلا في انتهاب الفرصة وإزالة الغصة، ومن نظر في العواقب أمن من المصائب، ومن لم يستعمل فكرته فيما عليه وله ماتت فطنته وطالت حسرته وعميت بصيرته، فقدم النظر الصحيح قبل أفعالك، فهو أنجح لأحوالك، فإذا تقرر هذا فاعلم يابني أن الملك بالنسبة إلى السياسة على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن تكون سياسة الملك عن تدبير سديد ورأي مصيب رشيد

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن ترى برأي وزرائك وجلسائك وكتابك وفقهائك وقضاتك وأعوانك وعمالك وقوادك وأجنادك.

أولا: الوزراء[1]

فأما وزرائك يابني فيجب عليك أن تختار وزيرا كبيرا مهذبا خطيرا بالأمور بصيرا يجمع من محمود الخلال ثمانية من الخلال وهي: أن يكون من خيار قومه وعشرته وكبير عشيرته وبيته، وأن يكون وافر العقل عاريا عن الجهل، حاضر الذهن، سريع الفهم، راجح الرأي، محمود السعي، محبا، ناصحا، ودودا، صالحا، شجاعا في المهمات وعند نزول الملمات، حسن الصورة، فصيح اللسان، بديع العبارة، بليغ البيان، كثير المال غير ذي حاجة ولا إقلال؛ وأما كونه من خيار قومه وعشيرته فإنه يكون محافظا على بيته ومروءته مجانبا للنقائص والشبهات متنزها عن

1 - العنوان من وضعنا.

المعايب في جميع الحالات، وأما كونه وافر العقل واضح الفضل؛ فلأنه يكون محافظا على سرك إذا أودعته سرك، مشيرا على ما يعود عليك بالمصلحة، دهرك، صادقا في خبره وخبره، غير مغتاب لأحد ولا ساع في ضرره، وفي العهد جميل الفصل لأن الوزراء أبواب الملوك منها يتوصل إلى الخير وبها يتقى من الضير ، وأما كونه يابني حاضر الذهن سريع الفهم قليلا يدخله في تصرفاته وليفهم الأشياء بأدنى إشارة ويتفطن للأمور بغير عبارة، وأما كونه يابني محبا في سلطانك فلأن يكون ناصحا في خدمتك، مقبلا على شأنك فلا يغش لسلطانك لمحبته فيك، بل يتبع غرضك ويوفيك، ولا يدخل عليك إلا لجلب مسرة أو دفع مضرة، وأما كونه يابني راجح العقل والرأي فلأن يسعى في المصالح بجده وحزمه أحسن سعي، وإن أشكل عليك شيء من آرائك ردك بحسن مشاركته إلى ما يصلح رأيك، وربما كان في بعض الأحيان في رأيك تقصير فيصلح عليك هذا الوزير بحسن التدبير، وينبهك على الغلط في التقدير، وأما كونه شجاعا عند نزول المهمات فلأنه يجزي في الحركات ولا يلجئك في الحروب إلى الملاقات إلا في الأمور العظيمة والخطوب الجسيمة التي لا بد فيها من حضور السلطان، يجمع الأبطال والشجعان، وأما كونه كثير المال والثروة فليستغني بثروته عن الطمع والرشوة فيكثر به الانتفاع ويقل به الأطماع، وأما كونه حسن السيرة فصيح اللسان فلأنه جمال ملكك وترجمانه الواضح البيان.

فإذا كملت هذه الأوصاف في الوزير صلحت به أمور المملكة في القليل والكثير، وكان لك في الوزراء أقوى نصير وأنصح مشير، وانتظم به الملك انتظام السلك، ودل ذلك على عقلك حين استوزرته فيما رأيته من تقويمه للوزارة وتدبيره. ومع ما ذكرنا من الاختيار فلا تخليه من الاختبار، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان؛ فقد رأينا من الوزراء من تتبسط الدنيا لديه فتختل هذه الأوصاف عليه لطلبه لذاته واتباعه لشهواته وإخلاءه لراحته، فإذا كان الوزير لا يكترث بالدنيا ولا يتبع فيها الهوى فذلك نعم الوزير والمباهي به والنظر.

قلنا ينبغي للوزير أن يكون أحسن فطنة وسياسة ورأيا من الملك لأن الملك يسوس من دونه من رعيته، وأما الوزير فإنه يسوس من فوقه وهو الملك ومن دونه وهم الرعية، فيحتاج إلى فضل سياسته وحسن فطنته وعقله، فأما لمن فوقه وهو الملك فيحتاج لما يقابله به وما يوافق غرضه ويصلح عليه أحواله وما يتقرب به إلى سلطانه، وأما سياسته لمن دونه فيحتاج بها إلى أن يسوسهم بأحسن السياسات مما يحفظ رتبته عند سلطانه، لأن الوزير لابد له من أعداء وحساد على مترلته، وطالبين على مرتبته، فيحتاج إلى التحرز منهم بحسن السياسة، فهو بين أمرين: خائف من فوقه وهو الملك، ومن دونه ممن يطمع في مرتبته ويرغب في مترلته، فأما خوفه ممن فوقه فإنه يخشى أن يقع في مشبهات تسقطه عند سلطانه، وأما خوفه ممن دونه فإنه يخاف أن يفتروا عليه بعض الافتراءات ويأتون عليها بالبهتان والأقاويل والكاذبات.

ومن أعجب الأشياء ملك صالح ووزير طالح أو ملك طالح ووزير صالح ومثل هذا كمثل الماء والنار كلما أنبته الماء من العشب والكلاء أحرقته النار بحرها؛ لأنه كلما عمل أحدهما خيرا أفسده الأخر بشره، والوزير الصالح وإن كان ملكه طالحا أنفع وأحسن من الوزير الطالح، إذا كان ملكه صالحا لأن الوزير يباشر الأشياء جليلها وحقيرها وعظيمها وخطيرها، ويصلح على سلطانه في سره وإعلانه لأن الملك لا يصله من الأمور إلا ما يوصله إليه وزيره وخاصته، وما يريدون أن يوصله إليه، فلذلك كان الوزير الصالح خيرا من الملك الصالح، ومثل هذا يسمى بالناصح.

وقد قالت الحكماء مثل السلطان كمثل الطبيب والرعية كالعليل والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل فإن كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد قتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فإذا ساقه الطبيب على نحو ما وصف له السفير هلك، وكذلك الوزير إذا نقل للملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، فمن هنا شرطنا أن يكون الوزير عاقلا نصوحا صدوقا إلى ما قدمناه من الأوصاف.

ومثل الملك الصالح والوزير السوء أودعته الذي يمنع غير الملك الناس ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي يكون فيه التمساح لا يستطيع المرء حوله وإن كان سابحا وللماء محتاجا، ومن لم تكن فيه خمس خصال لم يرجى لشيء من أمور الدنيا والآخرة: من لم يكن الحسب في أصله، واللين في خلقه، والكرم في طبعه، والنيل في نفسه، والخوف من ربه.

فمن كان من الوزراء جامعا لهذه الأمور كان في سياسته ودهائه كوزير سابور؛ يحكى أنه لما عزم سابور بن هرمز على الدخول إلى بلاد الروم متنكرا متجسسا نهاه نصحاؤه وحذروه التغرير بنفسه في أمر يمكنه أن يستنيب فيه فعصاهم، وكان يقال: أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك، وعشاق الفتيات من النسيا. وكان يقال: إنما عسر صرف الأحداث عن غير الهوى إلى رشد الرأي لأمرين، أحدهما: قوة سلطان الشهوات عليهم، والثاني: إن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم، وذو الحنكة بخلاف ذلك.

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخا ذا دهاء وحزم وسداد رأي وحنكة، وبصيرا بالديانات واللغات، وتبحر في العلوم وخبرة بالمكائد، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أنه به إليه الحاجة وتدعو إليه داعية، وأمره أن ينحاز عنه في قرب ومراعات[1] لجميع أحواله في نهاره وليله، وتوجها معا نحو الشام، فتزين ذلك الوزير بزي الرهبان وتكلم بلسان الجلالقة، وتحرف بصناعة الطيب الجراحي وكان معه الدهن الصيني الذي إذا دهنت به الجراح برأت واندملت في الحال، قال محمد بن ضفر عفا الله عنه[2]: قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا الدهن المذكور، وحدثني بعضهم أنه امتحنه بإن شرح اللحم ودهنه منه فالتئم فابتلع مكانه فكان، ذلك الوزير في مسيرة نحو بلاد الروم وبعدما

1 - هكذا في الأصل.
2 - انظر ابن ظفر محمد ابن أبي محمد المكي الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الاتباع، مطبعة الدولة التونسية، 1279 هـ، ص 39 - 40.

دخلها يداوي الجراحات بأدوية يضيف إليها شيئا يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة، وإذا عسر بأحد من ذوي الأقدار دواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ مكانه، ولا ياخذ على مداوات أجرا، فانتشر له في بلاد الروم ود وصيت بالعلم والزهد، وكان يقال: من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس المدارات[1] اجتنى السلامة، ومن غرس الطمع اجتنى الخزي، ومن غرس الحسن اجتنى الكمل.

وكان يقال: الأمم على اختلاف أديانها وأزمانها وبلدانها متفقة (على)[2] حمد أخلاق أربعة: العلم والزهد والاحسان والأمانة، قيل فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا أن الوزير يراعي أحوال سابور أشد المراعات[3]، فلم يزالا على ذلك حتى طرقا جميع الشام وتجاوزا الدرب وقصدا القسطنطينية فقدماها، فذهب الوزير إلى البطرك، وتفسير هذا الإسم أبو الأباء، فاستأذن عليه فأذن له وساله عما يرده فاخبره أنه هاجر من أرض الجلالقة ليتشرف بخدمته، ويدخل في اتباعه، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه وأكرمه وأحسن نزوله وألحقه ببطانته، واختبره فوجده لبيبا ممتعا، فأعجب غاية الاعجاب، وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه بما يوافقه وينفق به عنده، ويحسن موقعه منه، وكان يقال: إذا أردت صحبة رايس فانظر مإذا يشتمله وينفق عنده من الأثاث، فإن كنت مطيقا للعمل بها في طلب إقباله عليك، وحضرتك عنده فاقدم عليه، وإلا فرض نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته فتقدم على بصيرة. قيل: فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهة، معجبا بنوادر الأخبار، فأخذ الوزير في إتحافه من ذلك بكل نادرة غريبة ملحة عجيبة، فلم تطل المدة به في

---

1 – هكذا كتبت في الأصل.

2 – ما بين هلالين من إضافتنا

3 – هكذا كتبت في الأصل.

صحبته حتى على بعينه، وصار ألصق به من شعرات قصه، وجعل مع ذلك يعالج الجرحاء ولا يأخذ على ذلك عوضا، فعظم قدره في الناس ووسعته القلوب.

وكان يقال إذا كانت القلوب مجبولة على مقت المحسنين وكانت المحبة رقا والأحرار يكرهون الاسترقاق فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق المحسنين لمكافأتهم على إحسانهم جهرة حتى إذا لم يستطع فليرق نفسه هم معذورا.

وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور في كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحشد إليها الناس على طبقاتهم وهدد من تخلف عنها فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قيصر وهمته في قصره وذخائره فنهاه وزيره عن التغرير بنفسه، فعصاه وتزيا بزي وظن أنه يستتر به أمره ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة، وكان قيصر لما بلغه به سابور من لطف الفطنة وعظم الهمة وشدة البأس في حال صباه حذره حذرا شديدا، فبعث إلى حضرته بمصورماهر فحكى سابور في مجلسه وحال ركوبه وغير ذلك من ضروب الأحوال التي شاهدها المصور عليها، وقدم بتلك الصورة على قيصر، فأمر قيصر أن تصور تلك الصورة على فراشه وستوره وفي ءالات أكله وشربه، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه.

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر في مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس وأتوا بالشراب في كؤوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم، وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراسة صادقة، فلما وقت عينه على سابور وأنكره وجعل يتأمل من شخصه ونظرته وإشارته فرءا عليه مخايل الرئاسة فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه، فأتي ذلك المتفرس الرومي بكأس فيه صورة سابور فتأملها فانطبعت في نفسه مثالا لذلك الشخص الذي أنكره وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح من يده إمساكا طويلا ثم قال رافعا صوته: إن هذه الصورة التي في هذا القدح تخبرني خبرا عجيبا! فقيل له: ما الذي تخبرك هذه الصورة؟ فقال: تخبرني هذه الصورة أن الذي هي مثالا له معنا في مجلسنا هذا، ونظر ألى سابور وقد تغير حين سمع مقالته، فحقق ما ظنه به وأعاد القول، فبلغ كلامه

قيصر فأدناه وسأله فأخبره أن سابور معه في مجلسه وأشار إليه، فأمر قيصر بالقبض عليه أي على سابور فقبض عليه، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل، فقال ذلك المتفرس لا تقبلوا قوله فهو سابور لا محالة، وأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك فارعترف لهم بأنه سابور.

وكان يقال إن قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لحات الأبصار،

وطال ما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات.

وقيل: كما أن الأبصار مراءي تنطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدى الأفات فكذلك العقول مراءي لتطبع فيها الغايات إذا سلمت من صدى الشهوات.

وقيل: من الأدلة على مكاشفات الله القلوب على بعض الغيوب أن الانسان قد يتوقع الشيئ على نحو ما توقع منه، فقد يرى الإنسان الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه، أو يبغضه لغير إساءة جناها عليه، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة. قيل: ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما وأمر فجعلت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر، وطبقت عليه الجلود سبع طبقات، واتخذ لها بابا من أعلاها في ظهر الصورة يدخل إليها ويخرج منها، وجعلت فيها كوة من أسفلها في موضع المبال وأمر بسابور فجعلت يده إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة ليمكنه معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره، وأدخل سابور في جوف تلك الصورة، وهذا بعد أن حشد قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس، ووكل بتلك الصورة التي سجن بها سابور مائة رجل من ذوي البأس والقوة يحملونها دولا بينهم، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يظبط أمرهم، وصرف أمر جميعهم إلى المطران، ومعنى هذا اللقب صاحب البلد إلا أنها رياسة دينية وهو خليفة البطرق، فكانت تلك الصورة التي فيها سابور تحمل بين يديه فإذا نزل العسكر نزلت الصورة المذكورة في متوسط العسكر، وضربت عليها قبة سترها وأطلق بها خمسين من الموكلين ورؤساؤهم معهم، وضربت حولها عشر

قباب مستديرة بها، وكان في كل قبة خمسة ورئيسهم معهم وضربت حولها للمطران قبة بمجاورة قبة سابور وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقيد سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم، وصار قيصر محتفلا في جنوده وقد عزم على اخراب بلاد الفرس وتعقبه معالم ذكرهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنه.

وكان يقال: الحزم التزام مراحات العدو ما دامت لدولته ريح إقبال، كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركدت ريح إقباله.

وكان يقال: العاقل لا يكون في سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان الانهماك في اللذات وإضاعة الفرص.

وكان يقال: تمييز الملوك على السوقة إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تدب عنهم، ولبابة يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهز بها الفرص.

وأما فضيلة الآلات فاتخاذ المباني الوثيقة العلية، والملابس الأنيقة الثرية، والدخائر النفيسة الكثيرة، والمطاعم اللذيذة الشهية، والمراكب الشريفة البهية، فهذه فضيلة تفضل بها الآلات على ما دونها من اجناسها، فيكون للقصر فضل على غيره من القصور، وللثوب فضل على غيره من الثياب، وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر، وللطعام فضل على غير من الأطعمة، وللذاته فضل على غيرها من اللذات؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا لمالكها.

قيل: فلما سار قيصر بجنوده ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها قال وزير سابور للبطرك: إن مما استفدت لخدمتك والقرب منك الرغبة في صالح الأعمال، وأنه لا عمل أنفس من تنفيس كربة عن مجهود وجر نفع إلى مضطر، وقد علمت

كفايتي في معانات[1] الجرحى، وأن نفسي لاتنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا؛ فلعل الله أن يستنقذني نفسا صالحة يترحم علي من أجلها، ويغرس قلبي بخدمتها، ويحيطني لها فكرة البطريك ذلك، وقال له: لقد علمت أني لا استطيع فراقك ساعة فكيف تطالبني بالسفر البعيد عني، ما ظننت أنك تلقاني بما أكرهه وتشويقي بما يشق علي احتماله، كما لم أظنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب مني، والتحبب إلي فقد أزلتني عن حسن ظني بك.

ولم يزل الوزير يتضرع إلى البطريك ويتملقه ويقارب له العود إلى أن سمح له بذلك، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره فيه أنه قد بعث إليه بسويد قلبه وسواد بصره فليحلله من نفسه بأعلى المراتب ويستضيئ به فيما أشكل عليه؛ فقدم الوزير على المطران فعرف حقه وأنزله معه في قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده، وجعل الوزير يتملق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطربه كل ليلة بأخبار ممتعة، رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتأسا بذلك، ويدس في حديثه ما يجب أن يعلمه سابور من الأخبار ويعظمه له من الأسرار، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة، وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكائد رتبها وأسسها عندما قدم على المطران.

وكان يقال: من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح، وإنما كانت فطن الوزير أثقب من فطن الملوك لأن الملوك يتفقهون أبدا في سياسة من دونهم من الرعايا فهم أشبه شيئ بالجوارح التي تصيد ويفترس، وتصيدها أيضا جوارح أشد منها، فهي أعرف الجوارح بمكائد الاحتراز ومكائد الاكتساب. وكان يقال: أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجور وقوعه، ويمكن كونه عدة فإذا وقع الأمر قابله لما يكون أعد له، وأسوء الوزراء حالا من توكل على لفظ فطنته وقوة حيلته ودرية ممارسته فترك

---

1 - هكذا كتبت في الأصل.

الأعداء للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه، وإنما هو في ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله، فيوشك أن يستولي عليه العيى والحصر في بعض مقاماته، وهو بمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه فيوشك أن يظفر به عدوه في بعض المواضع.

قيل: وكان من المكائد التي أعدها وزير سابور أنه امتنع عن مواكلة المطران وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذي زوده البطرك طعاما غيره لما يرجوه من بركته وبركة الاعتداء به؛ فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فينفرد بالأكل منه، فلم يزل قيصر سائر الجنود حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتال والسبي وتحوير المياه وقطع الشجر وإخراب القرى والحصن، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولي على دار ملك سابور ويباغث من بها من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلا، ولم يكن للفرس هم إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعاقل، فلم يزل قيصر على ذلك حتى نزل مدينة سابور ومزاره ملكه، وهي المسماة بجري سابور فاحاط بها جنوده ونصب عليها المجانيق، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة في دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل بما يفهمه إياه وزيره ويرشد في حديث من الإشارات والرموز والكنايات، وكان سابور لم يسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر في تلك الصورة فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جند سابور وقد ثلم الأسوار بالمجانيق وأشرف على افتتاح المدينة عيل صفره، وساء ظنه بوزيره، ويئس وخرج من النجاة مما هو فيه، فلما جاءه الموكل به بطعامه وشرابه قال له إن هذه الجماعة قد نالت مني منالا ضعفت عن احتماله فإن كنت تريد بقاء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا بينها وبين عنقي ويدي حزما من الحرير، فجاء وزير سابور فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصد سابور، فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له: لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة، ولوددت أني حدثته البطريك قبل سفري عنه، قال المطران: إني

أرغب أن تحدثني به الليلة أيها الحكيم الراهب، قال الوزير: نعم وكرامة، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور، فقال له: إنه كان عندنا بجليقية فتى وفتاة في نهاية الحسن والطرف اسم الفتى مامعناه عين أهله، واسم الفتاة معناه سيدة النار، وكانا زوجين مؤتلفين متحابين لا يبتغي أحدهما بالآخر بدلان إن عين أهله، جلس يوما مع أصحابه يتحدثون فتذاكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والطرف الرابع، اسمها ما معناه سيدة الذهب، فوقع بقلب عين أهله ميل إليها فسأل الواصف لها عن مترلها فذكر أنه بقرية غير قرية عين أهله في أمرها، ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها، وطمحت نفسه إليها طموحا شديدا. وكان يقال: العقل كالبعل والنفس كالزوجة والجسم كالبيت لهما فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التي قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها وبعلها، فصلحت الجملة وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعي النفس فاسدا و نزاعتها مذمومة كفعل المرأة التي قهرت بعلها، قيل فانطلق عين أهله إلى القرية التي تسكن بها سيدة الذهب وطلب مترلها حتى عرفه ولم يزل يتردد إليه حتى رءاها فرأى منظرا عظيما عجيبا ولم يكن أحسن من امرأته ولكنه كان ينال من ضرورة النفس أن تحن إلى الشغل في الأحوال إذا كانت ثقلت بالتركيب إلى عالم الكون والفساد، ثم ينتقل بالتفريق إلى عالم الفساد وما افتتح أمره واختتم بالنقلة فأليق الأحوال بتوسطه النقلة، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى مترلها والتمتع بتاملها حتى فطن له فعلها، وكان جافي الطبع قاسي القلب شديد البطش يسمى الذيب، فرصد عين أهله حتى مر به فلما رءاه وثب عليه فقتل فرسه ومزق ثيابه، وتعنقه وعنف عليه واستعان بأصحاب له فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الدنيا وربطوه إلى سارية في بيت من بيوتها، ووكل به الذيب عجوزا قطعا اليد جدعا الأنف عوراء العين شوهاء الحالة، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز نارا بالقرب

من عين أهله وجعلت تصطلي فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز فزفر[1] زفرة عالية فأقبلت عليه العجوز وقالت له إيه الفتى ما ذنبك الذي أوردك موارد الذلة والشدة؟ فقال عين أهله: ما علمت أن لي ذنبا، فقالت العجوز: هكذا قالت الفرس للخنزير، فلم يصدقها الخنزير ثم باحثه عن أمره فظهر على ما خفي عنه وعلم صدق ظن الخنزير، فقال عين أهله للعجوز: إن رأيت أن تحدثيني بذلك وكيف كان فإنك تحسنين إلي به فقالت العجوز: ذكر أن فرسا كان لرجل من الفرسان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ويعده لمهماته ولايصبر عنه ساعة، وكان يخرج به في الغزوات إلى مرج فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس، وأنه خرج يوما إلى المرج ونزل عنه فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وحجج ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس.

ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل رام أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يستقر على أحد جنبيه فمنعه من ذلك الركابان فبات بشر ليله، ولما أصبح ذهب يبتغي فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطع إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر، فسبح فيه وكان حزامه ولببه جلدا لم يبالغ في دبغه فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتد عليه، فورم لبابه وحزامه واشتد الضرر عليه إلى مابه من الجوع، فلبث كذلك أياما إلى أن ضعف عن المشي لذهاب قواه فأقام بموضعه ذلك، فمر به خنزير فهم بقتله ثم عطف عليه لما رءاه فيه من الضعف فسأله عن خبره وحاله فأخبره بما هو فيه من أضرار اللجام واللبب وحزام وساله أن يصطنع عنده معروفا

---

1 – زفر: الزفر: الزفير، والفعل: يزفر، وهو أن يملأ صدره غما ثم يزفر به، والشهيق مد النفس، ثم يزفر، أي: يرمي به ويخرجه من صدره.
الخليل بن أحمد ، م س، ج 2، ص 86.

ويخلصه بما ابتلي به، فسأله الخنزير عن الذنب الذي استحق به تلك العقوبة فزعم الفرس أنه لا ذنب له، فقال له الخنزير كلا بل أنت كاذب في زعمك وجاهل بجرمك، فإن كنت يا فرس كاذبا فلا ينبغي أن تنفس عنك خناقا ولا أطلب فيك أجرا، وأنه كان يقال إذا رأيت نفس الكذاب قد تشتت بها عالم الفساد فكلها إليه فإنه اللائق بها لفساد تركيبها، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها مضربة معرضة عن الحقيقة في الحوادث وتنازعه إلى العدم المحض، فتصور العدم وجودا والباطل حقا، وتصور ذلك في نفس المغتر بها، الراكن إلى قولها. وكان يقال أحذر مقارنة ذوي الطباع المرذولة لئلا تسرق طباعك من طباعهم وأنت لا تشعر. وكان يقال لا تطمع في استصلاح الرذل والحصول على مصافاته فإن طباعه أصدق إليه منك، فلن يترك طباعه لك، ثم قال الخنزير وإن كنت يا فرس جاهلا بذنبك وجرمك الذي استوجبت به هذه العقوبة بجهلك فذنبك أعظم منه، فمن جهل ذنوبه أصر عليها ولم يرج فلاحه. وكان يقال احذر الجاهل فإنه يجني على نفسه ولست أحب إليه منها. وكان يقال ماشيء أشبه بالكذب من الجهل، وذلك لأن الكذاب يتناسى الصورة والقضية المحسوستين ويتخيل الكذب الذي هو ضدها حتى ينطبع ذلك في عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره، والجاهل يرى الاشياء على خلاف ماهي عليه فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، وإنما الفرق بين الجاهل والكذاب يأتي ما يعلم خطاب فيه، والجاهل لا يعلم ذلك فهو على نفسه وعلى غيره أشد جناية من الكذاب، فقال الفرس للخنزير ينبغي لك أن لا تزهد في اصطناع المعروف، فقال الخنزير إني لست بزاهد ولكنه كان يقال العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر لحبوبه الذي يبذر ما زكى من الأرض، فحدثني يافرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من حيث ذهبت، فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عقل فارسه، وكيف فارقه، وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير، فقال له الخنزير قد ظهر إلا أنك جاهل بجرمك وإن لك ذنوبا ستة، أولها: خذلانك فارسك الذي أحسن إليك وأعدك للمهمات، والثاني: كفرك لإحسانه، والثالث: إضرارك به في طلبك، والرابع: لتعديك على

ماليس لك وهو السرج واللجام، والخامس: إساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست له أهلا ولا لك عليه مقدرة، والسادس: إصرارك على ذنبك وتماديك في غوايتك؛ فقد كنت متمكنا من العود إلى فارسك والاستقالة من فرط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضبط؛ فقال الفرس للخنزير أما إذا عرفت ذنوبي وأيقظتني لما كنت عنه ذاهلا محجوبا لجهل فاطلقني الآن ودعني فإني مستحق لأضعاف ما أنا فيه، فقال له الخنزير أما إذا اعترفت وفطنت لهذا القدر وطنت نفسك ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها واستعملت الحكمة التي وعيتها فإنك حقيق بأن ينفس عنك، وأنه قيل إن الأب لوقا كتب على باب بيته لن ينتفع بحكمتها إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها فمن كان بهذه الصفة فليدخل والا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة، ثم إن الخنزير قطع غرار الحزام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس.

قال فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز قد صدقت فيما نطقت وضربت ليى مثلا كشف لي عن جلية أمري وأفدتني خصالا كفى بها وأدبتني فتأدبت ووعظتني واتعظت، ثم حدثها حديثه ورغب إليها في أن تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الخنزير للفرس، فقالت العجوز إنك غر لا بصيرة لك فأكثر الأمور، وأن الذي سالتني لا يمكنني فعله الان ولعلي أن أجد لك فرجا ومخرجا مما أنت فيه، فعليك بالصبر.

وأمسكت العجوز عن مخاطبته، قال فلما أنتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال له: إني أحس في رأسي صداعا وفي أعضاءي فتورا و لايمكنني الليلة إتمام الحديث، ولعل أن أكون في الليلة القابلة نشيطا إلى ذلك قديرا عليه فاكمل مسرتك باكماله، ونهض إلى مضجعه، فجعل سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل الأمثال التي وصفه بها ففهم أن الوزير عنا عنه بعين أهله لأنه ملك فارس وعنا عن مملكته وإقليم بابيل بسيدة النار لأن رعيته يعبدون النار، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب، وكنى عن قيصر بالذيب الذي ذكر أنه بعد سيدة

الذهب، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة قيصر بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب، وكنى عن أخذ قيصر له بقبض الذيب على عين أهله، وقصد بما ضرب له من الأمثال الحكمية تأديبه على سيرته وتغريره بنفسه ومخالفته نصحه، وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذله في خدمة المطران وطلبه مرضاته، وتملقه بالعجوز القطعا الجذعا العوراء المشوهة الخلقة، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه في ذلك الوقت وأنه ساع في خلاصه، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعاودته ثقته بوزيره واستراح ريح الفرج، ولبث بذلك ليلته وعدها إلى الليلة القابلة، فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور: أيها الراهب الحكيم اخبرني ما كان من أمر عين أهله وكيف كان عاقبة شدته وهل خلصته العجوز من وثاق الذيب فإن نفسي إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال، قال الوزير سمعا لقولك وطاعة لأمرك ثم اقبل عليه يحدثه فقال إن عين الله أقام على حالته موثقا طول ليلته تلك، فلما أصبح دخل الذيب فتهدده بالقتل وزاده إلى وثاقه قيدا ثقيلا وخرج عنه، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأماني فلما جنه الليل قلق واستوحش فبكي وانتحب، وجاءت العجوز فأضرمت نارا قريبا منه وجلست تصطلي ثم أقبلت على عين أهله فقالت له: تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأسى بهم و لا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك، فقال لها عين أهله: لقد صدق القائل هان على الطليق ما لقي الأسير، قالت العجوز أيها الفتى إن حداثة نفسك قصرت بك عن كثير من إدراك الحقائق فاستمع حديثا لك فيه سلوى، قال نعم فانعم علي به، فقالت العجوز ذكر أن تاجرا مكثرا كان له ابن ليس له ولد غيره وكان شديد المحبة له والتشغف به فألحقه بعض معارفه بغزال شرح صغير فعلق به قلب ولد التاجر، فكان لا يفارقه، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حليا نفيسا وأن تبطوا له شاه ترضعه حتى إذا اشتد الغزال وشدر نجم قرناه، فقال الغلام لأهله ما هذا في رأس الغزال قالوا قرناه، فأعجبه سوادهما وبريقهما، فقيل للغلام أنه ستكبران وتطولان حتى تكون صفتهما كيت وكيت فقال الغلام لأبيه أحب أن أرى ظبيا له قرنان كبيران، فأمر أبوه فصيد له ظبي ثني قد استكمل قرناه ونموا

فأعجب الغلام وكرمه أهله وحلوه وأنسوه فأنسي وألف الغزال إلى الظبي لمجانسة الطبيعة، فقال الغزال للظبي ما ظننت قبل أن أراك إن لي في الأرض شكلا ثم لما رأيتك وقع في نفسي أن لي اشكال سواك، فقال له الظبي نعم إن اشكالك لكثيرة، فقال له الغزال أين هي؟ فأخبره الظبي بتوحشها وانفرادها في فلوات الأرض فرارا من الناس، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها فارتاح الغزال لما سمع من الظبي وتمنى أن يراها فيكون معها، فقال الظبي هذه منية لا خير لك فيها وأنت قد نشأت في رفاهية من العيش وامنه لا تعرف غيرها ولو حصلت في ما تمنيت لندمت، وكان يقال الأماني في الشدة ارتياح وفي الرخاء جماح، فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من الأماني إلا في المقدار الذي يونس الوحشة وينفس الكربة فإن استيلاء الأماني على النفوس كتآمر السفل الذين يعبدون الرءوس إعجازا والإعجاز رءوسا ويسعون في قلوب الأعيان وتغيير صورة الصواب، فقال الغزال للظبي لابد لي من اللحاق بأشكالي فلما رأى الظبي أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغ ما تمناه لأنه غر لا يعرف التحرز من مكائد الأنس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضي حق حرمة ألفته إياه، فرصد حينا يمكنه فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو لا يثنيه شيئ فسقط في أخدود ضيق قد قطعه السيل فنشب فيه وانتظر أن ياتيه الظبي ليخلصه فلم يأته فبقي هناك، وأما ولد التاجر فإنه لما أصبح عدم الغزال والظبي فجزع لفقدهما واشفق أبوه عليه فاستدعى كل من يعاني الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم الظبي والغزال ووعد من وجدهما وعدا مرغوبا فيه فانبثوا في سهل الأرض وحرقها يطلبون ذلك، وركب التاجر دابته وفرق اتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من ياتي من الصيادين، وانطلق هو وعبدان من عبيده حتى أتوا الصحراء فرارا على بعد رحلا مكبا على شيء بين يديه فأسرع نحوه فإذا هو صياد قد أوثق ظبيا وهو يريد ذبحه فتأمله التاجر فإذا هو ذلك الظبي الذي يطلبه فتخلصه من يد الصائد وأمر عبيده ففتشاه فوجدوا معه الحلي الذي كان على الظبي فسألوه كيف ظفر بالظبي وأين وجده فقال إني بت في الصحراء نصيد ونصبت شركا وكمنت

قريبا منه فلما أصبحت جاء هذا الظبي ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الظبي حتى دخل في الشرك فأخذته وقصدت به المدينة، فلما بلغت هذا الموضع ظهر إني مخطىء في إدخال الظبي المدينة حيا لعلمي أنه إن رىء طلبت بما كان عليه من الزينة فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبري، فقال له التاجر لقد جنى عليك شحك الخيبة والحرمان فماذا عليك لو أطلقته فذهب الظبي وحصلت أنت على حلية وزينته، ولقد صدق القائل لا يدخل الشدة مدخلا إلا اعتقبته الحسرة، ألا ترى أن من جملة البخل والشدة على أكل اللقمة التي عافتها نفسه كان متعرضا للحرمة فهو ما أكله والحسرة عليه عند مفارقته، ثم إن التاجر بعث بالظبي إلى ولده مع أحد عبيده، وقال لذلك الصياد أرجع معي فإن في الجهة التي رأيت الغزال سعى نحوها فرجع إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويشرف على المواضع ومشى التاجر على رسله فسمع نزيف الغزال، وهو صوته، فصاح به التاجر فصوت فاتبع التاجر حتى قام عليه وإذا هو في أخدود، أي شق من الأرض، متشبثا فيه فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ورجع التاجر بالغزال إلى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الغزال يتجنب الظبي إذا راه ولا يألفه كما كان، وإذا حصل معه في موضع نفر منه أشد النفار فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والظبي على حال ألفة وسكون فلم يقدر على ذلك، فبينما الغزال يوما قائما في بيت دخل عليه الظبي فعاتبه على نفاره منه وطول هجره له فقال الغزال: نسيت عدوك لي أحوج ماكنت إلى عونك وأوثق ما كنت بنصرك؟ فقال له الظبي إني لم أغدر ولم أخن ولكن عدم رسوخك في علم التجربة أوقعك في تهمة البريء، وإني لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطرا إلى التأخير عنك عاجزا عن المبادرة إليك، وقص عليه قصته وإنه حصل في شرك الصياد فعلم الغزال عذره وعاد إلى تألفهما.

قال فلما سمع عين أهله حديث العجوز فهم ما أرادت من ذكر عجزها عن تخليصه أمسك عن خطاها قيل فلما أنتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد

سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ما هذا السكوت لعلك تريد أن تجز أخباري بما كان من عاقبة عين أهله وما لقي من الذيب وما صنعته العجوز فقال إني لعازم على ذلك لفتور أجده في أعضائي فقال المطران لا تفعل فإن ذلك يسوءني ويشق علي فاحمل على نفسك الليلة أيها الحكيم فإني راغب في تأنيسك، معجب بأحاديثك، فقال الوزير أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ولو علمت أيها المطران ما ادخرت لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسرار لعجبت من ذلك أشد العجب ثم اندفع يحدثه أن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادته أمسك عنها وبات ليلته تلك باسوء حال، ولما أصبح دخل عليه الذيب فنال منه وتعنفه وتهدده بالقتل وزاده قيدا إلى قيده، وعرفه أن لا ناصر عليه ولا مخلص له من يده وخرج عنه، فجعل يعلل نفسه بقية نهاره ويمنيها الفرج، فلما أقبل عليه الليل استوحش واستوحشته الأفكار المومضة وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحادثه فلم تفعل وجعلت العجوز تكثر الدخول والخروج الى البيت الذي فيه عين أهله ولا تستقر فيه فساء ظن عين أهله و أيقن بالهلكة، وما شك أن الذيب يقتله تلك الليلة، فأقبل على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ثم قال للعجوز مالك لم تؤنسني الليلة بحديثك ولا جلست إلي فجلست إليه وقالت أما كان في رؤيته قطعا جذعا مشوهة عوراء سيئة الحال، ما يحملك على التأسي فتأخذ في الشكر لله على سلامة نفسك ومعافاتك من بلاء هو أعظم من بلائك حتى قلت هان علي الطلاق ما لاق الأسير، ولو اعتبرت باطن حالي لما ظهر لك منها لعلمت أن أسري أشد من أسرك، فاستمع إلي أحدثك حديثي: اعلم أيها الفتى إني كنت زوجا لبعض الفرسان وكان إلي محسنا وبي رفيقا ولي محبا فكنت معه في ارغد عيش وأهناه، فلبث بذلك مدة طويلة وولدت له الأولاد ذكورا وإناثا فكبروا في رفاهية ونعمة فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادي وباعني أنا وبناتي مفترقات فاشتراني هذا الفارس الذي عدى عليك واحتملني إلى هذه القرية وأساء إلي وكلفني من العمل ما لا طاقة لي به، وكثر معاقبتي على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة، فسالته مرارا أن يرفق بي واستعنت عليه بإخوانه ومن

يكرم عليه لكي يخفف عني فلم يزده السؤال والشفاعة إلا قسوة علي واضرارا بي، فلبثت بذلك سبع سنين ثم فررت منه فاتبعني فدركني فجذع أنفي ثم عاد قسوة علي واضرارا بي وعاودت مسألته والاستشفاع إليه، وهو مقيم على سوء رأيه بي، فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ثم فررت منه فظفر بي ففقأ عيني ثم عاود عسفي، فكملت سبع سنين أخرى ثم فررت منه فظفر بي فقطع يدي وقال إنما بقي من اعضائك التي انتفع بها عينك ويدك فإن فررت بعد هذا قطعت رجليك معا وابقيتك انتفع بعينك في الحراسة وبيدك في العمل، واقسم على ذلك بغليظ الأيمان وعاود عسفي ومضرتي، وقد عزمت على أن اخلصك الليلة واقتل نفسي بيدي طلبا للراحة مما أنا فيه، ولقد رأيتني أكثر الدخول عليك والخروج عنك لحيرتي وجزعي من الموت وقد طابت نفسي على الموت ثم أنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكينا فقال لها عين أهله لم اتركك تقتلين نفسك لقد شاركتك في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو معا أو نعطب معا، فقالت له إن كبر سني وضعفت حالتي ليمنعني من اتباعك وأهرب معك، فقال لها: إن الليل متسع والموضع الذي نأمن إذا وصلنا إليه قريب ولي قوة على حملك، فقالت العجوز أما إذا عزمت على هذا فإني لا احوجك ما دمت به مسكة، وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا بما صنعت واتخذها ما يسمع لها ويطيع؛ فهذا ما بلغني من ذلك. فقال المطران ما اعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أن لا أفارقك وأن سفري هذا يطول لتطول متعتي بك ويعظم حظي من أنسك ولقد استعذبت مفارقة الأهل والوطن لقربك ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه، وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الغزال مثل سابور، وأن الظبي مثل الوزير، وأن خروج الظبي مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال في الأخدود مثله بصحبة سابور حتى صار سابور في حبس قيصر، وأن نفور الغزال من الظبي لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه

والخروج إلى المدينة قريب منها وأنه يحمله إن عجز على المشي فأيقن سابور بقرب الفرج.

ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ فيها الطعام للمطران وللموكلين بحفظ سابور على حال خلوة واحتراس فألقي في تلك الأطعمة مرقّدا قوي الفعل، ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ماجرت به عادته، فلم تكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقّد على جميعهم، وبادر الوزير ففتح باب المقصورة على سابور واستخرجه وازال الجامعة من يده وعنقه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به جند سابور، وهي مدينة ملكه منهما معا إلى سورها فصرح فهما الموكلون بحراسة السور، فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض اصواتهم وعرفهم بنفسه وأعلمهم بسلامة ملكهم، فابتدروا وأدخلوهما المدينة، فقويت نفوس أهلها، وأمرهم سابور بالاجتماع، وفرق فيهم السلاح وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم، فإذا ضربت الروم نواقيسهم الضرب الأول خرجوا من المدينة إلى مقربة من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب حتى إذا ضربت الروم النواقيس الضرب الثاني حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها، فامتثلوا أمره، وانتخب سابور كتيبة عظيمة وقام معهم في ما يلي الجهة التي تلي قيصر، فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة وقصد سابور اخبية قيصر، و لم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم، وأنهم قد بنوا ابواب مدينتهم، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس، وأخذ سابور قيصر أسيرا، وغنم جميع عسكره، واحتوى على خزائنه و لم ينج من جنوده إلا الشديد.

وعاد سابور إلى قرار ملكه وقسم الغنائم بين أهل عسكره وأفاض الصلاة على جميع من في مدينته بقدر أحوالهم وأحضى إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع أموره إلى وزيره الذي تخلصه ثم احضر قيصر فأكرمه ولاطفه وقال إني مبق عليك كما أبقيت وغير مجاز لك بتضييق محبسي ولكني وآخذك بإصلاح ما

افسدت من جميع ممالكي، فتبني ما هدمت، وتغرس مكان كل نخلة قطعتها من بلادي زيتونة، وتطلق من في مملكتك من اساري.

فضمن له قيصر ذلك كله و وفى له به، ولما انتهى في الإصلاح إلى بناء ما أثلم من سور مدينة جندى سابور قال سابور لقيصر إنما تبنيه من تراب بلدك فأمر قيصر رعيته من الروم يحملون التراب من بلادهم إلى جندى سابور فرفع ما انثلم من سورها.

ولما أتم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن قال له خذ أهبتك واستعد عدتك فإني غازيا أرضك عما قريب.

فتأمل يابني حسن محاولة هذا الوزير وارتكابه في استخلاص سلطانه كل أمر خطير، واجتهد على أن تتخذ من يقارنه في الدهاء والتدبير وكوزير جذيمة الأبرش وهو قيصر بن سعد والزبا بنت مليح وكيفية ذلك: ما رواه هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جذيمة بن ملك ملكا على الحيرة وما حولها من السواد ملك ستين سنة وكان به وضح في بدنه، أي برص، وكان شديد السلطان قد خافه القريب والبعيد فتهابه العرب أن تقول الأبرص فقالت الأبرش، فغزا مليح بن البراق كان ملكا على الحصن وهو الحاجز بين الروم والفرس وهو الذي ذكر عدي بن زيد في قوله وأخذ الحصن إذ بناه واد دجلة يحنى[1] إليه والحابور[2] ، فقتله جذيمة وطرد الزبا إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة؛ قال ابن الكلبي: ولم يكن في نساء عصرنا أجمل منها، وكان اسمها فارعة وكان لها شعر إذا مشت سحبته من ورائها وإذا نشرته جللها، فسميت

---

1 – يحنى وحنى عليه ويحنو: يشفق.
انظر الصاحب بن عباد. م س، ج 1، 2535.
2 – الحابور هو مجلس الفساق.
ابن منظور، م س ، مادة حبر.

الزبا، وبعث عيسى (بن مريم عليهما السلام)[1] بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى دار أبيها ومملكته وأزالت جذيمة الأبرش عنها، وبنت على مرافئ الفرات مدينتين اثنتين مقابلتين من شرقي الفرات، فكانت إذا أرهقها الأعداء أوت إليهما وتحصنت بهما، وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء بتول وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة فحدث جذيمة نفسه بخطبتها فجمع خاصته فشاورهم فى ذلك، وكان له ابن عم يقال له قيصر بن سعد وكان عاقلا لبيبا وكان صاحب أمره وعميد دولته فسكت القوم وتكلم قيصر فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزبا امرأة قد حرمت الرجال وهي عذراء بتول لا ترغب في الرجال، ولا غرض لها في مال و لا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام، وإنما تاركتك رغبة ورهبة، والحقد داء في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وللملك في بنات الملوك الاكفاء متسع ولهن فيه مقنع، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فهو دونك وعظم شأنك فما أحد فوقك، فقال له: يا قيصر الرأي ما رأيته والحزم فيما قلته ولكن النفس تواقة، وإلى ما تحب وتهوى مشتاقة، ولكل أمرئ قدره لا مفر منه ولا حذر؛ فوجه إليها خاطبا وقال له: إئت الزبا واذكر لها ما يرغبها في ونصبو إليه، فجاءها خاطبه فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له أنعم بك عينا وبما جئت به وإليه، وأظهرت السرور والرغبة فيه، وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنت اضرب عن هذا الأمر خوفا أن لا أجد كفؤا والملك فوق قدري وأنا دون قدره وقد أحببت إلى ما سأل ورغبت فيما قال، ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه ونزلت عليه، وأهديت إليه هدية سنية ساقت العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم وجملة من الثياب والعين والورق فلما رجع إليه خطبتها أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف، ورأى أن

---

1 – الجملة التي بين هلالين نقلتها من النسخة المطبوعة طباعة الحجرية عام 1862 م، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النسخة.

ذلك لحصول رغبة فأعجلته نفسه وسار من فوره بمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخيه عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من اللخم وكان ملكه عشرون ومائة وسنة، والذي خطفته الجن وهو صبي صغير ورد وهو قد شب وكبر، فقالت أمه التفوه للطوق، فقال خاله جزيمه شب عمرو عن الطوق، فذهبت مثلا، فاستخلفه وصار إلى الزبا فلما كان في بعض الطريق نزل فتصيد وأكل وشرب واستعاد المشـــورة و الرأي في أصحابه فسكت القوم، وافتتح الكلام قصير فقال: أيها الملك كل عزم لا يؤيد بحزم فإلى أين ما يكون، ولاتثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعقد الرأي بالهوى فيفسد و الحزم بالمنى فينفذ، والرأي عندي للملك أن يتعقب أمره بالتثبت، ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزما لا يفعل.

وأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم من الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصرفوا رأيه، وقووا عزمه، فقال جذيمة: الرأي مع الجماعة والصواب ما رأيتم، فقال قصير القدر سابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر، فأرسلها مثلا، وسار جذيمة فلما قرب من دار الزبا نزل فأرسل إليها يعلمها بمجيئه فرحبت وقربت وأظهرت السرور والرغبة فيه، وأمرت أن يحمل إليه الانزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها و عامة أهل دولتها ورعيتها: تلقوا سيدكم وملك دولتكم، وعاد الرسل بالجواب لما رأوا سمعوا[1]، فلما عزم جذيمة أن يسير دعا قصير فقال: أنت على رأيك؟ قال نعم، قد زاد رغبتي فيه، فقال قصير ليس للأمور بصاحب من لم ينظر في العواقب، وقد يدرك الأمر قبل فوته وفي يد الملك هو بها مسلط في استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة ومكان والقيتها في يد من لست آمن مكره وغدره، فإن كنت ولا بد فاعلا ولهواك تابعا فاعلم بأن القوم إن يلقوك غرا فرقا وساروا أمامك، وجاء قوم

---

1 - في الأصل كتبت وسمع ، وكتبتها سمعوا، لتناسب السياق.

وذهب قوم فالأمر بعد في يدك والرأي فيه إليك وإن يلقوك زردقا[1] واحدا فأقاموا إليك صفين حتى إذا توسطتم انقضوا عليك من كل جانب واحد قرابك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم، وهذه العصا لا يشق غبارها، وكانت لجذيمه فرس تسبق الطير وتجاري الرياح يقال لها العصا فإذا كان كذلك فتحلل أظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها، فسمع جذيمه كلامه ولم يرد جوابا وسار.

وكانت الزبا لما رجع رسول جذيمه من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمه غدا فتلقوه بأجمعكم وقوموا صفين من عن يمينه وعن شماله فإذا توسط جمعكم فانقضوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفوتكم.

وسار جذيمه و قصير عن يمينه فلما لقيه القوم زردقا واحدا فأقاموا له، فلما توسط القوم وانقضوا عليه القضاض الأجلال على فريسة، واحدقوا به وعلم أنهم ملكوه، وكـــان قصير يسايره، فأقبل عليه وقال: صدقت يا قصير، فقال قصير: أيها الملك أبطأت بالجواب حتي فات الصواب فأرسلها مثلا، قال: كيف الرأي الآن؟ فقال: هذه العصا فدونكها لعلك تنجو، فانفك جذيمة من ذلك وسارت له الجيوش، فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم الأمر وأيقن بالقتل جمع نفسه وسار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تهوي به هوى الريح، فنظر إليه جذيمة وهي تتطاول، وأشرفت الزبا من قصرها وقالت: ما أحسنك تجلى علي وتزف إلي حتى دخلوا به على الزبا، ولم يكن معها في قصرها إلا جوار أبكار أتراب، وكانت جالسة على سريرها وحواليها ألف وصيفة كل وصيفة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وقالت لوصائفها خذوا بيد سيدكن وبعل مولاته مولاتكن فأخذن بيده وأجلسنه على الانطاع بحيث تراه ويراها وتسمع كلامه ويسمع كلامها ثم أمرت الجواري فقطعن رواهشه[2] ووضعت الطست وقطرت

---

1 - الزردق: الصف القيام من الناس.
ابن منظور، م س، مادة زردق.

2 - الرواهش: العصب التي في ظاهر الذراع ، واحدها راهشة وراهش بغير هاء.

قطرة على القطع فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك، فقال خذيمة: لا يحزنك دم أضاعه أهله، فلما مات قالت: والله ما أوفى ولا أشقى قتلك وإنما هو غيض من فيض، ثم أمرت به فدفن.

وكان قد استخلف على مملكته ابن أخيه عمر بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر من خلفه، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس تهوي به فرسه هوي الريح فقال: أما الفرس ففرس جذيمة وأما الراكب فكالبهيمة، لأمر ما جاءت العصا، فأشرف عليهم قصير، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: سعى القدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب ثأرك من الزبا؛ فقال عمر وأي ثأر يطلب من الزبا وهي أمنع من عقاب الجو! فقال قد علمت نصحي لخالك وكان الأجل قائده وإني والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس، أو أدرك به ثأرا أوتخترم نفسي فأغدر، ثم أنه عمد إلى أنفه فجذعه ثم لحق بالزبا هاربا من عمرو بن عدي، فقيل لها هذا قصير بن عم خذيمة وخازنه وصاحب رأيه قد جاءك، فأذنت له فقالت ما الذي جاء بك إلينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم يقطر؟ فقال: يا بنت الملوك العظام لقد أبيت فيه ما يأتي مثلك في مثله، ولقد كان دم الملك يطلب حتى أطلب، ولقد جئت مستجيرا من عمر بن عدي فإنه اتهمني بحاله وبالمشورة بالمسير إليك فجذع أنفي وأخذ مالي و حال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي فهربت منه إليك وأنا مستجير بك ومستند إلى كنفك وعزك، فقالت: أهلا وسهلا بك لك أمن الجوار وذمة المستجير. وأمرت به فأنزل وأجرت عليه الأنزال ووصلته وكسته وأكرمته وزادت في إكرامه فأقامت مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها، وموضع الفرصة منها.

ابن منظور، م س، مادة رهش.

وكانت متمنعة بقصر مشيد على بابه نفق تعتصم به فلا يقدر عليه أحد؛ فقال لها إن لي بالعراق مالا كثيرا وذخائر نفيسة مما تصلح للملوك فإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئا أتعلل به في التجارة وأجعله سببا في الوصول إلى مالي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له وأعطته مالا، فقدم العراق ببلاد كسرى فأطرفها وألطفها من كل طريفة وزادها مالا إلى مالها كثيرا، وقدم عليها به فأعجبها ذلك منه وسرها، وترتبت له عندها منزلة، وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طرفا من الجواهر والبر والخز[1] والقز[2] والديباج، وزاد مكانة منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه، ولم يزل يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه، ثم خرج ثالثة فقدم بأكثر من الأولين طرائف ولطائف فبلغ مكانه منها موضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها، واستأمنت إليه وعولت عليه في أمور، وكان حسن القد والرأي، لبيبا أديبا؛ فقالت له يوما: إني أريد غزو البلاد الفلاني من أرض الشام فاخرج إلى العراق وايتني بكذا وكذا من السلاح والكراع والعبيد والثياب، فقال: ولي في بلاد عمر بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح فيها كذا وكذا وما يعلم بها عمر ولو علم بها لأخذها واستعان بها على حربك، وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرا من حيث لا يعلم فآتك بها مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد وقالت يا قصير: الملك يحسن بمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره، ولقد بلغني أمر جذيمة وأن إيراده وإصداره كان إليك وما نقص بك عن شيء تناله يدي، ولا انعقد بك عن حال ينهض بي، فسمع كلامها رجل من خاصتها فقال: أسد حادر[3] وليث ثائر قد تحير للوثبة.

---

1 – الخز: جمعه خزوز وهو الحرير.
ابن سيده، المخصص،موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، مادة الخز والقز.

2 – القز: الحرير على الحال التي يكون عليها عندما تنسجه دوده الحرير. القاموس الفقهي. موقع موقع: http://www.yasoob.com، ج 1، ص 302.

3 – حادر: غليظ. ابن منظور، م س، مادة حدر.

ولما رأى مكانه منها وتمكنه من قلبها قال الآن طاب المصراع، وخرج من عندها فأتى عمر بن عدي فقال له: قد أصبت الفرصة من الزبا فانهض وعجل الوثبة، فقال له عمر وقل أسمع ومر أفعل فأنت طبيب هذه الفرصة، فقال: الرجال والأموال، فقال: حكمك فيما عندي مسلط؛ فعمد إلى ألف رجل من فتاك قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السيوف والحجب وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفلها مربوطة من داخل؛ وكان عمر فيهم، فساق الخيل والكراع والعبيد والسلاح والإبل جملة فجاءها البشير وقال: قد جاء قصير.

ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والحجب وقال: إذا توسطت الإبل المدينة فالأمارة بيني وبينكم كذا وكذا، فاخترطوا المربط، فلما قربت العير من مدينة الزبا كانت الزبا في قصرها فرأت الإبل تتهادى بأحمالها فارتابت بها، وقد كان وشي بقصير إليها، وحذرت منهم فقالت للواشي به إليها: إن قصيرا اليوم منا وهو رجى[1] هذه النعمة وصنيعها (وقد تغذى بلبن)[2] هذه الدولة، (وهو اليوم شمسها)[3]، وإنما يبعثكم على ذلك الحسد وأن ليس فيكم مثله فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم احمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها فقالـــــــت:

أرى الجمال مشيها رويدا   اجندلا يحملن أم حديـــدا

أم صرفانا باردا شديدا   أم الرجال جثما قعـــودا

ثم أقبلت على جواريها وقالت: إن الموت إلا جر في الغرائر السود، فذهب مثلا، حتى إذا توسطت الإبـــــل من المدينة وتكاملت القى إليهم الأمارة

---

1 – كذا في الأصل ولعلها رجاء فهي التي تتفق مع السياق.

2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية

3 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية

(التي كان قد عرفهم)[1] فاخترطوا رءوس الغرائر فسقط إلى الأرض ألفا دارع بألفي باتـــر، وتبادروا بثأر القتيل غدرا، وخرجت الزبا للموضع تريد النفاق فسبقها إليه فحال بينها وبينه، فلما رأت أن قد أحيط بها وهلكت التقمت خاتما في يدها تحت فصها سم ساعة وقالت بيدي لا بيد عمرو، وقيل إنه لحقهـــا وجللها بالسيف وحط قبر جذيمة وضرب عليها فسطاطا وكتب على قبـــــــره:

ملك تمنع بالعساكر والفتى والمشرفية عزه ما يوصـــف

فسعت مبيتة إلى اعدائه وهو المتوج والحسام المرهب

فهذا يا بني كان وزيرا محبا في سلطانه ناصحا له في جميع شأنه راغبا لحقه وذممه أخذا لثأره ودمه، وكان الوزير المقطوع اليدين يروى أنه كان من الملوك المتقدمين، وكان له وزير ناصح وخديم صالح رضي بأهلاك نفسه في حياة سلطانه، وأبقى على جيشه وبلاده وأوطانه، وكيفية ذلك: أن الملك له عدو ينافسه ويعاديه ويطالبه ويشانيه وكان أكثر منه مالا وجيشا وسطوة وبطشا فتحرك العدو عليه يريد إهلاكه إذا توصل إليه، فلما اتصل الخبر بالملك الأضعف أن الملك الأقوى تحرك عليه وأن الأضعف لا يقدر عليه إذا وصل إليه تحدث مع وزيره في شأن عدوه ومخافته من سلطانه وعتوه، فقال الوزير لمكله الأضعف: أيها الملك أشر عليك برأي فيه سلامتك وسلامة جيشك وبلادك وهلاك نفسي في طاعتك، قال: وما رأي اتلاف نفسك بشديد؟ قـــال: نعم في صلاحك رشيد، قال اخبرني، قال: أيها الملك أنا وزيرك المشهور القائم بأمرك في الغيبة والحضور يعرفني هذا المدرك بالنصاحة لك والأخذ فيما يبلغك أملك وأنا أشير عليك وأن تقطـــع رواهشي وتجليني على البلاد وتخرج أهلي وولدي و تتركهم في بعض بلادك وتجري عليهم في خفية جزيل نعمتك وأن فادك حتى أقضي لك مآربك وأصد عنك طالبك؟

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

فقال له الملك: لا يهون علي هذا ولا أفعله بك ولا اسعفك في هذا بمطلبك، فأقسم عليه الملك أن لا يفعل.

ثم إن الوزير أقسم وقال إن لم تفعل بي هذا لأفعله بنفسي ففعل به الملك ما أراد من قطع يديه ونفيه من بلاده وإخراج أهله وحاشيته وأولاده، فما لبث الوزير أن لحق بالملك القاصد لسلطانه وهو قادم على أول أوطانه، فقصده قبل دخوله بالبلاد وهو في جمهور أعدائه والأحشاد، فلما قدم عليه الوزير في أسوأ حالة (وملاقاة)[1] أحواله، وقطع رواهشه وأوصاله، تأسف له تأسفا شديدا وزاده ما أصابه حنقا وتنكيدا وقال: لـــم فعل بك سلطانك هذه الفعلة ومثل بك هذه المثلة؟ فقال: أيها الملك إنه اتهمني بخدمتك وإني كنت السبب إليه في حركتك وعزمك، فقال له الملك: إذا ظفرت به لأردن عليك مالك وأحسن جميع أحوالك وأردك أكرم وزرائي علي وأقربهم مني وإلي، ولكن أيها الوزير كيف الحيلة إلى أخذ ملكك الذي عذبك ومكر بك وأنصبك ومثل بك هذه المثلة وغدر؟ قال له: أيها الملك أنا أعرف أخباره وعلى ما هو معتمد وإن أخفى عني أسراره، قال: أخبرني، قال: أيها الملك عزم على أنه إذا أخذت بلاده وشتت أجناده وقواده يفر إلى حصنه الحصين الذي أعده ويتحصن به لما فيه من العدد والعدة، والذي أشير به إليك وأتقرب به في الخدمة إليك أن تأخذ حصنه الحصين ومقر أمنه الأمين، فإذا احتويت على ما في حصنه من الذخائر والأموال وحلت بينه وبين حماية الأبطال رجعت إلى أخذ بلاده واستوليت على عدته وإعداده؛ فقال له الملك: وكيف ذلك؟ قال: تسير بجملة جيشك وإعدادك، وذلك بأن تعمل عشرين يوما لكافة أجنادك، وأنك تقطع المفاوز المعطشات والمهامه الموحشات، وأنا معك حتى تأخذ ما في حصنه، وتحول بينه وبين أمنه.

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

قال: وكان الوزير الأقطع عارفا بمسالك الصحراء والجوب في الأقطار والبراري، وكان قد رغب الملك في الأموال والذخائر والأثاث والعدد المشاهر، إلى أن أسعفه ذو المسير من الحصن الذي ذكر له، وتأتى له فيما عوله وأمله.

وأمر الملك جيشه بعمل الأزواد والتهيئ لذلك والاقتصاد، فاتخذ أهل العسكر زاد عشرين يوما من الماء والطعام، ودخلوا الصحراء والوزير يقدمهم من أمام إلى أن أوغلهم في البراري المعطشات والمهامه الموحشات التي لا يرجى للمنقطع بها حياة، إلى نفذت الأزواد وهلكت الأجناد أقبل الملك على الوزير المذكور يسئله عن الحصن المذكور وما يصل به جيشه المغدور؛ فقال له الوزير: والله لا أعلم له حصنا إلا بلده الذي هو فيه، وأنا غدرتك في موضع لا يمكن إلى رجوعك تلافيه.

قال: فقتله الملك لحينه ومات هو وجيشه بعطشه وتهوينه، فكان في هلاكه حياة سلطانه وفي قطع رواهشه بقاء أوطانه وعزة أهله وإخوانه.

وهكذا ينبغي للوزير الناصح لسلطانه أن يكون مثل هذا الوزير لجميع شأنه.

يابني وإذا لم تجد وزيرا جامعا لهذه الأوصاف التي قدمناها، وللخصال المحموده التي ذكرناها، فاختر من تكون فيه خصلتان جامعتان لتلك الخصال الثمان: الأولى أن يكون محبا فيما يصلح عليك في دنياك وأخراك، والثانية أن يكون ذا رأي سديد في شدتك ورخائك.

ثانيا: الجلساء[1]

فأما جلساؤك يابني: إنه يجب لك أن تختر لنفسك جلساء رؤساء من قومك ذوي عقول وإمرة وأذهان حاضرة، فصحاء اللسان نصحاء في السر والإعلان، يجانبون مخالطة الناس ويعظمونك إذا أظهرت لهم البسط والإيناس، فإذا اتصفوا بهذه الصفات وتميزوا بهذه الأشياء تباهت بهم الخلافة وزادتهم رفعة وإنابة.

---

1 – العنوان من وضعنا.

وينبغي لك لن تختبر أحوالهم وتمتحن أقوالهم و أفعالهم فإن مات وزير من وزرائك اخترت وزيرا منهم لسبق معرفتك لما انطوت صدوروهم عليه، وما تقدم منهم وما صدر من النصيحة عنهم، فتجعله مكانه وتشد به أزر الملك وأركانه، فمن وجدته منهم بعد الاختبار مذيعا للأسرار، غير واف بالعهد ولا مبرم للعقد، وصدرت منه نميمة أو غيبة أو ظهرت عليه زلة أو ريبة أبعدته عن مترلة الرفعة والإيناس، وجعلته كسائر الناس؛ وقد قال بعض الملوك لجلسائه جنبوني ثلاثا: لا تمدحوني فإني أعرف نفسي منكم، ولا تكذبوني فإنه لا أرى رأيا لمكذوب، ولا تغتابوا عندي أحدا فتفسدوا قلبي عليكم.

وقال ابن عباس: مجالسة العقلاء تزيد في الشرف والعقل.

يابني وينبغي لجلسائك أن يحفظوا أسرارك ولا يذيعون أخبارك فإنهم خاصتك الأصفياء، وبطانتك الخلصاء، ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالماء.

يابني جالس الفضلاء وشاور العقلاء وخذ الرأي من النصحاء واقتد بذوي التجارب النبلاء، وجانب مجالسة الجهلاء فإنه من أخذ الرأي مع من لا يفقه الحديث كمن قدم الطرف للبهائم.

ثالثا: الكتاب[1]

يابني وأما كتابك فلتتخير منهم لسرك كاتبا من وجوه بلدك، موفيا لغرضك ومقصدك، فصيح اللسان، مريد الجنان، بليغ البيان، عارفا بالآداب، سالكا طريق الصواب، بارع الخطب، حسن الضبط، عالما بالحل والربط، كاتما للأسرار، متحليا بتحلي الوقار، ذا عقل وافر، وفهم حاضر، وذهن ثاقب، وفكر صائب، حلو

---

1 – العنوان من وضعنا

الشمائل، موسوما بالفضائل، جميل الهبة واللباس والمؤالات[1] للناس، لأن الكتاب عنوان المملكة لتبين الأمور المشتبكة.

ومن كتابك يستدل على عقلك، ويعترف معرفتك وفضلك.

فهذا أقل ما يشترط في الكاتب ويكون في حقه وحقك من الواجب، فإنه إذا كان الكاتب بهذه المثابة صلــــح أن يكون أهلا للكتابة، وإن خل بهذه الشروط كان جديرا بالتأخير والسقوط لإخلاله بكتابه، وعدم إصابته، وكان ذلك وصما في حق مخدومه، ودليلا على جهله في تقديمه.

رابعا: صاحب الأشغال[2]

يا بني وأما صاحب أشغالك وضابط أعمالك فلتتخيره من وجوه بلدك الأخيار وكفات الحساب والنظار، ويكون ذا ثقة وأمانة وعفة وصيانة، وصلاح وديانة، وحزم وكفاية، وضبط ودراية، عدلا في أحواله، صادقا في أقواله، عارفا بأنواع الخراج والجبايات، ضابطا للزمام والحسابات، ويكون ذا مال ويسار وأتات[3] وعقار؛ فإذا كان على ما وصفناه من أحواله كان محافظا على بيته وديانته وماله، ويكون محبا في سلطانك، ءاخذا بالنصح في جميع شأنك؛ لأن مالك ومجالسك تحت نظره، وعلى يده التصريف فيها في ورده وصدره.

خامسا: الفقهاء[4]

يابني وأما فقهاؤك فلتختر لنفسك فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح، سالكا طريق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد، ويسدد الأمور، ويأمر

---

1 – هكذا في الأصل

2 – العنوان من وضعنا

3 – أتات: لم أجدها في المعاجم العربية، وبحثت عنها في موطن أبي حمو، تلمسان، فذكر لي زميلي الدكتور محمد رايس ،وهو من مواطني تلمسان وأستاذ في جامعتها، أن هذه الكلمة تستعمل في تلمسان في الوقت الراهن وتعني الأثاث.

4 – العنوان من وضعنا

بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتيه من الحلال وتدعه من الحرام، وما تقف عنده من الحدود الشرعية التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والأخروية، ويتخولك بالموعظة، ويذكرك أحوال الآخرة، ولينبهك من سنة الغفلة.

سادسا: القضاة[1]

يابني وأما قضاتك فيجب عليك أن تتخير قاضيا من فقهائك؛ أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمع لظلامة ظالم، ولا يغتر بالرشاء، ولا يعلق دلوه منه برشا، يساوي بين الشريف والمشروف، والقوي والضعيف، عالما بتنفيذ الأحكام، مفرقا بين الحلال والحرام، قاضيا بالعدل، آخذا بالفضل، موجزا متحرا في الفصل.

سابعا: الأعوان[2]

يابني وأما أعوانك فلتتخير لنفسك عونا تجعله مقدما على أعوانك، ومتصرفا في أمور سلطانك، يصرف شرطه بين يديك فيما لا يمكن توصلك إليه، ويتولون الانتقام ممن سخطت عليه، وينبغي أن يكون ذا دربة وشدة وكفاية ونجدة، مبادرا لامتثال الأوامر، متيقظا لما تريد منه في الباطن والظاهر، عارفا بتصرفاتك وأخلاقك في حالتي توقفك وإرهاقك؛ فربما غضبت على من لا تريد أن يدركه عقابك؛ بل يزجره تخويفك وإرهابك، فليثبت في أمره ولا يعجل عليه من فوره إلى أن تسكن من غضبك، ويكون ذلك من حسن تصرفه في قضاء إربك، ويجب عليه أن يكون مرتقبا لبابك، شديد المحبة في جنابك.

---

1 - العنوان من وضعنا

2 - العنوان من وضعنا

ثامنا: قادة الجيش[1]

يابني وأما قوادك فلتتخير قوادا من أنجاد جندك، زعماء صادقين في محبتك، وافين بعهدك، ذوي حزم وكفاية ومعرفة ودراية، لا يصلون إلى الرعية بمضرة ولا بإذاية؛ بل يسددون الثغور ويصدون العدو المحذور، ويحوطون البلاد ويمنعوها من كل باغ وعاد وساع في الفساد، فتكون بهم مطمئن الخاطر، أمناء في الباطن والظاهر لسدهم الثغور المخوفات، وكفهم الأكف العاديات، واجزائهم عنك في المعضلات بحيث إذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد قابلته بقائد من هؤلاء القواد؛ مثل ما فعل الأمين حين بعث علي بن عيسى بن ماهان قائدا على مئتي ألفا، فقابله المأمون بطاهر ابن الحسن قائد عنته في ثلاثة عشر ألفا، وقد كان كتب إليه كتابا يقول فيه: إني وجهت إليك بحيرات من سمسم لا يحصى جندي إلا من يحصي ما فيه.

قال: فكتب إليه المأمون عندي حمام يلتقط ذلك السمسم في يوم واحد. فلما دنى علي بن عيسى بن ماهان من طاهر بن الحسن قال ولد علي بن عيسى لوالده يا أبت تحرز من طاهر فإنه رجل خبيث، قال: إنما تتحرز الرجال من أقرانها وسترى طاهر إذا وقعت عينه علي كيف يأتيني مستأمنا! فلما تجمعا في أرض واحدة خرج طاهر في جملة خيل ووقف بموضع يشرف فيه على عسكر علي بن عيسى بن ماهان فرأى ما ملأ الأرض من الجيوش وهاله كثرة ذلك فالتفت إلى هرثمة وقال: هذا جمع لا قبل لنا به، فقال هرثمة: الرأي ما ترى، فقال طاهر: أما أنا فوالله لا رجعت إلى صاحبي مهزوما أبدا حتى أموت ولكنى اجعلها جاهلية وأضرب في عسكرهم ومن تابعني من أصحابي حتى أموت أو يفتح الله لي، قال هرثمة: وإنما افعل مثل فعلك، فرجعا إلى عسكرهما وانتخبا منه نحو الستمائة ثم اقتحما بهم عسكر علي بن عيسى، وجعل يشوبهم الناس حتى وصل مضرب علي ابن عيسى

---

1 – العنوان من وضعنا

بن ماهان، فخرج إليه عبد أسود لعلي بن عيسى كان من أنجد الرجال فدافع عن علي فجمع طاهر يديه على قائم سيفه وضرب به الأسود، فسمي بذي اليمنين، ثم اقتحم علي فقتله، فلما قتله وانفصل جمع علي مهزوما اتبعه هو وأصحابه نحو من ستة أيام يقتلونهم في كل موضع.

ومشا طاهر بن الحسين وهرثمة حتى نزلا على الأمين ببغداد فحاصراه، فلما ضيقا عليه الحصار كتب إليه الأمين: إلى طاهر الحمد لله الذي يرفع من يشاء بقدرته ويضع من يشاء بحكمته ، الذي يمنع ويعطي ويقبض ويبسط ، احمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله خير آل عدنان؛ أما بعد فقد رأيت من الصلاح الخروج إلى أخي من هذا السلطان، فإني أرى الملك حظا له دوني، وهو المحكم في أمري فأعطني الأمان على نفسي وأمي وولدي وحاشيتي حتى أخرج إليك على حكم أخي راضيا بجوره وعدله وانتقامه من عفوه؛ فقال طاهر: هيهات هل لا كان هذا قبل ضيق الخناق وتفرق الفساق، فلما يئس الأمين من طاهر كتب إليه: يا طاهر إنه ما قام لنا قائم قط في حق قيامه لنا أو لأحدنا إلا كان السيف جزاؤه منا فانظر لنفسك أو دع وقد علمت ما فعل أبو سلمة الخلال من أول هذا الأمر، وكان وما كان من أبي العباس له، وما كان من أبي مسلم صاحب الدعوة وعلى أي شيء انقضى أمره ع أبي جعفر والسفاح.

قال طاهر وقد كان قوم يضعفون عندي الأمين أما والله لقد قذف في قلبي نارا من الخوف لا يطفئها أمن أبدا؛ وكان يقرأ كتاب الأمين على أهل خراسان ويقول: ليس بمضعوف ولكنه مخذول.

ولما يئس الأمين من طاهر خاطب هرثمة يطلب منه الأمان فهبط فقتله طاهر بن الحسين وبعث برأسه للمأمون.

ويقال أن إرسال طاهر بن الحسين لقتال علي بن ماهان إنما كان عن رأي دوبان الحكيم الهندي؛ وكان دوبان هذا من رجال تلمسان قد وجهه ملكه هدية

إلى المأمون، وكتب إليه إني وجهت إليك بهدية ليس في الأرض أسنى منها ولا أرفع ولا أفخر ولا أنفع، فعجب المأمون من ذلك وقال لوزيره الفضل بن سهل: سل الشيخ ما عنده، فسأله فقال: ما ثم عندي أكثر من علم، قال: وأي شيء علمك ؟ قال: رأي ينفع، وتدبير يقطع، ودلالة تجمع.

فلما اجمع المأمون أن يوجه إلى علي بن ماهان إلى العراق قال له الشيخ: رأي وثيق، وأمر رفيق، وحزم مصيب، وملك قريب، وأسير ماض، فاقض ما أنت قاض؛ فقال: من نوجه من القواد؟ فقال الشيخ: الفتى الأشهر الطاهر الأطهر يسير ولا يعسر، قوي مرهوب، مقاتل غير مغلوب؛ قال: فكم نوجه معه من الخيل؟ قال أربعة ءالاف من الأسياف لا تنقص من العدد و لا تحتاج إلى مدد؛ فوجه طاهر بن الحسين فقال: في إي وقت يخرج؟ قال: مع طلوع الفجر يجتمع له الأمن ويسير إلى النصر، نصر سريع، وقتل دريع، النصر له لا عليه، ثم يرجع الأمر اليك لا إليه؛ فظهر طاهر بن الحسين على ابن ماهان واستولى على عسكره؛ فأمر المأمون لدوبان بمائة ألف فلم يقبلها وقال: أيها الملك إن ملكي لم يوجهني لا نقص مالك و سأقبل ما بقي لهذا المال أو يزيد، قال: وما هو؟ قال: كتاب يوجد بالعراق له مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس، فيه شفاء للنفس من صنوف الآداب مما ليس في كتاب، عند عاقل لبيب ولا فطن أديب، يوجد في خزائن تحت أبواب المدائن فيقاس بالذرعان في وسط الإيوان لا زيادة ولا نقصان، فاحفر المرر، وأقلع الحجر، فإذا وصلت إلى الساحة فاقلعها تجد الحاجة، ولا تلزم لغيرها فيلزمك غب[1] ضرها. فأرسل المأمون إلى إيوان كسرى فحفر في وسطه فوجد صندوقا صغيرا من زجاج أسود عليه قفل منه فحمل إلى المأمون، فقال لدوبان ألهذا بغيتك، قال نعم أيها الملك، قال خذه وانصرف، فتكلم ونفخ في القفل فانفتح فأخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط منها أوراق فعدها مائة ورقة و لم يكن في الصندوق

1 – غب: غبت الأمور أي: صارت إلى أواخرها. الخليل بن احمد، م س، ج 1، ص 342.

شيئا غيرها فأخذ الأوراق وانصرف إلى منزله؛ قال الفضل بن سهل: فجئته وسألته، فقال: هذا كتاب جاوبدان خرد تأليف كنجور وزير الملك منوشهر، فطلبت منه شيئا فدفع إلي ورقات وترجمها إلي الخضر بن علي، ثم أخبرت المأمون، فقال: احمل إلي الورقات فحملتها إليه فقرأها فقال: هذا والله الكلام لا ما نحن فيه من لين ألسنتنا وقعور إشداقنا، ولولا أن العهد حبل طرفه بيد الله وطرفه بأيدينا لأخذتها منه؛ وقد قيل: إن الحكم التي كانت في الأوراق قوله: نصحني النصحاء ووعظني الوعاظ شفقة ونصحة فلم يعظني شيء مثل شيبي، ولا نصحني شيء مثل فكري، واستضاءت بنور الشمس وضوء النهار فلم استضئ بشيء أضوء من نور قلبي، وكنت عند الأحرار والعبيد ولم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواني، وعاداني الأعداء فلم أر عدوا أعد إلي من نفسي، إذا جهلت واحترست لنفسي بنفسي من الخلق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتها أشر الأنفس لنفسها، ورأيت أنها لا يأتيها الفساد إلا من قبلها، ورحمتني المضايق فلم يرحمني مثل الخلق السوء، ووقعت في أبعد البعد وأطول الطول فلم أقع في شيء أضر علي من لساني ومشيت على الجمر، ووطئت الرمضى فلم أر نارا أحر من غضبي، وطلبني الطلاب فلم يدركني مثل إسائتي، ونظرت ما الدماء القاتل ومن أين نالني فوجدته من معصية ربي سبحانه، والتمست الراحة لنفسي فلم أجد لها شيئا أروح من ترك ما لا يعنيها، وركبت البحار باشرت الأهوال فلم أر هوى مثل الوقوف على سلطان جائر، وتوحشت في البرية فلم أر شيئا أوحش من قرين السوء، وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتها وعاشرتني فغلبني صاحب الخلق السوء، وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألذ من العافية و الأمن، وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع إلا من الإنسان السوء، وأكلت الصبر وشربت المر فلم أر شيئا أمر من الفقر، وشهدت الزحوف ولقيت الحتوف وباشرت السيوف وصارعت الأقران فلم أر قرينا اغلب من المرأة السوء، وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين، ونظرت فيما يذل العزيز ويكسر القوى ويضع الشريف فلم أر أرذل من ذي حاجة وفاقة، ورشقت بالنشاب ورجمت بالحجارة

فلم أر أنفر من كلام السوء يخرج من فم مطالب بحق، وحبست في السجن وشددت بالوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدمني مثل ما هدمني الهم والغم والحزن، واصطنعت الإخوان و انتجبت الأقدام للعدة والشدة والنائبة فلم أر شيئا أحمد من التكرم عندهم، وطلبت الغنا فلم أر أغنى من القنوع، وتصدقت بالذخائر فلم أر صدقة أنفع من ذي ضلالة إلى هدى، ورأيت في الوحدة والغربة الذلة فلم أر أذل مقاسات من جار السوء، وشيدت البنيان لأعرفه واذكر فلم أر شيئا أرفع من اصطناع المعروف، ولبست الكسا الفاخرة فلم البس مثل الصلاح، وطلبت أحسن الأشياء عند الناس فلم أجد شيئا أحسن من حسن الخلق، وسررت بعطايا الملوك وحماهم فلم أر شيئا أكثر من الخلاص منهم.

وفي رواية أخرى إن دوبان هذا وقف للمأمون مشتكيا ظلامة نائبة، وقد كان المأمون ركب إلى متنزه له ليناظر وزراءه في تدبير أمره ومحاولته على أخيه الأمين فعارضه دوبان المذكور في طريقه مستغيثا، فلما نظر المأمون إلى هرمه رق له وأمر أن يحمل على دابة ويتبع به إلى الموضع الذي قصده، وأدخل عليه بغير استيذان. ولما استقر المأمون ووزراؤه بذلك الموضع الذي قصده أدخل عليه الشيخ الفارسي فأمره بالجلوس في حاشية المجلس ثم أقبل على أصحابه فأخبرهم بما صنع أخوه الأمين من القبض على حاشيته وماله وتجهيزه علي ابن عيسى وهو يظن أن الشيخ لا يحسن اللسان العربي، وأن ما به من الهرم شاغل له عن الإصغاء إلى ماهم فيه مع ما حمله من الاضطراب، فلما رأى القوم أن المأمون لم يتحفظ من الشيخ تفاوضوا فيما جلسوا إليه وطالت مناظرتهم، إلى أن قال أحدهم: الرأي اصطناع قوم من الاعثام الذين لا يعرفون علي بن عيسى فيلقى بهم. وقال غيره: الرأي عندي أن يبادر بالإرسال إلى الأمين بطلب الصفح وبذل الانقياد لأمره فإنه يرى ذلك خطئا.

وقال غيره: الرأي أن تجمع الأهل وتلجأ إلى بعض المعاقل فتعتصم به وتنظر الفرج. وقال غيره: الرأي أن تجمع أهل النجدة فتربح عللهم ثم تقتصد بهم بعض هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار فتصدقهم القتال فلعل الله أن يظفرنا

فنصير إلى مملكته تأوينا، ويترع إلينا من هو على مثل رأينا فنتمتع ونجاهد في سبيل الله حتى يقضي الله أمره. وقال غيره: الرأي عندي أيها الأمير أن تنحاز إلى ملك الترك مستجيرا به ومستعينا على أخيك الغادر القاطع، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به؛ فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن إليها وعول على هذا الرأي ثم فكر فقال: كيف الترك! اجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا، وقال لأصحابه: قوموا عني، فنهضوا أجمعين، والتفت ورأى الشيخ الفارسي فقربه ورفق به وسأله عن أمره وما قصد له، على لسان ترجمان أقامه له، فقال الشيخ بلسان عربي: أيها الأمير إني جئت لحاجة فعرض لي دونها ما هو آكد منها وأولى بالعناية، فقال له المأمون: قل ما أحببت سالكا سبيل الأدب، فقال: أيها الأمير إني دخلت عليك وأنا غير متصف بالمحبة لك ثم ألقى الله في قلبي من المحبة للأمير ما ملأه، وإنه كان يقال: الرق ثلاثة أنواع: فأولها وأشدها استيعابا للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله سبحانه صانع الأشياء ومخترعها، والثاني رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنعم، والثالث رق الأتباع، وهو صنفان: أحدهما رق الحب وهو أقربهما إلى رق الاختراع لأن له سلطانا مبسوطا على الظاهر والباطن، والثاني رق الرعية لراعيها والعبيد لساداتها؛ وأنا أخبر الأمير أعزه الله أنه قد تضافرت له على ثلاثة قوى من الرق: رق الحب ورق الاصطناع ورق الأتباع، فإن رأى الأمير أعزه الله أن يرسل وسيلتي ويصدق أملي ويسعف طلبي فليلحقني بأهل اختصاصه، ويكرمني بمكاثرة أوليائه ونصحائه، فعل ذلك متطولا به غير محتاج إليه، وأن عبده ليرجو أن يصادف الصنيعة منه شاكرا والاختصاص منه مشفقا ناصحا. قال له المأمون: ما دينك أيها الشيخ؟ فقال: مجوسي، فأطرق المأمون مفكرا فيما تكلم، فقال الشيخ: لا يصدق الأمير عني حقارة قدري عنده فإنه يقال: لا تحقرن من الأتباع أحدا فإنك تنتفع به كائنا من كان، وهو أحد رجلين: إما شريف فتتجمل به وأما وضيع فيحمى عرضك ويصون مروءتك، وعلى أني لست أعني بحقارة

قدري عند (هما)[1] الأمير وأما أعراقي فإني برهمي من ولد البرهمي سيد ملوك فارس المتوسط بينها وبين أول الأوائل، وإنما أعني حقارة ديني وكوني في عقد ذمة وصغار جزية ، فقال له المأمون: ما نبا عنك أيها الشيخ من رغبة وإن انتقلت من ذمتنا إلى ملتنا التحقناك شعارا، فقال الشيخ: الباعث من نفسي إلى ما دعاني إليه الأمير لشديد ولكن لا أفعله في مقامي هذا، ولعلي أفعله فيما بعده، ثم قال: أيأذن لي الأمير أن أتكلم فيما فاوض وزراؤك فيه ؟ فقال له المأمون: نعم، فقال الشيخ: سمعت ما أشار وزراء الأمير وكل منهم مجتهد في الإصابة ولست أرض شيئا مما ذهبوا إليه، فقال المأمون: اطلعنا على رأيك، فقال الشيخ: إني أجد في الحكم التي ورثها أبائي عن أبائهم أنه ينبغي للعاقل أنه إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التعلم لحكم قاسم الحظوظ، ولا يضيع مع ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر، فقال المأمون: أيها الشيخ إنه كان يقال لا رأي لمكذوب وقد سمحت أنفاسنا لك بالثقة من غير امتحان، وما ذاك لاختيارنا إضاعة الحزم، ولا كنا أحببنا أن نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجه إلينا أعني علي ابن عيسى هو أملك بالبلد منا، ثم لا يمكننا مقاومته لو أردنا ذلك وهدرنا الأموال؛ فقال: أيها الأمير ينبغي أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة، وأن لا تصغي إلى من ينطق به، فإنه كان يقال: ما أكثر من كثرة البغي ولا أقوى من قواه الظلم، ولا ملك من ملكه الغضب، وها أنا أحدثك عن من إن حذوت مثاله نلت مناله، فقال له المأمون: هات فقال الشيخ: إن الخنشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك فارس وأراد إطلاقه أخذ عليه عهدا أن لا يغزوه ولا يقصده بمكروه، ووضع في أقصى تخوم الهياطلة صخرة وأخذ على فيروز عهدا أن لا يتجاوز تلك الصخرة، ولما استوثق الخنشوار من فيروز ما أخذه عليه من عهود السلامة أطلقه، فحين أطلقه رجع فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة فعزم على غزو الخنشوار، واطلع وزراءه

---

1 - يبدو أن ما بين هلالين زيادة

على ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغي، وما رده ذلك عماهم به فاذكروه العهود التي أخذها عليه الختشوار؛ فقال لهم: إني إنما حلفت أن لا أتجاوز تلك الصخرة وأنا أمر بحملها على فيل فيكون بين يدي جنودي لا يتجاوزها أحد منهم، فلما رأوا أن الهوى وقف به على حد الرضى فهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته فأمسكوا عنه، واعتقدوا أن لا يراجعوه في ذلك؛ وكان يقال: إن الهوى صدأ يعلو العقل فلا تنطبع فيه. وكان يقال: ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر، فإذا بلغ اللجاج فذلك زين السكر وسلطانه عليها، فأما سلطان العقل فطارىء مستفاد، وللعقل حاجبان وهما الشهوة والغضب فلا يزال العقل ناظرا إلى الهوى قاهرا له ما لم يحجبه غضب أو شهوة، فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفد حكمه؛ قال فجمع فيروز مرازبته وهم أربعة يتبع كل مرزبان خمسون ألف مقاتل، كان كل واحد منهم ضابطا لربع من أرباع مملكة بابل وأمدهم بالتجهيز لحرب الهياطلة ففعلوا، وصار فيروز نحو الختشوار في جيوش يظن أن لا غالب لها، وكان الختشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز، وإنما كان ظفره بفيروز أولا بمكيدة ليس هذا موضع ذكرها، وقد كان موبدار مؤيد، ومعنى هذا اللقب حافظ حفظة الدين، وهو عند الفرس كالنبي قال لفيروز حين رأى عزمه على غزو الختشوار أن لا تفعل أيها الملك فإن رب العالم يمهل الملوك على الجوار ما لم يأخذوا في هدم أركان الشريعة فلا تعرض له بسوء، فلم يلتفت فيروز إلى هذه المقالة وركب رأسه في معصية، وكان يقال: يستدل على أدبار الملك بخمسة أمور: أحدها أن يستكفي بالأحداث ومن لا خبرة له بالعواقب، والثاني أن يقصد أهل مودته، والثالث أن ينقص خراجه عن قدر مؤنة ملكه، والرابع أن يكون تقريبه وإبعاده للهوى لا للرأي، والخامس استهانته بنصائح العقلاء وأراء ذوي الحنكة.

وكان يقال: من عصا نصيحا فقد استفاد عدوا.

وكان يقال: إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكري وضعفه، فمن قوي تخيل فكره فهو في سلطان الرأي غالبا، ومن ضعف تخيل فكره فهو في سلطان الهوى غالبا.

وعلى حكم هذا القانون: فمن عدم الفكرة في الأمور التحق بالبهائم، قال الشيخ الفارسي: وإن فيروز سار قاصدا نحو الخشنوار حتى انتهى إلى الصخرة التي نصبها علما لتخوم أرضه واستحلف فيروز أن لا يجاوزها، أمر فيروز فأمر بقلعها وحملها على فيل، وأن يكون الفيل الذي يحملها بين يدي عسكر فيروز، ونهى أن يتجاوز ذلك الفيل أحد من العسكر، فما بعد عن ذلك الموضع الذي كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقات أصحابه وذكر له أن إسوارا عظيم القدر من أساورته قتل رجلا مسكينا ظلما وعدوانا، وجاء أخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيروز وتظلم من الإسوار قاتل أخيه، فأمر له فيروز بماله ليرضيه به من دم أخيه، فأبى قبول المال وقال لا يرضيني إلا دم قاتل أخي، فأمر فيروز بطرده فانطلق من فوره إلى ذلك الأسوار الذي قتل أخاه فشد عليه بخنجر في يده فلما رءاه الأسوار حرك فرسه هاربا بين يديه، وانتهى الخبر إلى فيروز فتعجب من ذلك فترل وزير من وزراء فيروز عن دابته وتقدم بين يدي دابة فيروز فسجد له، فسأله فيروز عن أمره، فذكر له أنه يريد الخلوة به في مهم (عرض له)[1]، فأمر فيروز فضرب له فسطاطا فترل به وأذن لذلك الوزير فدخل عليه وأمره بذكر ما عنده، فقال له أيها الملك السعيد ملكت الأقاليم السبعة وعمرت عمر يدي وأسف في مثل عزته وقوته، لقد ظهرت عناية أول الأوائل بك فما ضربه لك من المثل في أمر هذا الأسوار إذ كان أسوارا نجدا هرب بين يدي مسكين في يده خنجر، وما ذلك إلا لبغيه وتعديه، فقال له فيروز: إنه لم يفر منه لعجزه عنه بل لخوفه منا، ولم يكن ليفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يشفعها بمثلها. فقال الوزير: أيها الملك أرأيت إن

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

على التثبت ووكل الأمر إلى الأول الأحد وسأله أن يغضب لعهوده ومواثيقه التي لم يرع فيروز حقها، ولا خاف تبعة نكثها، وأخذ مع ذلك حظه من الحزم وسد ثغوره وجمع إليه جنده وأعد للقاء فيروز عدته، وأمهل حتى وطئ فيروز كثيرا من أرضه، وتوسط مملكته وعاث في بلاده وساء على رعيته، إثره فنهض إليه فعاجله وصدقه الجلاد فانكشف فيروز منهزما وأسلم ما كان في يده، فقتل الخشنوار رجاله وغنم أمواله، وأمعن في طلب فيروز حتى ظفر به فقتله، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه فكانت العاقبة له.

قال: فلما سمع المأمون ما ضرب له الشيخ الفارسي أقبل عليه مستبشرا وقال: قد سمعنا مقالتك وصادفت منا قبولا لها وشكرا عليها وسرورا بها فماذا ترى فيما دعوتك إليه من توحيد الله عز وجل، الذي أجزل من العقل حظك، وفتق بالمعرفة فكرك ، وانطق بالحكمة لسانك، وقطع بمحمد صلى الله عليه وسلم عذرك؟ فقال الشيخ: اشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمدا رسول الله؛ فسر المأمون بإسلامه وأجزل صلته، وقرب منزلته فألحقه بخاصة أوليائه وأصحابه وأمره بملازمة بابه، فما لبث إلا أياما قلائل حتى لحق بربه.

وعمل المأمون برأيه فأنجح عمله وبلغه من الخلافة ما أمله، فهكذا يا بني ينبغي أن يكون قوادك.

تاسعا: العمال[1]

يابني وأما عمالك فتتحر منهم العارفين بجبايات الخراج وأهل البصر بالألقاب، التي بها الاحتياج، ويكون ذوي حزم وكفاية ودربة ودراية وضبط وأمانة وفضل وديانة، لا يضيعون أعمالك المخزنية ولا يضرون في ذلك الرعية، ويحتاطون في الحالتين جريا على سبيل السوية.

---

1 - العنوان من وضعنا

يابني لا تطمئن إلى العمال وإن اظهروا لك التقشف والإقلال، وتلبسوا بالعبادة والزهادة في الحال، وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختيار العمال في جبايات الأموال؛ كما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى أن يأتيه بعماله، وكان واليا على العراق قال الربيع بن زياد الحارثي: وكنت عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين فأمر عمر رضي الله عنه بقدوم العمال عليه، وأن يستخلقوا جميعا فلما قدمت المدينة أتيت يرفى مولى عمر رضي الله عنه فقلت له يا يرفى مسترشدا وابن سبيل أخبرني في أي الهيئات يحب أمير المؤمنين أن يرى عامله فأوحى إلى الخشونة، فاتخذت مطرفين ولبست جبة صوف ولثمت عمامتي على رأسي على غير استواء، فدخلنا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصففنا بين يديه، فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيري فدعاني فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي، قال: وما تتولاه من أعمالنا؟ قلت له: البحرين، قال: وكم ترزق؟ قلت: ألفا، قال: كثير فما تصنع بها؟ قلت: أتقوت ببعضها وأجود على أقاربي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس عليك، عد إلى مكانك من الصف فرجعت إلى موضعي، وصعد فينا وصوب فلم تقع عينه إلا علي فدعاني ثانية فقال لي: كم سنك قلت خمس وأربعين، قال: الآن استحكمت أمرك.

ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث[1] بلين العيش، وقد تجوعنا، فأتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابي يعافون أكله، وجعلت آكل وأجيد وأنا انظر إليه فلحظني من بينهم، ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني صحت في الأرض ولم أقلها فقلت: يا أمير المؤمنين إن الناس يحتاجون إلى إصلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني ثم قال: كيف قلت يا أمير المؤمنين لو أمرت بقوتك من الطحين أن يخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك فيؤتى بالخبز إلينا وباللحم عريضا فسكن غضبه، ثم قال ها هنا عزت، قلت نعم، قال: يا ربيع إنا لو شئنا

1 – في النسخة الحجرية: حديثو عهد

لملئنا هذه الرحاب من سلائق وسنابك، يعني خبز الحواري، ولكن رأيت الله عز وجل عير قوم بأمر فعلوه، فقال عز من قائل: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)[1]. ثم أمر عمر رضي الله عنه أبا موسى الأشعري بإقرار لي على عملي وأن يستبدل بأصحابي.

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن الأتمية فلما جاء قال يا رسول الله هذا لكم وهذا لي فغضب النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدي له)[2]، قال مالك رحمه الله تعالى: وكان عمر رضي الله عنه يشاطر العمال ويأخذ نصف أموالهم وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال لم تكن لهم أموال قبل الولاية.

قال أبو هريرة: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي[3]: أخذت مال الله، فقلت: ما أخذت مال الله، فقال من أين اجتمعت لك عشرة ءالاف درهم؟ قلت: خيلي تناتجت وعطايا تلاحقت وتجارة تداركت، قال إذا الشطر، فلما صليت الصبح استغفرت لأمير المؤمنين، فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل لنا؟ قلت لا، قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلوات الله عليه، قلت إن يوسف كان صديقا نبيا وأنا ابن أمية أخشى أن تشتم عرضي وتظرب ظهري وتأخذ مالي.

---

1 - سورة الأحقاف، الآية 20.

2 - رواه البخاري ولفظه: (استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني أسد يقال له ابن الأتبية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر قال سفيان أيضا فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت ثلاثا).

صحيح البخاري، باب هدايا العمال.

3 - انظر حوار عمر مع أبي هريرة في: شرح كتاب السير الكبير، للسرخسي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، نسخة إلكترونية منشورة على موقع الوراق: http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 389.

ودعا عمر رضي الله عنه بالحارث بن وهب حين عزله فقال له: ما قلاص واعبد بعتها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتاجرت بها، فقال إنا والله ما بعثناكم بالتجارة في أموال المسلمين أدها، قال: أما والله ما عملت لك عملا بعد هذا أبدا، قال انتظر حتى استعملك.

قال: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمر بن العاص وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أما بعد فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وبقر وعهدي بك قبل ذلك ولا مال لك فاكتب إلي من أين أصل هذا المال؛ فكتب إليه عمرو: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو فإنه أتاني كتابك تذكر فيه فاشية ما فشي وإنك تعرفني ولا مال لي قبل ذلك، فاعلم يا أمير المؤمنين إني ببلد السعر بها رخيص وإني أعالج الحرفة والزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة وبالله الذي لا اله إلا هو لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك فأقص إليك أيها الرجل فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك إن رجعنا إليها عشنا، ولعمري إن لنا مالا تدوم معيشته ولا ندوم فأتي الآن ذلك ولم يقبح فعليك ولم يشكرك في عملك؛

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما بعد فإني والله ما أنا من أساطرك التي تسطر ونسقك الكلام في غير موضع، وما يغنيني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت لك محمد بن مسلمة فشاطره مالك فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون الأموال ثم لم يغرركم غرر تجمعون لأبنائكم وتمهدون لأنفسكم، أما إنكم لتجمعون النار وتورثون النار والسلام.

فلما قدم محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص قدم له عمر طعاما كثيرا فأبى محمد من أكله فقال عمر: تحرمون طعامنا، فقال: لو قدمت إلي طعام الضيف لأكلته ولكنك قدمت طعاما ما أراه تقدمة شر، والله لا أشرب عندك الماء، فاكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه، ففعل وشاطره في جميع ماله حتى نعليه أخذ

إحداهما وترك الأخرى؛ فغضب عمرو وقال: قبح الله زمانا عمل فيه عمرو لعبد الله إني لا أعرف الخطاب يحمل على رأسه حزمة الحطب وعلى ابنه مثلها وما منهما إلا عليه نمره لم تبلغ رسغيه وبالله ما كان العاصي بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب، فقال محمد اسكت عمر والله خير منك، وأما أبوك وأبوه في النار ولولا الزمان الذي سببته فيه لا لقيت معقل شاه يسرك غزرها ويسوئك بكيها؛ فقال عمرو هي عندك أمانة اكتمها عني.

وبعث معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو وال على الشام بمال وأدهم، وهو القيد، وكتب إلى أبيه أبي سفيان أن يدفع المال إلى عمر والأدهم فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم فذهب أبو سفيان بكتاب معاوية و الأدهم إلى عمر وجلس[1] عند نفسه، فلما قرأ عمر الكتاب قال: أين المال أبا سفيان؟ قال كان علينا دين ومؤنة ولنا في بيت المال حق فإذا أخرجت لنا شيئا فاحتسبنا به، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال، فلما رأى ذلك أبو سفيان أرسل في المال فأتى به وأمر عمر بإطلاقه من الأدهم، فلما رجع الرسول إلى معاوية قال أرأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدهم، قال له: نعم وطرح فيه أباك، قال لم ذلك ؟ قال: حبس المال وجاء بالكتاب والأدهم إلى عمر؛ فقال معاوية: أي والله والخطاب لو كان طرحه فيه.

وبلغ عمر بن الخطاب أن سعد بن أبي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال الصويت فأرسل عمر محمد بن مسلمة، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما هو بعثه فقال له: ائت سعدا فاحرق عليه بابه، فقدم الكوفة، فلما أتى الباب استخرج زنده واستورى نارا ثم أحرق الباب، فأتى سعد الخبر ووصف له بصفته فعرفه، فخرج إليه سعد فقال له محمد: إنه بلغ أمير المؤمنين أنك قلت انقطع

1 - في النسخة الحجرية: و حبس المال عند نفسه.

الصويت، فحلف سعد بالله أنه ما قاله، فقال له محمد: نفعل الذي أمرنا به ونودي عنك ما تقول؛ ثم ركب راحلته راجعا.

فلما دخل على عمر قال لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت، وذكر أنه أسرع السير فقال: قد فعلت وإن سعدا ليعتذر ويحلف بالله ما قال، فقال عمر: فهل أمر لك بشيء، فقال: قد رأيت أنك لم تأمر لي فكيف هو؟ فقال عمر: انت أرض العراق، أرض رقيقة وإن أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن أمر لك بشيء يكون لك بارده ولي الحار.

وزار أبو سفيان معاوية ابنه بالشام فلما رجع من عنده دخل على عمر بن الخطاب فقال له عمر: احزنا أبا سفيان قال ما أصبنا شيئا فنجزيك فأخذ عمر خاتمه وبعث بها إلى هند وقال للرسول قل لها يلبث عمر أن أوتي بخرفين فيهما عشرة ءالاف درهم فالقاها عمر في بيت المال فلما ولى عثمان ردهما على أبي سفيان فقال أبو سفيان ما كنت لآخذ مالا عابه على عمر وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال عمر بن سعد فلما مضت إليه السنة كتب إليه أن يقدم فلم يشعر به عمر أن قدم ماشيا عافيا عكازه بيده وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر إليه عمر قال يا عمير أخبثا أم البلاد بلاد سوء فقال يا أمير المؤمنين أما نهيت أن يجهر بالسوء ونهيت عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرها بحوافرها قال وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكؤ عليها وادفع بها عدوا إن لقيته ومزودي احمل فيها طعامي وأدواتي هذه احمل فيها شيء ماء لشربي وطهري وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها الطعام؛ فو الله يا أمير المؤمنين ما الدنيا إلا تبعا لما معي.

قال فقام عمر عن مجلسه فقال: ما صنعت في عملك يا عمير ؟ قال: أخذت الرقة من أهل الرقة والإبل من أهل الإبل وأخذت الجزية من أهل الجزية عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء وأبناء السبيل والمساكين، فو الله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي شيء أتيتك به فقال له عمر: عد إلى عملك ، قال عمير:

فقال رحمه الله و وصله ثم قال يا جارية أذهبي إلى بيت فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا، فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا و لم يبق في الخرقة إلا ديناران قد حابهما إليها، فرجع الغلام فأخبر بذلك أمير المومنين عمر؛ فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض.

ولما عزل عثمان بن عفان عمر بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبي سرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمر فقال له عثمان يا عمر أشعرت أن اللقاح درت بعدك؟ فقال: ذلك والله لأنكم أجحفتم بأولادها.

قال زياد أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لن تزالوا سمانا ما سمنوا.

وقال جعفر بن يحي: الخراج عمود المملكة وما استغزر بمثل العدل ولا استنزر بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراج البلاد الجور.

عاشرا: الجيش[1]

يابني وأما جيشك فاعلم انه يجب عليك أن تنتحب لجيشك أنجاد القواد من أنجاد الأجناد فقد قالت الحكماء أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلتقدم على جيشك أهل النجدة والبسالة والشجاعة والبسالة ممن مارس الحروب ودافع الخطوب وصارع الأبطال واقتحم الأهوال اعلم يابني أن خير الأصحاب أربعة وخير الراما أربعمائة وخير الجيوش أربعة ءالاف ولن يبلغ جيش يبلغ اثنا عشر ألفا من قلة إذا اتفقت كلمتهم وقد قالت الحكماء للكثرة الرعب وللقلة النصر يابني اعلم أن الجيش ينقسم إلى أربعة أقسام خاصتك وقبيلك وأنصارك ومماليكك.

---

1 – العنوان من وضعنا

القسم[1] الأول: الخاصة

اعلم يابني انه ينبغي لك أن تتخذ خاصة من وجوه القبائل وكرام العشائر تستخلصهم لنفسك ليعلمك كل واحد منهم محبا في جانبك ومائلا إليك ومعتمدا في أموره عليك، لأنه إذا كان محبا في جانبك قاد جميع جماعته إلى بابك، وسعوا كلهم في مرضاتك وآرائك، فليتترل كل واحد منهم في مترلته وتربته على قد ما يليق به من مرتبته.

القسم الثاني: من الجيش القبيل أعني قبيل الملك

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تكون محافظا على قبيلك، مواسيا لهم من كثيرك وقليلك، لا تحوجهم إلى غيرك، ولا تمنعهم من خيرك، وتختص منهم من يكون محبا ناصحا مخلصا صالحا، ومن تراه لاختصاصك أهلا، ولتقريبك واصطفائك محلا، وتقدم الأشياخ على الجموع فإن التابع يصلح بالمتبوع فتجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم وخيارهم، محبا في سلطانك وجماعتك، باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون القائلة من النميمة والغيبة، سالما من النقيصة والريبة، محرضا لجماعته على طاعتك، مطالعا لك بأحوالهم في كل أحيانه، ولا يقول عنهم إلا الحق، ولا يعامل سلطانه إلا بالصدق.

القسم الثالث: وهم أنصار الملك من حماته المحدقون به من جميع جهاته

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك أنصارا لا يفارقونك ليلا ولا نهارا، وهم أربعة أقسام: ميمنة، وميسرة، وتقدمة، وساقة؛ فأما الميمنة يابني فلتتخيرهم من ذوي الشدة والكفاية والنجدة والحماية، وتقدم عليهم من خاصتك الأجواد قائدا من القواد رابط الجأش صادق الناس، وأن يكون نزولهم في محلتك عن يمينك في المترلة متزينين أحسن زي وأجمله؛ وأما الميسرة يابني فلتتخذهم أيضا من حماة

---

1 - كلمة القسم من إضافتنا

الأبطال المقتحمين للأهوال، من مشاهرة الفرسان، وأسود الضراب والطعان، وأهل الجلاد والكفاح، والإقدام والنطاح، وتقدم عليهم قائدا ثابتا القلب، عارفا بمواقع الحرب، صابرا للطعن والضرب، ويكون نزولهم في محلتك عن يسارك مرتقبين إليك في إيرادك وإصدارك؛ وأما التقدمة يابني فلتتخيرهم أيضا من أصحاب الخيول السوابق، العارفين بالشدائد والمضايق، من كل أسد باسل وبطل، مقاتل صائد للمقاتل، وتقدم عليهم قائدا بصيرا بالمواضع الفرص والغرة قد مارس الحروب المرة بعد المرة، لا يحجم عن الإقدام ولا يتزحزح عند تزلزل الأقدام، ويكون نزولهم في محلتك أمامك لا يتجاوزون غرضك ومرامك ؛ وأما الساقة يابني وهم أهل دخلتك المخصوصين بموالاتك ونصرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ دخلة من الحماة الأمجاد، والأعيان الأنجاد من سراة القبائل وصناديد المواقف والمحافل، ذوي ثبوت عند نزول النوازل، وصبر عند قراع الكتائب، وأهل نجدة عند حلول المصائب؛ لأنهم القطب الذي عليه المدار، والمربد[1] الذي يرجع إليه ذوو القرار، وبهم ترد الهزائم وتدفع العظائم وتنكشف الكروب، وتدور عليهم الحروب؛ فهم يرهبون العدو بوقوفهم، ويخذلونه بثبوت صفوفهم فيكون جميعهم يقاتل أهل الميسرة والميمنة والتقدمة.

وهذا رأي من ساس الحرب وقومه أو حكمه وابرمه لأنه ربما وقع من بعضهم اختلال وعصيان وشنئان في بعض الأحيان فتقمعهم بأهل الدخلة، وتردهم بهم عن تلك الفعلة، ولتقدم عليهم قائدا من خيار خاصتك الأقربين الممارسين للحروب المجربين، ممن ظهرت نجابته وكثرت إصابته واعتورته الأمور، واشتهر في كل معترك مشهور، من ذوي الحسب اللباب والكرم في الأنساب، ويكون نزولهم في محلتك خلف منزلتك، وكذلك في ركوبك وحالتي سلمك وحروبك.

---

1 - المربد: الموضع. ابن منظور، م س، مادة بحج.

وهذه الجموع المذكورة المخصوصون من المحلة بهذه المنازل المشهورة يركبون لركوبك وينزلون لنزولك، لتبلغ بهم غاية مقصدك ومامولك، فيحدقون بك من جميع جهاتك في ليلك ونهارك وسائر أوقاتك، ويكونون مقاومين لقبيلك في الشجاعة ليلا يخرج بعضهم عن الامتثال و الطاعة فإن ظهر من بعض قبيلك تخاذل وإنكار فتقمعهم بهؤلاء الحماة والأنصـــــــــار.

القسم الرابع *من أقسام الجيش*: مماليك الملك

وهم على أربعة أقسام: الأعلاج، والنصارى، والأعزاز، والوصفان.

ويكون قدر هؤلاء الذين ذكرناهم قدر الحماة والأنصار الذين قدمناهم بحيث إذا ظهر منهم جموح لعصيانك وإخلال لجانبك فتقمعهم بهؤلاء الأصناف وتمنعهم من الخذلان والخلاف.

وليكن هؤلاء المذكورون أهل شدة وكفاية ونجدة في غاية وزينة وعدة وجرأة وشدة وحدة، وليكن سكناهم ببلد حضرتك لتجدهم لعضدك ونصرتك، لا يفارقونك طرفة عين، ولا يزالون تلقاء وجهك كل أين، وأما ترتيبهم في الركوب وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب فليكن إعزازك وأعلاجك بين يديك وركاب خيلك بإزائهم يتقدمون عليك، وكذلك النصارى و الوصفان يركبون خلفك مع أهل دخلتك الفرسان، وليتقدم على كل جماعة من هؤلاء قائدا متحفظا ناجدا، وكذلك الأعزاز والأعلاج يجرون في التقديم على هذا المنهاج.

والأعزاز تنقسم إلى أربعة أقسام: وصفان، وأتراك، والأعلاج، ومناصفون؛ وتقدم على كل جماعة منهم قائدا يقتدون به، ويكون لهم علم يمتازون بسببه.

ويستحب للملك رجالا أنجادا كفاة اطرادا مشائين بين يديك إذا ركبت، ومنصرفين حيث ما صرت، يكون لهم ترتيب في اللباس، يمتازون بذلك، يتزينون بالأقبية الحسان المختلفات الألوان، وبأيدهم الحراب عليها صغار الرايات من أنواع

الحرير مختلفات؛ لأنهم مما يزودون في بهاء الملك وجماله وضخامته وكماله، وهم مما يتزين بهم الملوك والأمراء والأشراف والكبراء.

القسم الثاني من قواعد السياسة: أن تنزل الناس في منازلهم

يابني اعلم أنه ينبغي لك أن تنزل الناس في منازلهم وترتبهم بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم، وذلك على طبقات:

الأولى: الوزراء والكتاب[1]

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن يكون أول ذلك عليك مزوارك الموصوف وعونك المعروف ليعرفك بمن ببابك من وزرائك وحجابك وأرباب دولتك وكتابك، فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك، إذ بهما صلاحك وتدبيرك ليجمع معك على الرأي والتدبير والجليل من أخبارك والحقير، فإن الوزير إذا كان على ما وصفناه وبالصفة التي ذكرناها فلا ينبغي لك أن يخفي عليك شيء[2] من أمرك بل يشاركه في حلوك ومرك وقلك وكثرك، ويجب على هذا الكاتب التي[3] تقدمت صفته ووصفت نباهته ومعرفته، أن يكون دربا[4] في قراءة الكتب وسردها متحرزا من ألفاظ شائنة أو وصمة في ضمن الكتاب ثاقبة، فإنه ربما يجب فيها ما يكون في حق الجلساء وصما وقبيحا يستحق في الوقت كتمانه فيتجاوز الكاتب ذلك اللفظ المتين ولا يبينه في الحين، ثم ينتظر به خلوة إليك فيعيد قراءته عليك، ويظهر لك ما أخفاه عن الجلساء، فيعد ذلك من جملة فطنته والذكاء، فإذا فرغ الكاتب من عرض كتبك وتلقى بالتوقع ما أردت من إربك خرج لكتابة ما أمرته به، ويجري على

---

1 – العنوان من وضعنا.

2 – هكذا في الأصل والصواب: شيئا، لأنكلمة شيء في الجملة مفعول به.

3 – هكذا في الأصل والصواب: الذي.

4 – درب دربا إذا اعتاد الشيء وأولع به.
انظر الزّبيدي، م س، مادة درب.

أحسن مذهبه وتبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة.

يابني ينبغي أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبة ووقار وتعظيم وإكبار وتفاوض في الأخبار، وأخذا في المصالح، وتدبيرا يعود بالمناجح والمنامح، لا مجلس هتار ومزاح، ولا مباسطة اطراح، فإنه إذا مازحت وزيرك اسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند وزيرك هيبتك وربما أيضا تكلم الوزير بما يستخف به عقله فتسقط رتبته عندك.

الثانية: صاحب الأشغال[1]

وبعد دخول وزيرك وكاتبك وقضاء ما أردته من مآربك يدخل صاحب أشغالك الموكل بحفظ جبايات أموالك تعرفك بما تحمل وتصير من مالك وبمحاسبة عمالك وبجميع أشغالك المختصة بدارك في إيرادك وإصدارك مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب وغير ذلك من الأثاث والأسباب، وليتلقى أيضا منك ما تأمره به جاريا، على عرضك في تقلبه مما يستأنف في يومه من الأشغال وما يليق من الأعمال.

الثالثة: صاحب الشرطة[2]

ثم يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما تزايد في ليلتك حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك، ومع ضبط مملكتك فتسأله عن القليل والكثير والجليل والحقير ليلا يتوصل أهل العناية للرعية بالمضرة والإذاية، ولا يقع من الحاكم جور في البلد ولا ظلم لأحد، وأنه إذا علم الحاكم وغيره من أهل العنايات وأهل الدعارات والجنايات فإن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده

1 – العنوان من وضعنا

2 – العنوان من وضعنا

فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم ويأمنون من الجور في صدورهم وورودهم، وفي هذا إبقاء لنظام الملك وأمان للرعية من الهلك.

يابني وينبغي لك أن تتخير صاحب الشرطة ، لأنها عند الملوك أكبر خطة فتقدم لها من يكون صاحب ديانة وعفة وصيانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأي وفراسة، ثم تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك وخلصائك وأشياخ قبيلك وأوليائك، فتشاركهم فيما ظهر من آرائك، وتأخذ معهم فيما عليهم ومالهم، وما يصلح أحوالك وأحوالهم.

الرابعة: أشياخ القبائل وقادة الجيش[1]

ثم تدعو إلى الدخول أشياخ دخلتك وأشياخ القبائل المقربين لخدمتك وقواد أجنادك المستمسكين بحرمتك.

يابني وينبغي لك أيضا أن تتخذ طعاما تجعله عادة مستمرة لتستجلب به القلوب للمسرة لا طعام ما ذكرناه من أشياخ القبائل ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك قمت إلى منزلك ودخلت إليه وانصرف الناس ما عدى الحاشية، ثم تعود إلى مجلسك ثانية ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك، وتتخذ ذلك سيرة وعادة، فيكون جلوسك معهم مجلس وقار وهيبة وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مريعين لأسرارك، يعلمون بما انطوت عليه سرائر خدامك وجميع أجنادك بتفاوضهم بما يصلح أمور دولتك ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك، ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه الحال، ويحتمله المجلس من المقال ثم تدخل إلى دارك لراحتك واستقرارك، وتنصرف الخاصة إثر ذلك، ويتربص الوزير قليلا هنالك لقضاء حوائج من لا يبلغ إليك ولا يجد من سبيلا ولا مسلكا للوقوف بين يديك، فإذا استوى

---

1 – العنوان من وضعنا

فمن كان له حق من الحقوق الشرعية رددت له أمره إلى قاض البلد ليفصل في القضية، ومن كان في غير ذلك من الأحكام التي لا يقضي فيها أحد سوى الإمام فصلته بما يقتضيه نظرك السديد ورأيك المصيب الرشيد، كما قال ابن حميداني لواقف على رأس المأمون وقد جلس للمظالم وكان آخر من تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فنظر المأمون إلى يحي بن أكثم فقال يحي وعليك السلام يا أمة الله سلي حاجتك فأنشدت:

يا خير منتصب يهدي له الرشد ... ويا إمام به قد أشرق البلـــد

تشكو إليك عميد القلب أرملة عدى ... إليها فلم يترك لها سبد

وأهرمني ضياعي بعد منعتها ظلما ... وفرق عني الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه وقال:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني ... وأقرع مني القلب والكبـــــــد

هذا أوان صلاة العصر فانصرفي أنصفك ... فيه وإلا لمجلس الأحد

والمجلس السبت أن يقضي الجلوس لنا ... واحضر الخصم في اليوم الذي أعد

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال لها: وعليك السلام أين الخصم؟ فقالت: واقف على رأسك وأومأت إلى العباس بن المأمون، فقال المأمون لأحمد بن خالد: خذ بيده واجلسه معها مجلس الخصم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين إنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك، فقال المأمون دعها يا أحمد فإن الحق انطقها والباطل أخرسه؛ ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وظلم العباس بظلمه، وأمر بالكتاب لها إلى عامل بلدها أن يدفع إليها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

يابني وينبغي لك أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس و لا تمضي فيه حكما تنفرد فيه بالنظر في محابيك وأموالك، وتتفقد أحوالك وتعرف أموالك، ومالك من الحاجات في ديار الصناعات مثل النظر في العدد الحربية التي تظفر بها القوة في الكلية، وفيما يخصك في نفسك ومالك وأهلك، وما تحتاج إليه من كثرك وقلك.

يابني وينبغي لك أن تتخذ أياما في السنة، وتلك من السير الحسنة تتفقد فيها أحوال جيشك وقوادك وأجنادك وعددك وإعدادك، فتميزهم تمييزا تعرف منه أحوالهم، وتختبر قطائعهم وأموالهم، وتضبط عددهم، فتحسن لمن يستحق الإحسان، وتمتهن من يستحق الامتهان.

وعلى هذا يكون عملك في سائر أعوامك يرجى لك سعادة أيامك ودوام سلطانـــك إن شاء اله تعالى.

القسم الثالث من قاعدة السياسة: أن يجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، وأن تسايس من كان مفرط الجهالة من الخدام، وترايضه[1] مرايضة الجموح باللجام حتى تنتفع بخيره وتأمن من شره، فتستدرجه بلطف سياستك وترده إلى وفق غرضك، وذلك من رياستك حتى يصير بعد جفوته طوع قيادتك، ولا تتلقاه بالعنف من أول وهلة، فالخير كله في التأني والمهلة، ولا خير في السرعة والعجلة، ولا تعنفه على لجاجة إذا كانت لك به حاجة.

وكن كالطبيب الماهر الذي يعرف الأعراض فيعطي الأدوية على حسب الأمراض، وكذلك إذا كانت لك قبيلة وافرة وجموح متكاثرة وأحوالها متشاجرة

---

1 – كذا في الأصل ولعلها تصحيف ، والكلمة التي تناسب السياق : تراوض، من المراوضة.

فتجري أولا على أغراضهم، ولا يسوءك ما تراه من جفوهم وإعراضهم، وعدهم ببذل مطلوبهم ليميلوا إليك بقلوبهم، فإن رجع بعضهم إلى غرضك وهواك وبقي البعض تابعا لسواك فسلط من أطاعك منهم على من عصاك، لتبلغ فيهم مرادك ومناك، وانتقم لبعضهم من بعض، وادخل بينهم الشنآن والبغض؛ وكذلك تفعل بخدامك وأجنادك وحواضر بلادك، ترتبهم ترتيبا حسنا وتوسعهم إكراما ومننا فيكون الشرفاء عندك ،رفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب، ثم الفقهاء لأنهم مصابيح الدين وهم اقتداء المسلمين، بهم تقام الشرائع وتسد الذرائع، وتعتصم بهم من الأهوال والبدع، ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء وهم أعلام الاقتداء؛ ثم أشياخ البلد والأمناء والوجوه والفضلاء والضابطين لجموعهم، الرابطين تابعهم لمتبوعهم، مثل أهل التجارات وأهل الحرف والصناعات، فتترل كل جماعة مترلتها وترتبها في طبقتها، ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم وأياديك منبسطة إليهم، فربما تدعوك الضرورة إلى الانتفاع بهم في الشدائد فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، وذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوثقك بالإحسان منهم، ولتكن معاملتك معهم بما يليق من إكرامهم وحفظهم واحترامهم، وأما العامة والدهماء فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها، وتجريهم على ما تعودوا من السير الحميدة والموالات[1] المجيدة، ثم لا تتركهم لأغراضهم الفاسدة وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة، فإن العامة مجبولة على الفساد وعلى اتباع الأهواء وقلة السداد، لأن العامة الغالب عليها الشرار والهرج والاضطرار، فإن العامة إذا قدرت أن تقول قدرت أن تصول.

وقال أرسطو اتقوا العامة فإنها إن قامت لم ترفد وإن طلبت لم تجد.

وأما الجري معهم على حسب أوقاتهم وأزمانهم وطبقاتهم فإن كل زمان رخاء وخير فتسير فيهم أحسن سير، تعدل في مغارمهم عند الغرامات وتوصي بالتحفظ

---

1 - كذا في الأصل.

عليهم الولاة، ولا زيادة ولا إحطاط، وإن كان زمان فتنة ثائرة وفساد في البلاد ومشاجرة فتشد على الرعية جهد الاستطاعة، وتظهر عليهم فضلك فتنتفع بهم في الطاعة و تدافع عنهم وإما بوجوه السياسة وتدبير الخلافة والرياسة وإما بوافر أجنادك بما تراه من قوته واستعدادك، وإن كان من قحط ومجاعة واقعة وأزل[1] فترفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام، مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام.

فإذا كنت يابني عاملا على هذا الأسلوب جبلت على محبتك كل القلوب ودعت لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد، وفي ذلك الصلاح التام لدولتك والخير العام لرعيتك.

واعلم يابني أن بالطعام قوام عالم الإنسان فلا تفرط في اختزانه في كل أوان واعتبر في ذلك بحال نبي الله يوسف الصديق على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فإنه اختزن الطعام في زمن الرخاء وأمر الناس بذلك فوجدوا ذلك في زمن الشدة والدواء وجعل ذلك سببا إلى أن ملكه مصر فعاد ملكا بعد ما كان مملوكـــا.

القسم الرابع من قاعدة السياسة: أن يكون الملك يقضانا ماهرا حازما دهقانا، ضابطا لأموره

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تكون يقضانا ماهرا حازما دهقانا، ضابطا لأمورك، عالما بصغير الأمور وكبيرها في تدبيرك، وإنما ذكرنا اليقظة لأنها رأس الحزم وعمدة العزم، وفيها بابـــــان:

---

1 – أزل: ضيق من العيش. تقول: قل نزلهم، وطال أزلهم، وأزلوا، حتى هزلوا، أي حبسوا وضيق عليهم. الزمخشري،أساس البلاغة، نسخة إلكترونية منشورة على موقع الوراق: http://www.alwarraq.com ، ج 1، ص 7.

البـــــــاب الأول: (الأمور التي لا محيد عنها للملك)[1]

اعلم يابني أن من حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته أن يعتد لنفسه بأربعة أمور لا محيد عنها لكل ملك مشهور:

الأمر الأول: اتخاذ المعقل

أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلا يكون لك في المهمات موئلا تلجأ إليه عند الشدائد وتتحصن به من العدا والمعاند.

وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا لا يرام، وركنا منيعا لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب؛ قد اشتمل على الماء والاختزان والعدد والمكان، تجعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وإثقالك، تسكن فيه أجود أجنادك وحماتك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المرتجلة، والزعماء من الرجال المحصلة الذين لا يروعهم الحمام ولا يخوفهم سل الحسام، ولا يبالون بما أبرق وأرعد، ولا بمن تجرع و أوعد، وتسكن فيه أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات، حتى لا يحتاج الحصن إلى غيرهم على قلتهم أو كثرتهم.

وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع مثل التين والزيتون وما قارب هذا الأنواع وأن تأتى أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر فنعم الحصن والثغر، وان قدرت أن يكون بحره تحت حكمك فهو أحسن لنظمك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون وأحصن وأمنع منها وأمكن، كما يروى عن حصن الأركن.

يروى أنه وصف لكسرى أنوشروان أرضا من التخوم الهندية تتاخم أرض بابل فذكرت له بحسن المنظر وطيب الهوى وكثرة الإثارة وكثرة العمائر وحصانة

---

1 – العنوان الوارد بين هلالين من إضافتنا.

المعاقل، ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم وبلادة الفهوم وشجاعة القلوب وقوة الأبدان والصبر على العسارة وملازمة الطاعة ولين المقادة، فشرهت نفس كسرى إلى ملك تلك الأرض والتكثر بأهلها.

وكان يقال التنزه أغرق الخصال في اللوم، فالحريص أبوه الذي يلده، والبغي ابنه الذي يلده، والطمع شقيقه والذل رقيقه.

وكان يقال الشدة ينتجها طبع ويهيجها[1] طمع، فلما طمح أنوشروان إلى تملك تلك الأرض سأل عن ملكها فأخبر أنه عظيم من أراكنة الهند وأنه شاب منقاد لشهواته، مقبل على لذاته، إلا أنه سالك صراطا من العدل لا يجور ومالك منهلا من البذل لا يغور، إلى رأفة برعيته قد اشرأبت قلوبهم وده وصرفت آمالهم إلى ما عنده؛ فندب له كسرى رجلا من ثقات[2] أصحابه، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، وتفقه من سياستهم، وكان ذا دهاء وفكر وصرامة ومكر؛ فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض والبحث عن ثغورها ومعاقلها، وتطلب عورتها وتفقد أخلاق ملكها وأهلها، وكتب معه كتابا إلى ذلك الأركن يدعوه إلى الدخول في طاعته ويحذره التعرض لصولته لمخالفته، فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الأركن فأكرم نزوله وبالغ في بره وتكرمته، وعمى عليه الأخبار وبالغ في بره وتكرمته وفي قبض الناس عن لقائه، فاحتجب عنه ولم يسترع الكتاب منه وندب إلى اختباره وعلم ما قصد له رجلا من دهات أصحابه فأمره بالتجسس عن أنبائه والتلطف في مداخلته ومخالفته، فانطلق ذلك الجاسوس، فاكترى حانوتا بإزاء دار الرسول وملأها فخارا وجلس فيه يبيع ذلك الفخار، وكان للرسول غلام يخف في حوائجه ويتصرف في مآربه، فجعل الجاسوس إذا رأى ذلك الغلام حشر إليه وأكرمه، وسأله عن ماله من حاجة إلى أن أنس الغلام، فكان يجلس إليه ويستعين به على

1 – في الأصل ينتجه طبع ويهيجه.

2 – كذا في الأصل والصواب الثقاة.

أمره، فلبث بذلك مدة لا يسأله عن شيء من أمر سيده، فلما تأكد أنس الغلام به قال له يوما: من تكون ومن لك في هذه الدار التي تدخلها، فقال الغلام صحبتني مدة كذا وكذا ولا تعرفني؟ فقال الجاسوس وما: علمي قال له: أنا غلام رسول كسرى وسيدي في هذه الدار، فقال الجاسوس ومن كسرى ومن رسوله؟ فقال الغلام: كسرى ملك بابل أرسل سيدي إلى ملككم، فقال الجاسوس: قد عرفت حين ذكرت لي بابل، لأنني كنت في صباي أجيرا لرجل من أهل بابل.

ثم أمسك عن الغلام أياما لا يسأله عن شيء، (وكان يقال)[1] التنقير تنفير، وقيل التنفير يرتاب الأديب، وقيل من تسرع إلى المشاركة في السر فلا لوم على من اتهمه بالإذاعة، و(من)[2] تنصح قبل أن يستنصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع ، ومن عنى بكشف ما استتر عنه فلا لوم على من اتهمه بخبث الطباع.

ثم إن الجاسوس قال للغلام يوما إذا خرج مولاك أرني إياه، فقال الغلام: إن مولاي يتصرف، قال الجاسوس: أمريض هو؟ قال الغلام: لا ولكن ملككم حصر عليه الخروج وعلى الناس الدخول، فبكى الجاسوس، فقال الغلام: ما الذي أبكاك؟ فقال له الجاسوس: أبكتني الرحمة لمولاك فيما هو فيه، لأني ابتليت بمثله؛ وذلك أني حبست مدة في دين كان علي، ومنعت امرأتي الدخول علي، فلولا أن الله من علي برجل كان محبوسا معي فكان يسليني بحديثة وأنسي لهلكت غما، فهل تحدث مولاك وتسليه؟ فقال الغلام: إني لا أعرف هذا ولا أدري خبرا أطرفه به، فقال له الجاسوس: إذا خرجت من عند مولاك فطف في المدينة وتأمل ما تراه فيها، وإذا رأيت جماعة يتحدثون فأحسن إليهم واستمع ما يفيضون فيه، فإذا رجعت إلى سيدك وخلوت به فقل رأيت اليوم كذا وكذا، وسمعت من يقول كيت وكيت، فإن هذا تسلية له وأنسا من وحشة، ويوشك إذا بلغت ذلك أن تحظر به عنده،

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ففعل الغلام مايأمره به الجاسوس، فقال له سيده: من دلك على فعل هذا؟ فقال له الغلام: أنا فطنت له ففعلته، فقال له سيده: كلا ليس هذا من قوى عقلك فاخبرني من دلك عليه، فقال الغلام دلني عليه جار لنا يبيع الفخار ما رأيت أجهل ولا أبله منه، فقال له سيده ما الذي دلك على جهله ولا أبله بل وبعله؟ فقال له الغلام: أنه صحبي أكثر من شهر وهو لا يعرف من أنا ولا من سيدي، وذكرت له الملك كسرى فإذا هو لا يعرفه، فلما سمع الرسول ذلك استراب منه وأحس أنه متجسس عليه لما رأى أنه أفرط في تجاهله عليه.

وكان يقال: من أفرط فهو كمن فرط، ومن احتفل في علوه استفل عن علوه.
وكان يقال: ما دل على الأحوال ولا أهتك قناع العقول كسامع المقول.

وكان يقال: من لم تعرفك غائبا أذناه لم تعرفك حاضرا عيناه.

قيل: فلما سمع الرسول مقالة الغلام أمره أن يأتيه به ففعل، ولما رآه الرسول حقر ما كان ظنه به من كونه جاسوسا عليه فأكرمه وقربه وتظاهر له بغباوة وجهل لا مزيد عليها، وسأله أن يواصل زيارته فلبث الجاسوس متفقدا حال الرسول في ليله ونهاره مدة متراخية، ولما ظن ذلك الجاسوس أنه قد حصل على ما أراد علمه من أمر رسول كسرى ذهب إلى الملك فأخبره أن ذلك الرسول قدم غبي لا ذكاء له ولا عنا عنده، وأكثر من أنه ذو نجدة وفراسة، فوثق الملك بقوله وتخيل الرسول بالصورة التي مثلها به الجاسوس عنده.

وكان يقال: لا يكن سمعك الأول مخبرا و لا نفسك لأول مجلس.

وكان يقال: إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالقضاء بأحدهما قبل الامتحان جور.

وكان يقال: إنما يقضى بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه، وشرح هو أن المخبر الصادق إذا لم يكن معصوما فهو عرضة للتلبيس وفرصة للتدليس وكون المخبر ثقة صدوقا إنما يعيد سلامة من التحويف فيما نقله ولا يفيد عصمة إدراكه

فبما أدركه؛ فقد ينظر الصادق العاقل إلى الشمس فيخبر بأنه أدركه سرعة سيره، وينظر في سفينة جارية إلى البر فيزعم أنه يجري، وينظر إلى أخبار الشعوذة فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويسمع كلام الببغاء المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان، فلم يدخل الخلل عن جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه.

قيل فلما وثق الأركن بمقاله جاسوسه أحضر رسول كسرى فأكرمه وخاطبه بكل قول حسن وأخذ منه الكتاب وخلع عليه وأجزل صلته ورده إلى منزله مكروما مبرورا، وأباح له التصرف وأذن لمن أراد قصده في زيارته، وتابع إتحافه وتكرمته، ولبث بذلك عاما ثم استحضره وسلم إليه جوابه كتابة وأعطاه هدية إلى كسرى؛ يقال إن منها سيف طوله خمسة أشبار ولونه كلون النحاس الأحمر يعمل في الحديد كما يعمل غيره من السيوف في الرصاص، وصحفة من الياقوت الأزرق تسع مدا من الطعام، وكأسا من الزمرد البحري يسع رطلا من الشراب، وألف درة فريدة، وقنديلا من المها فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام إذا علق في بيت فيه مصباح ليلا ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحمرة فلا يوشك في حمرتها، وطيبا كثيرا، ودروعا، ودرقا[1]، وغير ذلك.

وخص الرسول بمفاخر ذخائر، وغير ذلك، نفيسة وصرفه إلى مرسله عما ندبه، فأخبره بطيب تلك الأرض وفضل خصائصها وشرف مزاياها وحصنة ثغورها، وأنه لم يجد عورة تؤتى منه إلا عورة سكانها؛ بأن قلوبهم متهيئة لقبول الخدع، محجوبة عن النظر في العواقب، وأن هذا موجب حسن طاعتهم لما لقوا طاعة، فلو ندب إليهم رجال يحسنون نصف الدعوات إلى الدول لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن ملكهم، فإذا انصرفت طاعتهم لم يقم لملكهم بعد ذلك قائمة، لأنهم أعضاؤه الذين يصل بهم فيهم في الرخا ثمار مجتناة وفي البلاء سيوف منتضاة.

---

1 – درق: الدرقة: ترس من جلود، ويجمع على درق وأدراق ودراق. الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 390.

فنظر كسرى فيما كتب إليه به الأركن فوجده قد خاطبه بالملاطفة، واعترف بفضله وتملقه ورغب إليه في المودة والمؤاخاة، فاستشار أنوشروان وزراءه في أمره وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمته، فاختلفوا عليه، فأجمع على أن يرد هديته إليه ففعل، ثم أنه ندب لاستفساد رعيته رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول، وأمدهم بالأموال وأزاح (عللهم)[1]، وبين لهم مثالا يحذون عليه فنفذوا لما أمرهم به حتى انتهوا إلى مملكة ذلك الأركن فتفرقوا فيها وأعمل كل واحد منهم قوته فيما انتدب إليه، فلما أتى عليهم عاما واحكموا ما أرادوا من ذلك في دار مملكة الأركن وفي غيرها من مدنه وحصونه ورساتيقه[2]، وكتبوا إلى كسرى بذلك فجرى عليهم المرزبان المتولي بربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية.

وذلك أن إقليم بابل كان مصروفا إلى أربعة مرازبة لكل مرزبان منهم ربع منه، ومع كل مرزبان منهم خمسون ألف مقاتل؛ فلما شرع ذلك المرزبان في الحشد والإعداد كتب عيون الأركن في تلك الجهة إليه يخبرونه بأن المرزبان المجاور لجهة بلاده قد أخذ في حشد الأجناد وتأهب الاستعداد، فعلم الأركن أنه قاصده ونجم النفاق ببلده وتحدث الناس بقصد المرزبان إليه وأكثروا الأراجيف، فانتبه الأركن من غفلته وبحث على الأمر فوقف على حقيقته.

وكان أمر مملكته يدور على خمسة رجال أربعة منهم وزراء والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة والذي يأخذون عنه دينهم؛ فجمعهم الأركن وعرفهم ما بلغه من فساد قلوب رعيته وحشد مرزبان لقصد بلده، وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم، فجلسوا يتناظرون في ابتغاء صواب الرأي؛ فقال أحد الوزراء الأربعة: الرأي عندي أن يستصلح الملك رعيته فيملأ أيديها رغبات وقلوبها أمالا حتى يستقيم معوجها ويأنس نافرها، فإن عدونا إذا علم ذلك جبن على الإقدام

---

1 - مابين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - الرستاق معرب ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم والرزداق بالزاي والدال مثله والجمع رساتيق. الفيومي، م س، ج 3، ص 394.

علينا، وإن قدم لقيناه بكلمات مجتمعة وأيد متناصرة ؛ فقال رئيس الزمازمة إنما يصلح هذا من الرعية لو كان فسادها إنما أوجبه هضم جور وفساد سيرة، فيزال عنها سبب فسادها فتصلح، وليست رعية الملك بهذه الصفة وإنما أورد عليها الفساد لجهلها بموانع الصواب وبطرها لترادف النعم، وقد قيل أربعة إذا أفسدهم البطر[1] لم تزدهم المكرمة إلا فساد الولد والزوجة والخادم والرعية، وضربوا لذلك مثلا القوى الأربعة المرذولة إذا هاجت لتعدى حدود المصلحة وهي: الغضب إذا تعدى حد الشجاعة، وحد الأنفة من الرذائل والشهوة إذا تعدت حد راحة العقل من حد اكتساب الفضائل، والحرص إذا تعدى حد الكفاية، والكسل إذا تعدى حد راحة الجسم من حد اكتساب المصالح؛ فإن هذه القوى الأربعة إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المدارات والرفق إلا هيجانا وطغيانا، وإنما تعاني بجسم مرادها؛ فقال الملك: صدق الحكيم، ثم قال وزير أخر من الوزراء الأربعة: الرأي عندي أن نصرف بما صلح من الرعية من فسد منها حتى تستقيم وتستوثق لنا، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله[2]، ولا نحذر غشه لأننا مضطرون إلى الحرب لكون عدونا لا يرضيه، الأخذ ما بأيدينا جملة، فقال رئيس الزمازمة: هذا انفع لعدونا من جيشه وادعى إلى طاعته من دعائه، مع أنه إذا علم بخبرنا فيما بيننا وتناصفنا ذهبت هيبتنا من نفسه، وبلغ فينا أمله.

وقالت الحكماء أربعة من استقبلها بالعنف والردع في أربعة أحوال هلك بها: الملك في حال غضبه، والسيل في حال مرمته، والفيل في غلمته، والعامة في حال هيجانها ومرجها. وقالوا: إن شبه شيء يردع العامة عند تثورها وهيجها معاناة الجدري في حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة؛ فقال الملك صدق

---

1 – البطر: يقال: بطرت عيشتك، والبطر أيضا: الحيرة والدهش. وأبطره، أي أدهشه. وأبطرت فلانا إذا كلفته أكثر من طوقه.
الجوهري، م س، ج 1، ص 46.

2 – الدغل: الخيانة، قال ابن دريد: الدغل اشتباك النبات والتفافه، ويقال: مكان دغل ومدغل، أدغل الرجل يدغل إدغالا فهو مدغل، إذا فسد قلبه وخان. ابن دريد، م س، ج 1، ص 359.

الحكيم فقال وزير ثالث: الرأي عندي أن تطلب أولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية فميزه ممن سواه، ثم نرى رأينا فيه بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة أو انباهة، أو ضعف أو قوة، فنقابله بما يوجب حاله من التدبير؛ فقال رئيس الزمازمة: البحث على هذا خطر عظيم، لأنه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا، (وإذا لحق بعدونا)[1] قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا، وبذل جهده في العودة إلى وطنه وأهله وماله، وعدونا لا يقاتلنا على مثل ذلك وربما لم ينفصل عنا المريب بل يقاومنا بموضعه، ويكاشفنا ويتكاثر علينا بشكله من الرعية فتنصره، وإن لم يكن على مثل رأيه بقلة مشاكله، كما أن الكلبين لا يمنعهما تعديهما وتهارشهما من التعاون على الذيب إذا أبصراه، ولا يلتفتان إلى تحقق الذيب في الخلق الكلبي ولكنهما ينافرانه ويصطلحان في التعاون عليه نظرا إلى تخصيص توحشه وأنفته وجرأته، فكذلك العامي لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه في الخلق الإنساني بل ينظر إلى الملك من حيث خصيصي تفرده وأنفته وعلو همته فينافره لذلك ويألفه العامي الذي شاكله في الأخلاق بقلة المشاكلة؛ وقد قالت الحكماء: ثلاثة إن لاشفتهم بالامتحان في ثلاثة أحوال خسرتهم: امرأتك في حال استقلالك، وصديقك في حال اختلالك، وامرأة في حال اكتهالك، والرعية كالزوجة وإدبار الملك كالاكتهال.

وقالوا مثل ذلك: امتحان قوى معداتنا من الأمراض بالأطعمة الغليظة ، فقال الملك: صدق الحكيم ، فقال الوزير الرابع: كان أوسعهم علما وأفضلهم رأيا أما أنا فأحدث الملك حديثا أخبرني به مؤدبي وكان من آخر ما أفادني به، وقال لي: اخزن هذا الحديث في حبة قلبك ولا تتمن أن تعيش إلى اليوم الذي تحتاج فيه إليه (فيه)[2]، وإني لأحسبه هذا اليوم، فقال الملك: قل نسمع لحديثك، فقال: رئيس (الزمازمة)[3]

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.
2 – ما بين هلالين مكررة في الأصل.
3 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ما أولاه بالإصابة؟ فقال الوزراء الثلاثة: إنه لكذلك، فقال الوزير الرابع: إنما الزمازمة كأصابع الراحة في افتقار بعضها إلى بعض وقوة بعضنا ببعض، وإنما نستمد الدراري من نور الشمس، فكلنا إلى الملك نحتاج ، وبه نقتد، فقال الملك: قل يا أيها الوزير الصالح فالقبول والكرامة لك ولن نتب عنه فأنتم في مناصحتنا والغنا عنا والأداء إلينا كالحواس الخمس للقلب، فسجدوا له أجمعون، ثم قال ذلك الوزير الرابع: زعم مؤدبي أن رجلا موسرا من التجار كان يأوي من داره إلى بيت ميطن السقف وفيما بين السقف وبطانته فئران كثيرة فكن فيما شئن وادعين من الأمنة وتيسر الطعمة يخرجن النهار كله على حال طمأنينة فإذا جاء الليل نزلن من السقف فتفرخن من مخازن التاجر ومساكن عياله فأكلن واحتملن فكثر أداؤهن على التاجر، وأنه يدخل يوما مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكرا في بعض أموره وجعلت الفئران تموج على بطانة السقف والتراب يتساقط من خلل الألواح فضجر التاجر ونهض مبادرا فأمر بتحويل ما في البيت من الأثاث ثم أمر عبيده فوضعوا بطانة السقف، وانتشر الفئران في الدار فقتلن شر قتلة و لم ينج منهن إلا جرذ وفارة كانا غائبين عن السقف، فلما رجعا وأبصرا فساد وطنهما ومصارع الفئران في جميع الدار أغمهما ذلك، وأقبل الجرذ على الفأرة فقال لها: صدق القائل من صحب الدنيا واثقا بها كان كالقائم في الظل الذي يكون فيه قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلكها الأعلى فيتقلص الظل بتصويب الشمس فيوقظه حرها ولا يجد للظل عينا ولا أثرا، فقالت الفأرة: صدقت فماذا ترى؟

قال الجرذ: أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا المنال وأغر من الأنس جهدي، فإن سخطهم شديد وحيلهم أقوى من قوة غيرهم من العالم، فقالت الفأرة: وأنا معك؛ فانطلقا حتى أتيا أرضا فرعا[1] جرداء ذات أخلاط من الوحش تكتنف واديا معشبا فيه غرر وماء ذات ضفادع وسلاحف فأعجبهما وسارا في

1 - فالمخطوطة كتبت كلمت بوازا بدل فرعا.

الوادي يلتمسان موضعا يحتفران فيه جحرا وانتهيا إلى ربوة عالية في وسط ذلك الوادي قد انجاب عنها سيل الماء فيه يمينا وشمالا فاحتفرا في أصل تلك الربوة، فرأيا في أعلاها يربوعا قد علت سنه على باب جحر له، فرحب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما، فأخبراه إلى أن ذكرا أنهما قد أوطنا جحرا في أصل تلك الربوة، فقال لهما اليربوع لولا أن النصح كثيرا ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما، فقالا له: ما أحوجنا إلى نصحك، فقال: أربعة لا يقدم عليها حتى يسئل عنها الخبير بها: السوق لا تقدم حتى تسئل عليها النافذ والكاسد فيها، والمرأة لا تقدم على خطبتها حتى تسئل عن منصبها وخلعها، والطريق لا تسلكها حتى تسئل عن أمنها وخوفها، والبلدة لا توطنها حتى تسئل عن مرافقها وسيرة سلطانها وأخلاق أهلها وقوة من يكيد أهلها ويعاديه.

وكان يقال: انظر إلى المنتصح فإن أتاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فاعلم أنه شرير، وإن أتاك بما ينفعك فاعلم أنه طامع، وإن أتاك بما ينفعك ولا يضرك فأصغ إليه وعول عليه. وكان يقال: إذا لم تعن ناصحك كان ناصحا كمن يريد تقويم كل عود قد نصب معوجا قبل أن يقوم العود في منصبه؛وكان يقال: أشد ما في عالم الأخلاق التعاطي، لأن التعاطي يريد المتخلق به شرا ويعرضه في مواسم الحرى[1]؛ وهذا كالضعيف يتعاطى القوة، وكالجاهل يتعاطى العلم، وكالفقير يتعاطى الغنى.

وكان يقال إذا احتجت إلى المشاورة في أمر ما فشاور أولي الحنكة والتجربة من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجا عن عالم خصائصك؛ واعلم أنه جمعتنا وإياكما مناسبة مناعية وهي حفر الحجارة إلا أني في علمها أرسخ منكما فانتقلا عن جحركما فإنه بئس الجحر من شر الأوطان وأنا أبر بنجدة هذه الأرض، وقد قيل: قتل أرضا خابرها، فتحولا عن ذلك الجحر واطلبا سواه، فخرجا من عند

---

1 – الحرى: فعلى من الحر وهي تأنيث حران وهما للمبالغة يريد أنها لشدة حرها قد عطشت ويبست من العطش. الزبيدي،م س، ج 1، ص 2629.

اليربوع يهزأن به ويسخران وينسبانه إلى الهرم والخوف ورجعا إلى جحرهما، فلبثا مدة طويلة وولدا فيه أولادا ثم إن الجرذ خرج يوما من الأيام فأوغل في تلك الأرض لبعض شأنه ثم عاد قاصدا إلى الربوة فإذا السيل قد جرى في تلك الوادي ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك ألفه وولده وذهاب ما أعد من طعمته، فرأى اليربوع قائما على الربوة ءامنا، فناداه اليربوع أيها: الجرذ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم ومعصية الخبير الناصح؟ فقال الجرذ: وجدتهما مرة، فقال اليربوع للجرذ: هون عليك واخفض من حسرتك فإن النعمة في بقاء نفسك تربى على المعصية بأهلك و ولدك، فأنس النعمة بالشكر تألفك فتسمع بها؛ وأنه كان يقال: اظهر الشكر لثلاثة: للصديق والغريم والنعمة؛ وكان يقال إذا أحسن إليك محسن ثم ينكر لك وأصابك بمساءة فلا تنقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به، فإن ذلك أوجه شفيع لك عنده؛ وكان يقال: (الحر لا تذهله)[1] إساءة من كان أحسن إليه عن شكر إحسانه السالف عنده؛ قال اليربوع: ما كان أشقاني أيها الحكيم بمعصيتك والبر عنك؟ قيل: ينبغي للعاقل أن يصحب العلماء المهذبين بالحكمة والأدب؛ ولو كنت ذا بصيرة لعلمت أنك أيها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة الكرد وهبوطها على ضعف بدنك وكبر سنك إلا لأمر اقتضته الحكمة وأوجبه الرأي المصيب، ثم إن الجرذ أمهل حتى ذهب السيل فصعد الربوة واتخذ جحرا إلى جانب اليربوع فأوطنه ءامنا قرين العين؛ فهذا ما أخبرني به مؤدبي. فقال الملك: صدقت أيها الوزير الناصح قائلا، وسددت ناصحا، وأصبت مشيرا، وتلطفت مبلغا، ودعوت سيفا فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا، نلزم نفسنا الصبر على صعودها، ونقصر على ما فيها على مألوف ملاذها وانبساطها في هذا العالم الخبيث إليها، فلعلنا أن نحتي السلامة التي اجتناها اليربوع من سهل هذه الفتن، فقال اليربوع بل الوزير: أيها السعيد المبدي بالنفوس الزكية عشت ما بدا لك أن تعيش ونلت ما املت فما أعجب قبول لما تهديه إليك من نعمك وتحلوه عليك من

1 - ما بين هلالين نقلناه من النسخة الحجرية لعدم وضوح العبارة في الأصل.

حلمك، وإني لا أعرف في ناحية من الأرض معقلا تطل فيه على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب، يحال دونه الأبصار اللامحة، والأفكار الطامحة، وهو مع ذلك ذو هواء عليل، وماء سلسبيل، وحدائق باسقات، ومرافق متناسبة، كان بعض سلف الملك السعيد عنا[1] به بعض العناية، فقطع عليه أمله الدثور المحتم القاطع عقود الحياة؛ قال: فلما سمع الملك ما دله عليه وزيره ملكه سرورا، وركب من فوره في خاصته وثقاته حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذي دله عليه وزيره فوجده في رأي العين أفضل مما صوره الوزير في نفسه ووجده رسوما واثقة وآثارا أثرها بعض من تقدم من آبائه، فحشد إليه المهندسين والبنائين والعمال وأمرهم بالجد في إكماله، وبادر من فوره فنقل إليه خواص بيوت أمواله وخزائن سلاحه ونفائس ذخائره، وحشد رعيته يحملون الأرز إليه فأودعه من الأرز المقشور وغير المقشور ما ظن أن فيه كفاية؛ وذلك أن الأرز الذي لم يقشر طويل البقاء واعد لنزوله عدة، ومع ذلك يسد الثغور ويجند الأجناد ويشيد الحصون، فلما مضت له ثلاثة أشهر من يوم كتب له جواسيسه بحركة المرزبان (وحشده اقتحم المرزبان ثغوره في الجيوش المتوافرة والعدد الكاملة وظفر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسده من الرعية فغلبوا على ما يليهم من البلاد واستعمل المرزبان)[2] عليها عمالا من ثقات أصحابه ورتب فيها حمايات من جنوده ومن أهلها، ثم دنا يطوي الأرض فوافقه جيوش الأركن فدافعه بعد الدفاع ثم انهزم من كان في نفسه دغل، فانهزم المناصحون بانهزامهم.

استولى المرزبان على عسكرهم واستبقى النفوس وأخذ الأموال ثم تجاوزهم يطوي المملكة طيا.

---

1 - كذا في الأصل وفي النسخة الحجرية: عني؛ وهي أصوب.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

وكان الأركن عندما افتتح المرزبان ثغوره قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل وجمع وجوه قاطني حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة، وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسن منهم، فتنصلوا مما اعترفوا به عنده، وحلفوا على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم ، فقال لهم الملك: إني لم أجمعكم لهذا ولست بناكل عن وعدي ولا بمستعد لأظفر به، والنصر عليه، ولا بمعين تهمة أحد منكم غير أني أخبرني بعض وزرائي عن ملك من سلف أنه شرع في بناء معقل وعنى به بعض العناية فحال بينه وبين إتمام ما أراد من ذلك الأجل المحتوم على عالم التركيب فحملني على تكملة ما شرع فيه جدي – قول الحكيم إن أبر الملوك من تم به سعي سلفه وأعقهم من انقطع سعيهم عنده – ثم إني أحببت أن أجعل ذلك الحصن من عدديه وذخائري، لقول الحكماء: إن أحزم الدعاة من أراد لجميع قضايا العقل أحكاما، وقولهم: يجب على الملك أن لا يخلو عن خمسة معاقل يتحصن بها،أحدها: فرس سابق يتحصن بظهره، والثاني: سيف قاطع يتحصن بحده إذا غشي، والثالث: وزير صالح يتحصن برأيه، والرابع: امرأة حسناء يحصن بها فرجه، والخامس: قلعة منيعة يتحصن بظهر لها إذا احيط به؛ فاتخذت هذا المعقل لأكمل به حصوني، ونقلت إليه ذخائري، وما يكرم علي، فمن رأى منكم أن يقتد بي في فعلي أخذ بالحزم فليفعل.

ولما فرغ من مخاطبتهم إذن لهم فخرجوا من عنده فاقتدى به منهم من كان ذا عقل (وخبرة وتجربة بالأمور فجهزوا إلى)[1] ذلك المعقل أهلهم وأموالهم واقرابهم، وأما المرزبان فإنه سار في تلك المملكة يطويها طي البخل ألا يقاومه جيش إلا هزمه حتى أشرف على حضرة الأركن فنزل على فرسخ منها وتهيب للإقدام عليهما، وقد كان الأركن أمر الناس بالخروج إليه، فخرجت أمة عظيمة وخرج الأركن (في)[2] أربعة ءالاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقات أصحابه، فقام بهم في معزل عن

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعبأ فيوله ورتب صفوفه وكان في (المدينة)[1] داعيان من دعات[2] كسرى فاغتنما الفرصة واهتبلاها عند خروج الملك عن المدينة فظهرا واتبعهما من كان أطاعهما فوثبوا بخليفة الملك على المدينة فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها.

وبينما الملك قائما بجنوده في ظاهر المدينة أتاه رئيس الزمازمة حافيا حاسرا فلطم وجهه ونتف شعره، فأمر الملك بحمله معه على فيل واستخبره فأخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته، فانحاز الملك بخاصته ومن كان على بصيرة في طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن.

وانتهى خبره إلى المرزبان فجرد خيلا لأتباعه فأدركوه فوقف بإزائهم من كفى أمرهم وسار حتى دخل حصنه، وأما المرزبان فقصد[3] المدينة ودخلها وضبطها وأحكم أمرها، ثم سار في جيوش إلى ذلك الحصن فرءا منظرا عظيما ومعقلا ممنوعا مانعا ولم يمكنه النزول بالقرب منه، فنكص إلى حيث أمر ونزل في جيوشه متحفظا، وكتب إلى الملك الهندي كتابا يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال، ويعرض عليه خصالا منها: أن يرده إلى مملكته مكرما موفورا على أن يدين بطاعة كسرى ويدخل في دينه، فلما انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندي حجبه ولم يأخذ كتابه، وأمره بالعود إلى مرسله، فيئس المرزبان منه؛ وكان يقال: صفرك البصر إلى عدوك إضاعة و إصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة.

وكان يقال: إذا أمكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق في بحره، والحصون في وهن سحره.

وكان يقال عجبا لمن يصغي إلى عدوه سمعا وهو لا يرجو عنده نفعا.

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 – كذا في الأصل والصواب: دعاة.

3 – أضفت حرف الفاء إلى كلمة " قصد"، لمناسبته السياق.

وكان يقال إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيده أعجز؛ ثم المرزبان عاد إلى المدينة وكتب إلى كسرى بالفتح وبما تهيأ له وعليه من الأمور؛ فكتب إليه كسرى يأمره أن يقيم بتلك البلاد أي المملكة ويترك التعرض لذلك الأركن في حصنه إلا أن يبدو[1] له منه فسادا وأن يركن العيون عليه، ويقيم المصالح في جهات حصنه؛ ففعل المرزبان ما أمره به كسرى، ولبث بذلك مدة، وجعل (أعتام)[2] الفرس يعبثون في تلك المملكة ويعاملون أهلها بالغضاضة والقسوة التي طبع أهل الهند على ضدها؛ فربت الشحناء في النفوس ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة لما رأوا أن خراج أرضهم يحمل إلى غيرها، وينفق في غير أهلها، وعرفوا فضل ما كانوا فيه مشقة ما صاروا إليه، فبسطوا ألسنتهم؛ وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول فيستوحشوا منه، فكف عنهم؛ فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة؛ وكان يقال أيدي الرعية يبع لألسنتهم فإذا قدرت إلى أن تقول قدرت على أن تصول. وكان يقال ترك تكثير الصغائر مدعات إلى الكبائر فأول نشوز المرأة كلمة سر بحياتها، وأول حرز الدابة جبدة سوعدت عليها.

قيل وأما الأركن فإنه لما استقر في حصنه شاور وزراءه فأشاروا بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وتأميل السيل، وإجارة المستجير، وتأليف المتوحش، والأخذ بالفضل والعفو؛ فاتخذ هذه الخلال شرعا يدين به فازدادت سمعته حسنا، والقلوب إليه ميلا، والألسنة له شكرا.

واتفق أن عاملا للمرزبان على ثغر من تلك الثغور أساء السيرة فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمله فوعظه ونصحه، فكره العامل ذلك وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلا من أهل عمله يعارض أمره ويؤلف العامة عليه؛ فكتب إليه المرزبان أن يحمل إليه مقيدا، فأخذ العامل الرجل فقيده وبعث به إلى المرزبان مع رجال،

---

1 - في الأصل يبدأ، وأظنه تصحيفا.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية، في الأصل اعنا، وهذه الكلمة غير واضحة.

فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر و فتاكهم فقتلوا أولئك الموكلين بذلك الرجل وأطلقوه، فأتى الرجل إلى العامل فأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عجز عن دفعهم، فأمر به العامل فضربت عنقه، وكان ذلك الرجل ذا منزلة عند أهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله، وضبطوا ثغرهم، وانطوى إليهم من كان على مثل رأيهم ومن كان في غير حصن، وكاتبوا من يليهم فأجابوهم إلى مثل ما صنعوا وطردوا عمالهم ، فانتهت الطاعة لكسرى في مواضع كثيرة من تلك المملكة في أسرع مدة.

ولما انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنوده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد، وكتب إلى كسرى يستمده، وكان أهل حضرته عندما خرج عنهم رئيس الزمازمة وتوجه مع ملكهم إلى حصنه، قدموا مكانه خليفة، وكان مرضيا عندهم، فلما رأى ما هو فيه المرزبان من الذعر والتوقي، وقصده من خلفه بالمحنة والعقوبة، دخل عليه على المرزبان فقال له: إني أريد أن أسألك عن أمر ظننت علمه عندك ، فقال له المرزبان: قل، فقال له: بلغني أن مما أوصى به ازدشير من بابكم ملك بابل أنه قال قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية، وأنه قال في وصية: ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه ربه أن يحفظ تلك الصورة والشريطة التي تسلم عليه تلك المملكة، وأنه استخرج من يده مثل ما صارت إليه، وقيل لي: إن هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه بأزياء سريره وموضع قضائه، ففهم المرزبان ما أراد إلا أنه أحب الوقوف على حد ما عنده، فقال له الوزير: الأمر على ما بلغك أيها الشيخ، فقال رئيس الزمازمة: إن كان الأمر على ما بلغني فما لك لم تستعمل الحكمة التي علمت وعنفت في سياستك الرعية عنفا أخرجها، ولعله أن يخرجها ولم تحذر خروج هذه المملكة من يديك بمثل ما صارت إليك.

فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وتهدده، وكان شيخا ضعيفا البدن كبير السن فسقط إلى الأرض مغشيا عليه، وحمل إلى منزله فمات بعد أيام، فعظمت المصيبة بموته وساءت المقالة، وتشمخت الأنفس من الشقاق بما كانت

منقبضة عنه، وفشا ذلك في الرعية فشوا تاما فاستحضر المرزبان وجوه من بحضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبهم في العافية، فأرضوه بألسنتهم وتسللوا عليه، وغلظ أمر الأطراف المنتفضة وشغل عنهم المرزبان بتحصين البيضة، فبعثوا رسلا إلى الأركن الذي كان ملكهم يسئلونه الصفح عنهم، وأن يبعث إليهم رجلا يتخيرون إليه فأعطاهم أمانا عاما واستعمل عليهم عاملا فألقوا إليه المقاليد واستبصروا في طاعته ونصحوا في الذب عنه، واضطر المرزبان إلى أن بعث إلى جيش فبعث فعادوا منهزمين مفلولين، و لم يجد بدا من الخروج إليهم بنفسه فحضر دار الملك واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها، وخرج منهما متوجها إلى عدوه، فلما فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه فاستوعبوهم قتلا وتشريدا وأحرزوا مدينتهم.

وبلغ ذلك المرزبان فاستمر لوجهه خارجا عن تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدا مفلولا.

وعاد الأركن إلى دار مملكته فجرى على سنن العدل والأخذ بالحزم وقمع شهواته واستعمل الحكمة التي أفادته التجارب إياها.

فاتخذ يابني مثل هذا المعقل حصناتنل به أمنية وأمنا كما قال الأركن حين أوى إلى حصنه وركـــــــــــن.

الأمر الثاني: الجواد

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تختار جوادا من خيار الخيل وعناقها وكارمها وسابقها، كامل الخلقة ،معتدر الحركة والمشية، لا يكل من السير، ولا يسئم من الجري، كالطير إذا غار وإذا سار، لا يعارض في التسيار وإذا جرى لا يسبق، وإذا طرد لحق، أسبق من السهم، وأسرع من الوهم ، تعده للمهمات وتدخره للشدائد والملمات.

الأمر الثالث: (توفير الذخائر)[1]

اعلم يابني أنه ينبغي لك ألا تفارق ذخيرة من الذخائر تجدها في زمن المناكر، والمناكر مما على ثمنها وخف حملها كاليواقيت والجواهر الثمينة العظيمة التي لها نفاسة وخطر وقيمة لأنه ربما اعتراك(أمر من أمور دنياك فتجد تلك الذخيرة تدافع بها ما أهمك واعتراك)[2] وتصادم بها أعدائك وتقيم بها أودك وتصلح بها أمر كلك فإن اقتناء الذخائر معونة على الشدائد والضرائر.

الأمر الرابع: (اتخاذ وزير متوفر على المواصفات المطلوبة)[3]

يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ وزيرا على ما وصفناه محتو على ما قررناه، تجده (معينا)[4] في الشدة، أنيسا في الوحدة، يقصد في مرضاتك المهالك، ويسلك بك أحسن المسالك، لأنه قد تمرن بالأسفار، وجرب الأمور بالاختبار، وعرف مخادع الطرق ونواحيها، وسار في أقاصيها، وأنت غير عارف بالطرق وتشعبها ومخادعها و خبياتها، فلهذا يجب لك اتخاذ الوزير الصالح المشير الناصح.

الباب الثاني: (اقسام أعداء الملك)[5]

اعلم يابني أن العدو بالنسبة إلى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك، وعدو أضعف منك، وعدو مساو لك.

القسم الأول: أن يكون العدو أقوى منك

اعلم يابني أنه إذا كان عدوك أقوى منك فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات، وتستميل قلبه بالمراسلات، وتسايسه برأيك ومالك، وتصانعه في جميع

---

1 - ما بين هلالين من إضافتنا.
2 - ما بين هلالين من من النسخة الحجرية.
3 - ما بين هلالين من إضافتنا.
4 - ما بين هلالين من من النسخة الحجرية.
5 - ما بين هلالين من إضافتنا.

أحوالك، ولا يجب عليك أن تدافعه بنفسك؛ لأنه ليس من دها بك إلا من كيسك.

فمن رأيك الذي يندفع به عدوك ويرجع به سموك أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهرا؛ فكلما رام هذا العدو خداعا وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره؛ فتأخذ في قوام مدافعته إما بحيلتك أو بمصانعتك،وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك، وذلك بأن تكتب كتابا إلى عدوك ووزرائه وخاصته وأهل رأيه تعدهم بإحصاء الأموال والزيادات الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطف والسياسة والتلطف، حتى تخدعهم بمالك وتستميل قلوبهم بنوالك، فإن صحت معاملتك بإعطاء الأموال ونلت بغيتك في كل الأحوال سكنت عدوك من علوه وحططته من سموه، وإذا لم تقدر على دفع عدوك بما ذكرناه ولا تجد في خاصته من يقبل مأثورة بل يرده ويأباه فتتحيل بوجوه الحيل لتنال من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات لا بالأعطار ولا بالمصانعات، فرب حيلة أنفع من قبيلة ومنها أن تزور كتبا تعدها أجوبة، وتزخرفها بزخاريف معجبة، وتبدع في تزويرها وتحسن في تصويرها كأنها وردنا عليك من خاصة عدوك، تظهر بها غاية سلوكك فتقرا[1] حامل خاصتك الأقربين وتعلمهم أن خاصة عدوك في جانبك محبين، وأن خواص العدو قد كتبوا إليك بما يعود بالمنفعة عليك فيشيع ذلك بين خواصك الأخيار، ويناولها أهل الحضرة الحظار، وفي هذا مكرة عجيبة وحكمة بديعة غريبة وذلك أنه إذا سمعه غير المحب في جانبك تغير في نفسه وأشرف في حسه، فإما أن يحمله البغض على أن يكتب للعدو ويعرفه بما عليه خاصته من البغي والعتو والفساد بين العدو، والخاصة إذا طلع على هذا الكتاب

---

1 - هكذا في الأصل، والصواب: تقرئ.

المصفى لافته، وإما أن يخاف المبغض على نفسه فلا يكتب إلى الأعداء فيقطع عنك أمر هذا الداء، وفي هذا مصلحة في كلا الوجهين، وقطع المادة من الجهتين.

فإذا قرأت هذه الكتب المزورة على خاصتك بما أردت ودبرت من مصلحتك أمرت بالجواب عليها بما يناسبها وينضاف إليها منها أن تضمن لهم ما طلبوا في كتبهم وتعين لهم ما عينوه من مطلبهم، ويضبطها كاتبك بأمارات كأنها حق عند السامع، وصدق تفرح المسامع، وتبعث هذه الكتب صحبة من يبلغها إلى العدو.

وكيفية ذلك أن يكون يابني قريب من دخلتك تستخله لنفسك برسم أسرارك وخدمتك تجعله يكتب للعدو ويريه الخدمة والنصيحة له ليبلغه ذلك العدو أمله، ويأخذ معه على ذلك المواثيق والعهود ويبقى على حالهما المعهودان[1] لا يطلع أحد على سره، ويكتم عليه سريرة أمره، فإذا فعل ذلك فلابد للعدو في أوقات معلومة وحركة محزومة، حتى يأنس للعدو لذلك ويرى أنه سلك في خدمته أحسن المسالك، ويكون هذا القريب منك يكتب للعدو بأمور لا تضربك، فإذا استمر الأمر بينهما على هذا الحال واتصلت بينهما الأرسال فتكون أنت تطلع من هذا على أسرار العدو، ومن قبل الكتب الواصلة إلى القريب بما يحدث عند العدو من أمر غريب، ويكون أيضا حامل الكتاب وهو السفير يطلعك على أحوال العدو القليل منها والكثير، حتى إنك تشاهد حالـــــه عيانا، ويخبرك مشافهة وامتحانا؛ فحينئذ تعطي الكتب التي زورتها جوابات لمن يوصلها إلى خاصة العدو وبما سطرت فيه من الأمارات، ثم تأمر ذلك القريب أن يكتب كتابا للعدو يعرفه بأنك قد كتبت لخاصته كما استمر معك على عادته، ويصف له صفة رجالك المصروفين بكتبك المعدودين لأربك، وتقدم بهذا الكتاب إلى العدو رجلا وتأمره أن يصل قبل حامل الكتب المزورة، فلا يمكن للعدو حينئذ إلا البحث عنهم ليتمكن منهم فيجلس لهم في الأبواب فيأخذهم في كل، فتكون الكتب المزورة سببا في وقع

---

1 – هكذا في الأصل، والصواب: المعهودين.

الشتات بين العدو وخاصته الثقات، فإنه لابد أن يتخيل العدو بسببها ويجد في نفسه شيئا يحمله على طلبها، فيأخذ العدو على خاصته الحنو ويزيد في الأكتاب والرمي فيعلمهم بما صدر من أحوالهم وما اثره من قبيح أفعالهم فتدعوهم الضرورة إلى الإيمان الشحناء بين الخاصة والسلطان فيكون العدو حذرا من خداعهم فتدعوهم بل والخاصة غير ءامنين لسوء اصطناعهم إن لم يعجل بعقوبتهم في الحال، وإن عجل بعقوبتهم بلغت فيهم الآمال.

وهذه مكيدة مردها[1] للعدو بالفساد وقاضية عليه بالشتات والنكاد.

وبذلك يابني احتلنا على موسى بن إبراهيم اليرنياني حين أراد أبو سالم أن يستوزره وقربه كما كان عند أبيه ويكبره، وقد كان من وزراء أبيه المعتبرين، وممن يسوس هو وأبوه دولة بني مرين، وكان من أهل الدهاء مشتهر بالحيل والآراء، ولم يبق من وزراء أبي الحسن دهي منه في أمر ولا اكتفى منه في مكر، فاتفق أن يرسل أبو سالم إرسالا برسم المكيدة إلينا والخديعة علينا فرددنا مكيدتهم عليهم، وقلبنا خديعتهم إليهم، وكيفية ذلك: ان استعملنا عليهم كتبا مزورة على لسان الأمير عبد الحليم بن أخي الحسن وسلكنا فيها كل مسلك حسن مضمنها: أن موسى بن إبراهيم المذكور ممن دان بطاعته وانخرط في سلك جماعته، وأنه تحدث في علي أبي سالم والاحتيال عليه، وأنه تحالف مع عبد الحق بل الحليم وركن إليه، واستعملنا إرسالا أشعنا أنهم تومر عند عبد الحليم، وهي التي زورناها واستعملناها أعني الخبار بها، ودبرناها فعرفنا بذلك إرسال أبي سالم الذين كانوا عندنا وأحضرناهم في خفية حتى سمعوا نص الكتب المزورة فعادت قلوهم بهذا السبب متغيرة، وأشعنا الخبر بذلك وسلكنا في ذلك أحسن المسالك، فلما انفصلوا ووصلوا إلى مرسلهم أبي سالم أعلموه بما سمعوه وما من نص الكتاب علموه، فلما سمع أبو سالم ما ذكر له أرساله فسد معه لهذا الخبر حامله، وتسبب في أخذ موسى بن إبراهيم المذكور،

---

1 - في الأصل: مردنه.

وانقبض عليه فأخذه بعد أن تسبب إليه فنكل به وحبسه ووبخه ونكسه، ففر ولده محمد السبع بن موسى إلى عبد الحليم لما قبض على والده، وتشتت شمل جمعهم بما تحب النفس وتشتهيه، ومازال السبع يكتب إلينا رغبة في خدمتنا ويتعرف أنه متمسك بحبل ذمتنا، وأنه راغب في الدخول في طاعتنا والانخراط في سلك جماعتنا، وقد قدم لنا قصيدة قبل أن يقدم علينا فتملق فيها لدينا فأحببناه بهذه القصيدة، وهي هذه:

تذكرت أطال الربوع الطواسم وما قد مضى في عهدها المتقادم

وقفت بها من بعد انسيها بصبر مناف أو بشوق مــــلازم

نهيم بمعناهم وتندب ربهم وأي فؤاد بعدهم غير هائــــــم

نحن إلى سلمى ومن سكن الحمى وحب سلمان للفتى بمسالــــم

فلا تندب الأطال واسئل[1] بها الهوى ولا تغل في تذكار تلك المعالــم

فإن الهوى لا يستفز ذوي النهى ولا يستبي إلا الضعيف العزائـــم

وكل فتى أعطى الغرام قياده وبات على ضيم فليس بحــــازم

فما فاز بالعليا سوى كل ماجد مشمر ساق الجد ماضي العزائــم

صبور على البلوى ظهور من الهوى قريب من التقوى بعيد المآثم

ومن يبغ درك المعلوات ونيلها يساوي بحلو الشهد من العلاقــم

ولائمة لما ركبنا إلى العلى بحور الرد الحها المتلاطـــــم

تقول بإشفاق انتسى هوى الرما وننشى درا من دموع سواجــــم

إليك لا يرد اعتزامنا مقالة باك أو ملامة لائــــــــم

---

1 – هكذا في الأصل، والصواب: واسأل.

ألم ترى أن اللوم نوم وأننا لنجتنب اللوم اجتناب المحـــــــــــارم

فما بسوى العلياء همنا جلالة إذا هام قوم بالحسان النواعـــــــــم

يروق السيوف المشرفيات والقنا أحب إلينا من بروق المباســـــــم

وأما صهيل السابحات إذا الوغى فأشجى لدينا من غناء الحمائـــــــم

وأحسن من قد الفتات وخدها قرود الغوالي أو خدود الصـــــــوارم

إذا نخرج مالصوارم لم تعد لأغمادها الأبحر القلاصـــــــــم

نوصل بين الهند وأنا والطلى بتفريق مابين الطلى والجماجـــــــم

فيرغب منا السلم كل محارب ويرهب منا الحرب كل مسالـــــــم

نقود إلى الهيجاء كل مضمر ونقدم إقدام الأسود الصـــــــوارم

وما كل من قاد الجيوش إلى العدا يعود إلى أوطانه بالغنائـــــــم

وننصر مظلوما ونمنع ظالما إذا شيك مظلوما بشوكة ظالـــــــم

ويأوي إلينا المستجير ويلتجي فنحميه منا كل ليث ضـــــــارم

الم تر إذ جاء البيع قاصدا إلى بابنا يبغي التماس المكـــــــارم

وذلك لما إن جفاه صحابه وكل خليل وده غير دائـــــــم

وازمع إرسالا إلينا رسالة بإخلاص ود واجب غير واحـــــــم

وكان رءى أن المهامة بيننا بخلي لذات الحب ذات المباســـــــم

وقال لأهل من عليم مجرب أبث له ما تحت طي الحيـــــــازم

فيبلغ عني الآن خير رسالة تودى إلى خير الملوك الأعاظم

على ناقة وجناء كالحرف ضامر تخيرها بين القلاص الرواســـــــم

من الأد يظلمن الظليم إذا غدا ونشبهه في وجود والموانـــــــم

إذا تعلت فوق السحاب حوالها تغلي بعض السحاب الرواكـــــــم

وإن هملحت بالسير في وسط مهمة ترامت كمثل البرق لاح لشائـــــــم

وكم يأمن الخلان بعد احتلالهم فأمسى وفي آكباده أي جاحـــــــم

وقالوا يحملها الحمام قال لا لبعد المدى أو خوف صيد الحمائـــــــم

وما القصد إلا الوصول بسرعة فقالوا يحملها أكف النواســـــــم

قال لنعم المرسلات وإنما لها المسر مشهورة بالتمائـــــــم

كتابي زهر في كمائم طرسه وبالريح يفشى سر زهر الكمائـــــــم

فلم يلف فيها للأمانة موضعا وكل أمري لسر ليس بكاتـــــــم

فحينئذ وافى إلينا بنفسه فكان لدينا خير واف وقـــــــادم

يجوب إلينا البيد قصدا وبشرنا يضيء له الظلماء في كل عاتـــــــم

طلاب العلى يسر مع الوحش في الفلا ويصحب منها كل بـــــــاغ

على سلهب ذي صفرتين مطهم من المغربات الصفناء الصـــــــلادم

إذا شاء أي الوحش أدركه به فتحسبه في البيداء بعض النعائـــــــم

ويقدمه طوعا إلينا رجاءه حمايتنا إياه من كل ظالـــــــم

ألا أيها الآتي لظل جنابنا نزلت برحب في عواض المكـــــــارم

وقربت منا بالمدات أهله وفاض عليك الجود فيض الغمائـــــــم

كراد ابنا المقاصدين جعلنا حما وندى ينسي به جود حاتـــــــم

وهنا جواب عن نظامك أتنا بعثناه به كاللؤلؤ المتناظـــــــم

ونحن ذوو التيجان من ءال هاشم لعمرك ما التيجان غير العمائـــــم

بهمتنا العليا سمونا إلى العلى وكم دون إدراك العلى من ملاحـــــم

شددنا بها أزرا وشدنا بناءها وكم مكنت دهرا بغير دعائـــــم

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظـــــم

ورضنا جياد الملك بعد جماحها فدلت وقد كانت صعاب الشكائـــــم

مناقب زيانية موسوية يذل لها عز الملوك القماقـــــم

يقصر عن إدراكها كل مبتغ ويعجز عن إحصائها كل ناظـــــم

فلله منا الحمد والشكر دائما وصل على المختار من ءال هاشـــــم

ويخصكم منا السلام الأثير ما تضاحك روض عن بكاء الغمائـــــم

فتأمل يابني هذه المكيدة واعتبر هذه الحركة.

يابني وإذا رأيت عدوك الذي هو أقوى منك أراد التحرك عليك والمبادرة إليك، وكان قليل السياسة ضعيف الرياسة مع كثر جيشه وماله وإمداده وأبطاله، فيرجى لك الظفر به والنصر عليه، وذلك لعدم سياسته وضعف حيلته وسوء تدبيره، فلعله كما اتفق لنا في إبداء أمرنا مع الحسن ابن عمر الفيدودي حين استقلاله بمملكة المغرب وتقديمه محجورا لنيل المطلب؛ وكيفية ذلك: أنا لما دخلنا تلمسان على بني مرين تحدث مع الأشياخ المعتبرين وقال: يابني مرين ما ترون في عبد الواد؟ وكيف اخرجوا إخوانكم من البلاد؟ فاضطربت ءاراؤهم وأحوالهم، وتبين خذلانهم وأنفسهم فأجمعوا ءارائهم أن يبعثوا ستة ءالاف فارس من حماتهم الفوارس دون من انضاف إليهم من الحشود، وما أعدوه من الجنود، واقبلوا بعدد وافر وجيش متكاثر.

فلما قربوا من البلاد وتهيئوا بما جاءوا به من الأمراد، وفي هذه الفترة التي كانت بئس أمر تلمسان ومجئ بني مرين إلى هذه الأوطان أرسلنا الجواسيس إلى المغرب لتتعرف الأخبار وتقف على الصحيح من الحد والاقتصار، فأتتنا الجواسيس مع ملجأ لهم معروفين بإقامتهم وبرحالهم، وأنهم في أوائل البلاد في غاية العزم والاشتداد، فلما تحقق ذلك ، أعني إتيانهم لهذه الأوطان عاملون على تلمسان، استخرنا الله الخروج إلى ملاقاتهم والعمل على الضرب في صدورهم وساقاتهم، فخرجنا بالأهل والولد والأثاث والعدد وحماتنا الأنجاد وقبيلتنا بني عبد الواد، وقصدنا إليهم عاملين عليهم إلى أن قربوا واد الزيتون بما جاءوا به من الحشد والريون، فعندما رأونا إلى قتالهم مبادرون وعلى ملاقاتهم مثابرون، وطلبوا لنا تزاهر عليهم وخيلنا تمحمح إليهم وشارفت خيولهم خيولنا وعاين قبيلهم قبيلنا، تأخروا عن واد الزيتون خائفين من ملاقات[1] المنون مقهقرين على الأعقاب ناكفين بإصر بنا عن رأي الملاقات لأسباب وعاقات ، ذلك أنه كان بقية جيشنا في البلاد مفترقين في الملال والوهاد وان وقفنا في الوقت في صدورهم تخويفا لهم في وردهم وصدرهم بخلال ما بعثنا أثقالنا وصرفنا أولادنا وأموالنا، وبقينا منفردين في الحمات والأنجاد وأجود قبيلنا بني عبد الواد، وقدمنا الخيرة في الدخول إلى الصحراء، ورأينا من أحسن الآراء، وقصدنا متوجهين إلى أعرابنا بني عامر فما معنا من الأول والولد والذخائر، وتركنا لهم تلمسان خالية لنمكر بهم مرة ثانية، فلما سمع بنو مرين دخولنا إلى الصحراء دخلوا تلمسان واستبشروا بالاستيلاء، ولم يعلموا أن ذلك منا خدعة لنستأصل أصل العدو وفرعه، فدخلوا البلد في يومهم، ورأوا ذلك من جدهم وعزمهم ولم يعلموا أنهم تورطوا في المهالك وسلكوا في مبادرتهم أشر المسالك، فاقتضى نظرنا أن نبعث إليهم من عربنا المعقل من يتجسس عليهم بالجهات الوجدية ويعرفنا بما هم عليه بالكلية، فلما سمع بنو مرين أن الطريق قطعت عنهم المعقل علموا أنهم رموا بالداء المعقل، فيئسوا من النجاة وأيقنوا بالممات

---

1 - هكذا في الأصل، والصواب الملاقاة.

عمدوا إلى ألفي فارس أو يزيدون من حماتهم الذين هم يعتدون، وساروا برسم المعقل بظاهر وجدة واظهروا في أنفسهم غاية النجدة، فعندما التقى الفريقان في القتال وقتل قائدهم بن موسى وأن ما صنعوه ليس الرأي، فانهزموا هزيمة شنيعة، وقتلوا قتلة ذريعة، فتداخل بنو مرين الرعب والطيش لما لم يعد إليهم إلا القليل من الجيش، وبات كل واحد يقلب كفيه، ويحسب كل صيحة عليه، وإتيانهم من حيث لم يحتسبوا وضاق بهم سوء ما اكتسبوا، وخيب الله أمنياتهم ببغيتهم، وفساد نياتهم، وطبقوا يزيدون الحيلة في سبب النجاة، وكيف يتخلصون إلى غيرهم وتلك غنيمتهم الموتخاة، فعقدوا لأحدهم البيعة وخرج الجميع معه بعد أن عقدوا عقد صلح على أنفسهم بالمهادنة والموالات بيننا وبينهم بالمحاسبة، وعاهدونا بعهد وثيق وعقد متين لا مفتنة إلى يوم الدين، وان يسرحوا من بأيديهم من بني عبد الواد ويستقر كل منا في بلاد الآباء والأجداد، وخرجوا في ليلهم مبادرين لغرهم برحلهم وخيلهم ولم يكن عندنا علم بسر إلا متى هربوا إلى أوطانهم إلى أن قربوا من نواحي ملوية وخلصوا بأول بلادهم المنجية، وذلك خوفا من سيوفنا، وهربا من رحوبنا.

ولما استقروا ببلادهم نقضوا ما عهدوا وأخلفوا ما وعدوا فأوقع الله بينهم الشتات والشحناء والعداوة والبغضاء حتى صار بعضهم يقتل بعضا.

ثم عدنا إلى تلمسان وكان من أمرنا ما كان، ثم تبين لنا أنهم عهدوا ثم نكثوا وجاهموا ثم عثوا وكذبوا بما حدثوا، وكم بدعة أحدثوا، فلما حاملناهم ولم يحاملوا عاملناهم بمثل ما عملوا، فانعطفنا على من كان منهم في بلادنا الشرقية مثل مليانة والمدية فاستولى عليها والدنا المرحوم، وعمل فيهم سيفنا المحطوم فوجه إلينا منهم أربع مائة فارس مصفودين في الأغلال ليذوقوا العذاب والنكال، وسيقوا في أسوا حال وأردأ، وطبولنا تزار عليهم أسراء، وقد كان الأولى قبل هؤلاء الأعداء فمنهم طالم[1] الظلم والغدار، وعدو، ولكن ألقينا عليهم ليكونوا عوضا عن من في يدهم،

---

1 – أصل الطلم الضرب ببسط الكف، وقيل الطلمة صفيحة من حجارة كالطابق يخبز عليها، وقد طلمها يطلمها وطلمها، وطلم العرق عن جبينه مسحه. ابن منظور، مادة طلم.

ورأينا أن نعاقبهم بهذا الأمر المشبه لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[1].

يابني وإن كان لك معقل تلجأ إليه لكنك ترجح التعويل عليه وترى أن قالت الحكماء ضربت لازم أن كل محسور مقهور وحاله سائر لتبور، فينبغي لك حينئذ تحصن معقلك الذي أعددته لحصرك وتلجأ إليه في مهم أمرك وأموالك وأثاث جيشك وأولادك وحماتك ورجالك، ثم تتسع لعدوك عن البلاد بما عندك من الأجناد خارجا عن طريقه ذلك، راكبا المعطشات والمهالك، قاصدا لبلاد العدو لتسكنه من الغلو، وتصده عن العتو، وذلك إذا قصد بلادك وأراد قهرك و نكادك فإنه يأتيك بجميع احشاده وأنصاره وإمداده وقواده، ويترك بلاده خالية من الحماة، ومعرضة لآفات، فتقصدها أنت لفرصة تنتهز بها، أو وقيعة تنتجزها فتفعل ذلك في بلاده لتقابل ما فسد من بلادك بمضادة من فساد بلاده، وفي ذلك مشقة على العدو القاصد لما يلحق بلاده من المفاسد، فإنه إذا سمع العدو إنك قد أوقعت في بلاده الشتات وسبلت عليه الغارات مرضت نفسه لذلك، وأيقن أنه واقع في المهالك وساءت ظنون اتباعه من القبائل والعساكر، وانقلب سرورهم إلى تعبير الخاطر لما أهمهم من تشتيت بلادهم والخوف على أهلهم وأولادهم، فيصيرون عليه لا إليه، ومتأخرين عنه وإن كانوا بين يديه فيرجع العدو ناكصا أعقابه، خاسرا في مجيئه وذهابه.

وهذا كان حالنا مع عدونا أبي سالم حين رأينا أنه إلى بلادنا قادم؛ وكيفية ذلك يابني: إن أبا سالم كان له قواد بالجزائر[2] يكتبوا له في الباطن والظاهر يطلبون منه الانتصار لما ضيق عليهم والدنا الحصار، ويعرفونه بالزور، ويسهلون عليه الأمور

---

1 – سورة النحل، الآية 126.

2 – إن أبا حمو قد استعمل هنا كلمة الجزائر، مع أن حكمه كان في تلمسان وضواحيها وأشار إليها في قوله: إن أبا سالم حين رأينا أنه إلى بلادنا قادم، وهذا يدل على أن إطلاق تسمية الجزائر قديمة، وأن تلمسان كانت تنتمي إليها في ذلك العصر.

بضعف بني عبد الواد، وقلة حماتهم في البلاد، ويقبحون له المحاسن ويحسنون له القبائح في المواطن.

ولم تزل كتبهم تتواتر علينا وتصل في كل يوم إليه إلى أن أخذته العزة والنخوة ودعته النزوة و هاجته الحمية، وحمل النفس على الحركة إلى البلاد الشرقية فجمع الأجناد الوافرة والأعداد المتكاثرة، و لم يترك بالمغرب خيلا ولا رجالا ولا شابا ولا كهلا، والرمات[1] المترجلة من المغرب، ليزحف بها ويرهب، ولينال بذلك غاية المطلب.

ولم يزل يعمل الحال بالمسير إلى أن وصل أطراف البلاد في الزمن اليسير.

وعندما تحققنا إتيانه، وأنه قد نقض عهوده و إيمانه، وأنه قاصد للبلاد يرى أنه لا يصده عنها من صاد أخذنا في الترحيل بل الترجيح بين الخروج إلى الصحراء أو ملاقاته في هذه الأنحاء، ثم نظرنا إلى البلاد التي خلف وراءه قد خلت من جناد، ولم يبق بها أحد إلا القواد، فاقتضى نظرنا أن نخرج من تلمسان ونقصد إلى بلاده بمن معنا من الحمات والفرسان، فوجهنا إلى والدنا بالبلاد الشرقية بالتحاق بنا بمن معه من الجيوش العبد الوالديه، وخرجنا إلى الصحراء تمويها على بني مرين ونحن في الحقيقة إلى بلادهم قاصدين.

ولما توغل أبو سالم في البلاد وظن أنه بلغ غاية المراد واستقر بدار تلمسان وأنه تأثل[2] له فيها الملك السلطان قصدنا بلاده فألفيناها خالية من الحماة وطعمة للغارات، فأتينا على حصونها نخرب ونهدم ونحرق ونهدم ونسلب ونسلم، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب، والسعادة بالأمتعة والأسلاب، وهدمنا القلاع والحصون، وأذقنا من تعرض إلينا كأس المنون، وأبو سالم يظن أنه قد ظفر بتلمسان

---

1 - هكذا في الأصل والصواب الرماة.

2 - قال ابن منظور في بيان معنى تأثل: أثلة كل شيء أصله، وأثل يأثل أثولا وتأثل تأصل، وأثل ملكه أصله وتأثل مالا اكتسبه. لسان العرب، مادة أثل.

وملك هذه الأوطان؛ فبينما هو بالفتح سار منتظرا لما يرد عليه من الأخبار إذ كتب إليه أهل بلاده بالإعسار يطلبون منه الانتصار، ويعرفونه بما لقوا من البوار، وأنه إذا لم يبادرهم استولت بني عبد الواد على البلاد.

فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا وما دهم بلادهم من حماتنا وأنصارنا طاش لله فرقا وصارت دعته قلقا، وعلم أنه مخذول وعقده محلول، وجده مفلول، ولم تنفعه احشاده ولا حماية أجناده.

وكاد جيشه يكون عليه ألما لما ملئت قلوبهم رعبا؛ فلم يقتض نظره إلا تقديم حفيد أبي تاشفين ليأمن بتقديمه قلوب بني مرين ويثير الفتنة بهذا الوطن لمن يترك معه من المفسدين فلم يقم أبو سالم في البلاد ثلاثة أيام بعدما أراد أن يصيرها دار مقام، فانزعج عن البلد طريدا، ومن مخافة سيوفنا شريدا.

ولم يرجع إليه عقله حتى اتصل بفاس هو وأهله، وعدنا إلى أوطاننا وبلادنا سالمين، وبما نلناه من الأعداء غانمين.

ولما سمع بنا حفيد أبي تاشفين أخذ في الهرب فجردنا في أثره في الطلب فنجا بنفسه ولم يفلت إلا برأسه، ثم بعث إلينا أبو سالم بالمصالحة والمحاسنة والموالات والمهادنة، ولم يزل يعرف لنا هذه الفعال ويدركه من حركتنا الأذهال، وقد كانت مصالحته لنا على رغم أنفه، ولم يزل يحاملنا إلى أن لحق بحتفه.

وهذا باب من السياسة، ونكتة من الرياسة، ونبذة من الحزم أهدت إلى علم. يابني وإن كان العدو صاحبك خرج ووحيد العزم، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته، ولا قبل لك بجيوشه ولا ساقاته، وهو موازن لك في الدهاء والسياسة والأراء، ولم يقدم على بلادك بأجناده حتى حصن معاقل بلاده، وشمّس[1] الرعية إلى

---

1 – شمّس الرعية أي منعها. قال الجوهري: شمس الفرس أيضا شموسا وشماسا، أي منع ظهره، فهو فرس شموس وبه شماس. ورجل شموس: صعب الخلق. وشمس لي فلان، إذا أبدى لك عداوته.
الصحاح في اللغة، م س، مادة شمس.

حسالما ومواتعها ومعاصرها ومواضعها حتى لا تجد فيه فرصة و لا نكاية توجب له غصة؛ فينبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه إلى أن ينزل معقلك ويهم بتضييقك، فإذا نزل معقلك فتحرك عليه وبات بجيوشك قاصدا إليه بما يمكن عدوك المذكور الا تزحزحه عن معقلك المشهور وقصده إلى بلادك وملاقاتك بمن معك من الجمهور.

فإذا رحل العدو عن ذلك المعقل اشتد أهله وانتعشوا وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا، ووقعت الرجفة في جيش العدو وسكن من ذلك العلو؛ فإذا صمم العدو للقائك قاصدا، ورحل إليك موجها جاهدا فترحل مرحلة من أمامه تحل بها عقدة اعتزامه، فلا يزال كذلك ترصده في وجوه المسالك كل ما دنا منك العدو وتعرفت مكانه واينه، فجعلت مسافة بينك وبينه لا يقدر فيها على التوصل إليك، ولا أن يقاتلك ويهجم عليك، فيضطرب العدو في أحواله ويضعف في ترحاله، فلا يقدر على العودة إلى الحصار فيتوقف بين الإقدام والفرار، وتضعف حينئذ حركته وتنكسر شوكته، وتقل حدته، وتقل نجدته، وينكره جيشه، وينخفض عرشه؛ فما يرى أرجح من الرجوع إلى بلاده ليريح نفسه وجملة أجناده.

يابني إن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزله، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له فينبغي لك أن تتحر من حيلك وحماتك وأهل نصرتك وكفاتك وتغير على أطراف محلته، ولا تترك من اتباعه من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه ويجنح إلى رحلته؛ فلا يزال ذلك دأبك مساءا وصباحا تضيق عليه المسالك قتلا وكفاحا، فتمنع عنه القوافل، وترصد فرسانه في المخادع والمخاتل[1]، حتى يصير محصورا بعد أن كان حاصرا، ومقهورا بعد أن كان قاهرا، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك، وتقل قوتهم فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بمراده، فتشتت عليه الأجناد وتختلف عليه

---

1 – المخاتل: جمع مختل وهو مكان الاختباء؛ قال الصاحب بن عباد: الختل: تخادع عن غفلة، وجحر الأرنب يسمى: المختل، وكل موضع تختل فيه.
المحيط في اللغة، مادة ختل.

أراء القواد، وتضعف نجدة الأحشاد، فيرحل عن المعقل بغير اختياره ودا أنه لم يخرج عن داره؛ فإن وجدت فيه فرصة فانتهزها، وإن تيسرت لك عدة فانتجزها.

يابني وإن كان العدو حين أتى مصمما لا إلى معقلك قاصدا أو إلى مجلسك ومترلك متابعا لك ليلا ولا نهارا عاملا عليك سرا وجهرا، وكان العدو مثلك في الدهاء ونظيرك في الحزم والآراء؛ فيرجى لك أن تظفر به وإن كنت مطلوبا، وتغلبه وإن ظنك مغلوبا؛ فإن المطلوب يغلب الطالب حتما ويستولى عليه رغما، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشا وأثقالا وأثقل حركة وانتقالا.

وفي الجيش الكبير القوي والضعيف والثقيل والخفيف والطالب أبدًا على اختياره، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره، والا تتنا لأخذ ثأره، فهو أقوى جلدة وصبرا فلا يأمن الطالب منه مكرا، لاسيما في المواضع المعطشات، والمهامه المدهشات؛ فإنه لا يأمن الطالب أن يثني عليه المطلوب عنانه فيهله فيلقى امتحانه؛ وكذلك اتفق لأبي الحسن المريني.

وكيفية ذلك: إن أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستطار صيته في جميع البلاد والأوطان اشتاقت[1] بأخذ البلاد الإفريقية، وأن يقطع ذكر خلافة، وأن يعم أمره القريب والبعيد، فاستعمل حركته التي كانت ءاخر حركاته وأعظم معركاته، وأعد لها الأعداد، وحشد لها الأحشاد، وأمد لها الأمداد، وقاد أهل المغرب بأسره، واستظهر بأمواله وقوته ووفره، عاملا على أن لا يتحرك بالبلاد الشرقية إلا من يدين بطاعته، ويدخل تحت إيالته وفي سمط جماعته، وهو في اعتزامه يظن أن لا راية تعلو رتبة، ولا خلافة إلا خلافته؛ وذلك لما استولى عليه من البلاد، وما تحت إيالته من الحماة والأجناد؛ فخرج من حضرة فاس إلى مدينة تلمسان وقد طبق الأرض بما حشد من الفرسان.

---

1 – هكذا في الأصل، ويبدو أن حرف التاء زائد.

ثم استخلف ولده أبا عنان وجعل له النظر على جميع البلاد، واستوثق قوله في البلاد، ورأى أن ذلك من الحزم والاشتداد، ولم يدر أن القدر سابقه لحينه ومزعجه من مكن أمنه إلى أماكن حصره وسجنه.

فلم يزل يستعمل الركاب ويرحل المضارب والقباب، ويقطع الأرض طولا وعرضا، ويخوضها رفعا وخفظا، إلى أن بلغ بجاية فاستولى عليها وبلغ منها الغاية، فاستفتحها من غير طعان ولا طراب فادعته الصيت والإرهاب، ثم اخرج صاحبها إلى محلته وأدخل عامله في البلد في ليلته، ثم ارتحل إلى قسنطينة يريد حصارها لما ظهر له من تحصينها وشدة أنصارها، فلم يلبث عليها إلا ثلاثة أيام، وخدمه أهلها على الأمان التام فأخرج من كان بها من أهل التوحيد وأدخل عامله إليها على حسب ما يريد بعد احتوائه على الطارف منها والتليد، ثم تمد إلى بلد العناب فخدمه أهلها من غير مراب، ثم دخل عقله العجب المؤذن بالهلاك، المفضي بصاحبه إلى الأنتشاط، ثم قصد تونس لا يصده عنها صاد، ولايرده لقوته راد، وقد أعجب من أعداده المتكاثرة المديدة الوافرة، فعزم على ملاقاته الأمير أبوحفص عمر بن أبي يحي[1]، وأراد صده عن تونس لو ساعده القدر أو كان من أهل الدنيا فقتله أحد قواد أبي الحسن، وخمدت بموته شحناء المحن.

وعندما أوتي أبو الحسن برأسه عظم في أعين أناسه وأيقنوا بالهمدة في البلاد وأنهم أزالوا أثر التوحيد، وبلغوا غاية المراد.

ثم استقبل تونس والبلاد ترتج لسلطانه وتبتهج بإتيانه، وقد جمع على طاعته أهل تلك البلاد ورغب في امتثال أمره جميع العباد، فدخل تونس بجيش يضيق عنه المتسع ويذل له الممتنع، ولا يخالفه المتبع، فأظهر بها صيتا عظيما وملكا عنيدا صميما أزال بذلك رأي أهل التوحيد، ويأبى الله إلا ما يريد، بخدمته البلاد الإفريقية وتلتها البلاد الجريدية، ففر وعماله في البلاد وبعث إليها بالحصص والقواد وأتته

1 - هو سلطان الدولة الحفصية في حينه.

القبائل والأعراب، وانقادت بخدمته الصعاب الصلاب، ثم أنه حمله حال الإعجاب على أن يأخذ المراهن من أولئك الأعراب؛ فعندما علم العرب بذلك انسلوا من حضرته انسلال العدو، وصاروا له أعداء أسرع من فيئ الظل، فأخذته الأنفة وسولت له نفسه في أخذهم وانتهازهم، ولم يعلم أنه كالباعث على حتفهم بطلبه، والجاذع ما رأى أنفه بكفه.

ولما استحقر العرب واستقلهم وأراد أن يأخذهم ويذلهم، فاستعمل حركته من تونس عاملا عليهم ومنتهظا إليهم ليقطع آثارهم من البلاد الإفريقية، ولا يترك بها من بني كعب بقية، فخرج في طلبهم مبادرا، وعلى غزوهم مثابرا، ولم يزل في أثرهم طالبا وفي استيطانهم راغبا، وهم مع ذلك يظهرون الفرار له جملة النضراء.

وعندما أجهد في أثرهم أجناده، واتعب جيشه وقواده حتى نسمه جيوشه من السفر، وأيقن[1] أعداءه فيها بالظفر بعدما عاينوا فرصتهم فيه اثنوا اعنتهم عليه، حيث لا ينفعه تلافيه، فكانت ساعة حينه وأول شينه، فانهزمت جيوشه الوافرة، وانجدلت أمراده المتكاثرة، فتلاقى القيروان منفردا مع ابلال من الفرسان، واستولت العرب على أمواله وأثاثه وجملة اثقاله، ولم ينفعه عزمه لما انتقض حزمه، وذلك من سوء التدبير واحتقار العدو الحقير، فلو كان يقظانا ما احتقر عدوه حتى سكن علوه، فكانت هزيمته تضرب بها الأمثال، وبسيئها آل ملكه للزوال؛ فلا تخشى يابني من عدوك وإن كان قويا.

القسم الثاني: أن يكون العدو أضعف منك[2]

إن كان[3] العدو أضعف منك، وكان ذا رأى وحزم وانتهاض وعزم، وله معاقل حصينة، وأماكن آمنة يتحصن فيها ويمتنع و يتأمن فيها، وينقطع فلا يقدر

---

1 - في الأصل أيقنوا.
2 - العنوان من وضعنا.
3 - في الأصل: أن يكون.

قائد من قوادك عليه ولا أنت، فإذا قصدت بنفسك إليه إما لتحصنها قلة الحصينة وإما لركوبك المعطشات التي يبلغ بها تأمينه، فينبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة، ولا تغفل في يقظه ولا سنه؛ وذلك من زمن الصيف والخريف وحين يستوي الخيرات من بلاده من كل تليد وطريف، فتستعد له الاستعداد التام، وتنهض له الجد والاعتزام، فترحل إلى بلاده فتأكل زرعهم في أول حصاده، وثماره في إبان جنائها، وتزلزلها في جميع أنحائها حتى يضيق عليه كل التضييق، وتخرج الرعية عن طاعته بالتشتيت والتفريق لعدم دفاعه عنهم، وإمكان جيشك منهم.

ولخراب بلاده، وقلة جيشه وإعداده، فيضعف بعجزه عن الخروج إلى المعطشات، ولقلة صبره على المدهشات فيسامه جيشك، ويزداد كربه ووحشته، وينكره خاصته الأقربون ويعودون عليه بالديون، ولا يمتثل أحد من اتباعه أمره، ولا يوافقه فيما جهر به وسره، فحينئذ تقصد إلى حصونه وبلاده لقلة أعداده وضعف أجناده، فتأخذ منهما الأقرب فالأقرب وهذا مما يتم به المطلب، فكلما أخذت من حصون عدوك زاد في قوتك وعلوك، واستعنت عليه بما أخذته من حصونه، وذلك زائد على ضعفه وهونه، فتستولى على مجابها وأموالها وحماة البلاد ورجالها، فتضيق عليهم بأنواع التضيق، وتحاصره محاصرة القوي المضيق؛ لأنك استعنت ببلاده على بلاده على أمراده، ثم تأخذ في البناء والتضييق عليه بكل وجه ترى أنك تصل به إليه، فتبني على كل برج من بروج معقله برجين، ثم لم يفتر عنه طرفة عين، ثم تشحن الأبراج بالرماة والرجال والآلات التي تحتاج للقتال، ثم تدور بمعقله الحفائر والمخادع التي تليق بالمحاصر، وتستعمل الدرقات[1] والأنفاظ والمنجنيقات، وتستأصل الرمي على ذلك في كل الأوقات، فبالضرورة تأخذه عنوة وتغلب عليه سطوة، ويسلم لك المعقل بالاضطرار لشدة ما يلقى أهله من الحصار.

---

1 - الدرقات: جمع الدرقة وهي ترس يتخذ من جلود ليس فيها خشب ولا عقب. ابن منظور، لسان العرب، مادة درق.

القسم الثالث: أن يكون العدو مساويا لك

اعلم يابني أنه إذا كان العدو مساويا لك في جيشك وبلادك وحزمك وجلادك وكفايتك وسياستك ونجابتك ورياستك فينبغي لك إذا رأيته موازنا لك في الدهاء، وأحواله جارية معك على السواء أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة والموالات والمحاسنة، فتكون مصالحتك له من جملة المكائد، ومن ألدها التي تبلغ المقاصد، لأن مصلحة العدو حتى تظفر به مكيدة، وتلك سياسة وكيد وإن كانت عند الناس مذمومة وصفتها بالعدو موسومة، فهي عند الملوك محمودة وأثارها مشهورة.

ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة ولا في موالات و لا محاسنة؛ وقد اتفق لنا ذلك مع السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن حين وجهنا إلى الأندلس لعده بكل فعل حسن، وكيفية ذلك: أن أهل المغرب لما أعظناهم بالخروج من بلادنا، وانتزعنا من أيديهم إرث أبائنا وأجدادنا، وعاهدناهم على قطع المفاتنة، وصالحناهم على الموالات والمحاسنة لم تزدهم إلا سحنا[1] ولا حركاتهم لا أدنى، ثم تمادوا على نقض العهود وتمادوا على حقر الأباء والجدود، لا نعقد معهم صلحا إلا نقضوه، ولا نولوهم صلحا إلا رفضوه، ولا نوافقوهم عن الكف عن شيئا الا تعرضوه، إلى أن تبين لنا أن غاية مطلوبهم الفتن، وأن التردد إليهم من المحن، وإن أظهرت ظواهرهم الموالات فإنما حشوها الحقد والنكايات.

وعندما تواتر شرهم وتبين غدرهم وقل خيرهم، وأخذناهم بالمحاولات فلم تنفع فيهم في كل الحالات، ومتى أردنا تسكينا ومهادا ابدلوه هرجا ونكادا، فاقتضى رأينا السديد السالم أن نبعث للأندلس لأبي سالم ليثير عليهم الفتنة ويذيقهم بخروجه إليهم المحنة لتشغل بعضهم ببعض، لموجب ما أسلفوه من نقض وبغض.

---

1 - السحن والمساحنة: الملاقاة. ل م، مادة سحن.

فعندما وصلت أرساله لأبي سالم تحدث عن الجوار وبعلمه أن أوان الفرصة في بلاده قد آن للابتهاز، وأن يكون جواره إلى [illegible] [illegible] جميعا واتفاقنا على عهد لازم وأمر بالمهادنة قائم، وأن يبادر في [illegible] ملك وأن يسلك في [illegible] أحسن المسالك، فلما وصلت أرسالهم بالكتب إليه [illegible] [illegible] قامص عليه أعمال الحيلة في خروجه في الحال، واعمال غاية الاحتيال، وحوفت [illegible] به [illegible] من معقله[1]، وكان هناك بعض قبيلنا الأوصياء وحماتنا النصحاء، فوجهنا إليهم في محاولة ليحوزوه إلينا ويقدموه علينا، فلم يجدوا لخروجه سبيلا، وتعذر عليهم [illegible] لما رأوا في ذلك تطويلا، فاقتضى نظرهم السديد ورأيهم المصيب الرشيد أن يتوجهوا به إلى الفنش الطاغية[2]، ورأوا ذلك أقرب إلى الغرب من الجوار به إلى هذه الناحية، فإنا شوقناه إلى مغربه وأريناه بما ندبناه غاية مطلبه، وخصصناه على الامتنان بدار ملك أسلافه، ومبادرة المغرب قبل تلافه بجوره الطاغية حين وصل إليه في غراب في البحر، فأنزله بظاهره أصيلا، ومنها [illegible] له بارق النصر والظفر فاستقل من علمه بالخلافة ورقي مرقى الإنافة، وحل بحضرته وداره على حكم اختياره، ومن هنالك احتاز إلى المغرب وبلغ غاية الأماني والمطلب، فتحصل على أيدينا بدار ملكه وسلطانه، واستولى على جميع بلاده وأوطانه، فراسلنا بالموالات والمصالحة والمهادنة والمناصحة، وكل ذلك منه خداعا ومكرا ودهاء وغدر.

ومع ما أظهر من موالاته ومناصحته ومصافاته لم نزل نجد من مكايده ونلقى من سوء مناكده، وقد كتب لنا بخط يده على ختمة من القرآن العظيم بعهد وثيق وعقد سليم مستقيم، وجعل كتاب الله حكما بيننا وبينه أن تكون بيننا المجاملة وجميل المعاملات و الموالات والمهادنة والمصافات والمحاسنة، وأن لا يتبدل عن الحال التي وقع عليها العقد، وكتب على ظهر المصحف العهد، فلما استقل بسلطانه أول

1 - في الأصل: وحاف[illegible]

2 - هو أحد ملوك النصارى كان ملكا لقرطبة وإشبيلية، عاصره أبو حمو، واستمر ملكه ثلاثا وثلاثين سنة. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، م س، ج 1، ص 179.

شيء أبداه بخذلانه أن نقض العهود وحشد الأحشاد، وأمر الأمراد، وقصد إلى بلادنا، عاملا على قتالنا، ولم يراع العهود والإيمان ولا ما خطه من عهده على مصحفه القرءان، فكان من إتيانه ما كان، وما اتفق له في دخوله إلى تلمسان كما قدمناه آنفا في غير هد المكان.

فعلى هذا يابني لا تأمن عدوك في حال، لا في المصالحة ولا في القتال. واعلم يابني أن المصالحة بين الملوك مكيدة، وهي عين المحاولة الوكيدة والحركة الشديدة، فلتكن لعهودك يقظانا وفي محاولته دهقانا.

يابني أكثر لعدوك الهدايا ونصر على أرساله جزيل العطايا، وأنسه وواليه، واكرمه وصافيه، واظهر له الوداد، وابن له الاعتقاد، ووال خاصته بالإكرام، وواليهم بجزيل الإنعام، واظهر للعدو الشفوف عليك في الحال حتى يظهر أنك تخافه، وأنه صبر منك بالأمال، وأنك تماديه لأجل المخاف، وتواليه على وجه الاستعطاف. وكذلك تكاتب خاصة عدوك الذين يوصلون الهدايا إليه ليعلموك إذا رجعوا ماهو عليه، وما فعل في بلاده، وما حدث من زيادة في أجناده، ومادرك من الجيش في عامة وما حدث من الحوادث في مدة مقامه؛ فتفعل أنت ما يقابل ذلك وتزيد اضعافا على ما هنالك من حيث لا يكون للعدو بك شعور ولا يعرف ذلك عند الخاصة و لا الجمهور. والعمل في ذلك يابني أن لا تظهر زيادة بحضرتك ولا تفش ذلك في أمرتك، بل تفعل ذلك في البلاد التي لا تلي العدو، وهي عنه بعيدة؛ وذلك إذا فعلت من وجوه المكيدة فلا تزال في زمن المهادنة تدرك الفرسان والأجناد، وتستعد لعدوك أتم الاستعداد.

وليكن اشتغالك بتوفير العدة وءالات الحرب التي تكون بها النجدة والشدة، وكل ذلك بحيث لا يشعر العدو ولا يعمل وجه تسببه، لأن العدو يكون ءامنا من عائلتك لأجل مهادنتك ومصالحتك، وعاملا على أحوالك التي تفعلها في أقصا بلادك عن تدريكك، وجملة أجنادك لا نظير لك، ءاخذا في مناصحته، مستمسكا بمهادنته ومصالحته، موافقا لجميع أغراضه واختياره، مؤثرا له على خاصته واختياره؛

وتلك مكيدة أدركتها، وخديعة حسنة دبرتها، وفي أثناء هذا على عقد الأمر وحله تكون عادتك، ضم جيشك للأعياد تجمعهم من سائر البلاد، وتخص قودك والأجناد، يعيّدون لعيدك ويمتثلون أمرك في وعدك ووعيدك.

يابني وفي الأعياد تكون هداياك لعدوك، وفيها تظهر إقامتك وسموك، لتتعرف أحواله في أعياده، وما يزداد في أجناده وقواده، يعلمونك إذا رجعوا إليك حتى لا يخفى عليك شيء من حاله، وحتى يأنس العدو من العدو، ومن عوائلك لحسن محاولتك وتراسلك؛ فإذا تحققت أن جيشك أكثر من جيش عدوك، وأنجادك أكثر من أنجاده وتلك وتراسلك فإذا تحققت بل ومرادك أوفر من مراده، ورأيت فرصة فانتهزها واقتحم عليها، وانتجزها، فإذا فعلت ذلك على حين غفلة فيرجى لك الظفر به من أول وهلة، لأجل افتراق جيش عدوك في البلاد، وطمأنينته بترك الاعتداء، فإنك إذا أقبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك إذا أظهرت له راياتك وساقاتك؛لأنه يرى أنه موازن لك في العدد والعدة والدهاء والكفاية والنجدة، فإن خرج إلى لقائك فالغالب أنك تغلبه وتظفر به، وتنكبه، لأنك أكثر أهبة واستعدادا، وأقوى جيشا وأوسع إمدادا، وإن لزم العدو موضعه ولم يخرج إلى لقائك لعدم وجدان جيشه هنالك، فينبغي لك أن تدخل إلى بلاده وتسعى في شتاته وفساده، وتضعف بلاده غاية الضعف، وترهن أهلها بالغارات والزحف، وإن قدرت على أخذ ذلك العدو وحصاره والنزول على بلاده وانتهاره فلا تقصر على إنزاله، والتضييق عليه في محاله، وإن لم تقدر عليه وترى أن أحواله تشتت، ونكاية عدوك تعددت فتأخذ منك بقدر الاجتهاد وتعود قابلا إلى بلادك بما معك من الأحشاد. ثم لم تزل تزيد في جيشك ومددك وإعدادك، ولا تنفس عدوك ساعة، ولا تفتره حتى تأخذه وتظفر به وتقهره، فإن العدو لا يقدر على ملاقاتك ويدافع عن نفسه خوفا من جيشك وساقاتك، بل يدخله الخوف والإرهاب والفشل في أحواله، والاضطراب لما يراه من فساد بلاده وقل جيشه وقلة احشاده، فإن كان حين سمع بحركتك إليه أرسل إلى جيشه قبل أن تهجم عليه، وكان جيشه قريبا منه بحيث لا

ينفك عنه فيصلون إليه قبل هجومك عليه، وقد استعد بجيشه للقائك وقابلك بوجه أعدائك، فإن كان اللقاء بين حد بلادكما وأظهرتما معا شرَهَ استعدادكما فيرجى لك الظفر به، والغلبة عليه، وخيبة عدوك فيما قصد إليه؛ وذلك لأجل ملاقاتك لعدوك من تدريك الجيش، وقلت الانتهاض والعيش، واستعدادك بما ردت عليه، وانتهت محاولتك إليه؛ فإن الزيادة في الجيش لها تأثير في الهزائم، وقوة عظيمة في العظائم؛ وذلك كما يحكى في قصة الطاغية ذي الردمير مع المستعين بن هود أمير المسلمين وكيفية ذلك أنه لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن ردمير النصراني على مدينة وشقة من بلاد الأندلس وكان العسكر كافيين، كل واحد منهما يرافق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجال.

فلما دنا اللقاء قال الطاغية لمن يثق بهم بعقله ومما زمنته للحروب من رجاله: استعلم من في عسكر المسلمين الشجعان الذين تعرفهم يعرفوننا، ومن غاب منهم ومن حضر؛ فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال، ثم قال: انظر الآن من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم ومن حضر، فعدهم فوجدوهم ثمانية لا يزيدون، فقال الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول: يا بياضك من يوم ثم ماشت الحروب بينهم.

فلم تزل المصابرة بين الفريقين ولم يول أحد دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكر، ولم يفر أحد منهم.

ولما كان وقت العصر نظر ابن ردمير ثم حمل إلينا حملة ودخلوا دخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا.

ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة منهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينحو بنفسه، وكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة؛ فليعتبر ذو العزم والبصيرة من جمع يحتوي أربعين ألف مقاتل، ولم

يخطر من الشجعان المعدومين إلا خمسة؛ تعين وثوق العلج بالظفر والغنيمة لما أراد في إبطاله رجل واحد.

وحكي أيضا أن المنصور بن أبي عامر رحمه الله كان في بعض غزواته إذ وقف على نشر من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره قد ملئوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل عرف بابن المصحفي، فقال: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال ابن المصحفي: أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا؛ فقال له المنصور: لا يعجزنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة، فسكت ابن المصحفي، فقال له المنصور: ما سكوتك أليس في هذا الجيش ألف مقاتل بطل؟ فقال: فعجب المنصور ثم عطف عليه فقال: فيهم خمسة مائة[1] من الأبطال المعدودين، قال: فشبه المنصور واستخف به وأمر به فأخرج على أقبح صفة؛ فلما توسط بلاد المشركين اجتمعت النصارى وتصاف الجمعان فبرز علج منهم مساك في السلاح، يكر ويفر وينادي: هل من مبارز؟ فبرز له رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العلج وفرح المشركون وطمعوا، واضطرب بها المشركون المسلمين، ثم جعل العلج يمرح بين الصفين ويقول: هل من مبارز اثنين بواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكبر ويحمل وينادي: هل من مبارز ثلاثة بواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العلج وذل المسلمون.

وكادت أن تكون كسرة؛ فقيل للمنصور: مالها غير ابن المصحفي، فبعث إليه فحضر، فقال له المنصور: ألا ترى ما فعل هذا العلج الكلب منذ اليوم! قال يابني: جميع ماترى، قال: فما الحيلة فيه؟

قال: وماتريد؟ قال: أن يكفي المسلمين شره، قال: نعم الآن.

---

1 - هكذا في الأصل.

ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل يعرفه من أهل الثغور على فرس قد نشفت أوراكها هزالاً، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في نفسه وحليته، غير متصنع، فقال له ابن المصحفي: ألا ترى ما يفعل هذا العلج منذ اليوم؟ قال: قد رأيته فما تريد منه؟ قال: أريد رأسه الآن، قال نعم إن شاء الله، فحمل القربة إلى رحله، ولبس لامة حربه، وبرز إليه فتجاولا ساعة، فلم يرع الناس إلا المسلم جاء إليهم يركض ويدرون ما هنالك وإذا الرجل يحمل رأس العلج، فالقى الرأس بين يدي المنصور وقال له: عن هذا وشبهه أخبرتك ليس في عسكرك منه ألف ولا خمس مائة، ولا مائة، ولا خمسون، ولا عشرون، ولا عشرة، فرد ابن المصحفي إلى منزله وأكرمه ووصله».

فينبغي لكي يا بني أن تصنع للشجعان مالهم من المزية والدرجة العليا.

الفصل الثالث:

القاعدة االثالثة، وهي قاعدة العدل

اعلم يابني أن الملك بناء والعدل أساسه، وإذا قوى الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس أهار البناء ؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جبايا إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس.

ومن استعمل العدل حض ملكه، ومن استعمل الظلم عجل هلكه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلـــم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[1].

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه سبحانه وتعالى أنه قال: (ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضــــال إلا من هديته فاستهدوني اهدكم، ياعبادي كلكم جائع إلا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم، ياعبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني اكسكم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل وأنا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد يسئلون فاعطيت كل واحد مسئلته ما نقص المخيط إذا دخل في البحر، ياعبادي إنما هي اعمالكم احصيها ثم أوفيكم اياها فمن وجد خير فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلمن إلا نفسه)[2].

يرويه أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر مسندا إلى النبي صلى الله عيه وسلم. وكان أبو ادريس إذا حدث به جثى على ركبتيه.

---

1 – رواه البخاري في صحيحه، باب المرأة راعية في بيت زوجها.

2 – رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم.

وقال علي رضي الله عنه: (إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم)[1].

يابني من عدل زاد في قدره، ومن ظلم نقص من عمره.

وفي إشاعة العدل قوة القلب ورضى الرب، وتطييب النفس، ولزوم اليقين وأمان من العدو.

ولما دخل الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستلقيا بالمسجد موسد الحصا ودرته بين يديه فقال له :عدلت فأمنت فنمت.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله بحمص أن مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت إلى الإصلاح؛ فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام.

فإذا تقرر يابني أن العدل أس الدولة وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أربعة اقسـام:

القسم الأول:أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تكون عدلا في نفسك، عدلا في رعيتك، جاريا معهم على الطريقة السوية، موافقا للأحكام الشرعية، مستقيما في أحوالك، مرضيا في أقوالك وأفعالك.

يروى أن معاوية رحمه الله تعالى قال لصعصعة بن جرجان[2]: صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: كان عالما برعيته، عادلا في أقضيته، عاريا من

1 – هو قول لعمرو بن العاص. انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، نسخة إلكترونية منشورة على موقع أهل الحديث: http://www.ahlalhdeeth.com، ج 46، ص 184.

2 – في النسخة الخيرية: بن صفوان.

الكبر، قائلا للحق، قابلا للعدو، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريا للصواب، رفيقا بالضعيف غير محاب للقوى ولا حاف للغريب.

وكعمر بن عبد العزيز الذي ملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا.

وقد تقدم ذكره فينبغي لكي يابني أن تسير هذه السيرة وتقتفي هذا الأثر.

القسم الثاني: أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه[1]

وينبغي أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه دون رعيته، صارفا همه إلى الآخرة، غافلا عن أمور الدنيا، لا يبحث عن عماله المقدمين لأعماله، ولا ينظر في ظلمهم لرعيته، ويرى أن عماله على منهاجه وطويته، ويحسن فيهم ظنه، وينظر أنهم لا يخرجون عما حده وسنه، ويرى أن ذلك من عدله، ومما يعد من فضله وجميل فعله.

يروى أن ملكا من الملوك كان عادلا في نفسه وخاصته يتشاغل بالعبادة ويأخذ في الانقطاع والزهادة حمل الناس على العدل فظن أنهم مجبولون على الفضل فلا يصل إليه إلا علم بلده دون البلاد البعيدة التي تحت يده فضاعت الرعية لعبادته، وتضرر كل من تحت ايالته حتى خرجت بلاده واحتقره عماله وقواده، فكان سبب خراب ملكه وذهابه.

القسم الثالث:أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة من غير خـــــرق ولا أحداث زيادة، مقبلا على أموره الدنيوية وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخرويـــــة.

فهذا يابني عدله متوسط وهذا كثير في ملوك زماننا.

1 - العنوان من إضافتنا.

القسم الرابع: أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة[1]

هذا وإن كان ضد الأول وهو أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة، وهذه خلافة فرعون، فرعونية، يجور على رعيته ويعاملهم بخبث نيته، فيأخذ بالجناية غير الجاني، وينجز في المظالم من غير توار، ويغلب شهوته على عقله، وجوره على عدله، وينهمك في لذاته، ويبالغ في شهواته.

فهذا يابني ملك لا يعدل في نفسه ولا في رعيته ولا أحسن في ظاهره ولا في باطنه؛ ومثل هذا يكون ملكه سريع الخراب ، وهلكه وشيك الاقتراب.

وهذا يابني مثل الوليد بن عبد الملك قال: كان عمر بن عبد العزيز يذكر الظلمة فيقول: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وقرة بن شيك[2] بمصر، وعثمان بن حيان بالحجاز، ومحمد بن يوسف باليمن، امتلأت الأرض جورا؛ فأما الوليد فقال عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: رأيت أبيات النبى صلى الله عليه وسلم وعليها المسوح السود؛ فلما قدم الوليد بن عبد الملك المدينة نظر إلى أبيات النبي عليه السلام فقال: مابال أبيات النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها الجنب والحائض اهدموها؛ فقال حبيب ابن عبد الله بن الزبير: عمد إلى ءاية من ءايات الله تعالى فمحاها، فبلغت كلمته إليه فكتب إلى خليفته على المدينة: أقم حبيبا على باب المسجد واضربه مائة سوط، وأقمه على البئر الذي على باب المسجد يترع بالبكرة ويصب في الحوض، فأخرجه وضربه مائة سوط وأقامه على البئر، وكان يوما شديد البرد فمات.

وكان الوليد الهتار مخلوع العداد لا يرعوي لعدل عادل، ولا يسمع النصح لقول قائل حتى انتزع ملكه، وتبرد سلكه.

فهذا يابني لم يصلح دنياه ولا أخراه ولا ظفر بطائل مما تمناه.

---

1 - العنوان من إضافتنا.

2 في النسخة الحجرية: قرة بن شريك.

الفصل الرابع:

القاعدة الرابعة، وهي قاعدة جمع المال والجيش

وإنما جعلنا الجيش والمال معا قسما واحدا لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، ومطلوب بمطلبه، فلا مال إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، وأصلهما العدل، لأن العدل يجمع المال، والمال يكفل الجيش، والجيش يحوط الرعية.

فإذا ثبت هذا فاعلم يابني: إن الملك بالنسبة إلى ذلك على أربعة اقسام:

القسم الأول: (أن يجمع)[1] الملك والجيش والمال بقدر ما تحب إيالته من البلاد، وماله من الأقاليم والأعداد لا أقل من ذلك ولا أكبر ولا أصغر.

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر اعدادك، فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا تكون مفرطا لئلا يتعذر عليك الحال، لأنك إذا ضعف مالك كثر جيشك بل همك وتنكد عيشك، وصار عليك جيشك اعوانك، وأصبحت لقلة ذات يدك مهانا فيدعوك طلب الجيش إلى طلب الرعية، وإذا طلب الرعية فسد ملكك بالكلية، وإن كنت قليل الجيش كثير المال كان ملكك صائرا لاختلال، فإنه ربما تدعوك الضرورة وحوادث من اعدائك كثيرة منها: أن يريد عدوك الاستيلاء على بلادك ويحتقرك لقلة أجنادك، فيأخذ الأمر على حين غفلة، ويعتريك العدو دفعة، ولا تجد مهلة فتلتمس ضم الجيش بما عندك من المال فلم تجده في نفس الحال، ولا من يأخذه منك ولا يصدر بنفسه عنك.

واعلم يابني أنه ينبغي لك أن لا تنفق مالك إلا في حقه، ولا تخرجه إلا في مستحقه، ولا تعطيه إلا فيما يصلح عنك ويجلب المنفعة إليك، ولا تسرف فيه في لذات دنياك، ولا في محارب لا تصلك إلى هواك؛ كالخروج عن الحد في الزينة

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

واللباس والبناء المفرط، الخارج عن القياس؛ فإن خير الأمور أوسطها، وأحسنها أوفقها وأضبطها.

يابني ينبغي لك ألا تعطي لغير فائدة فإن تلك سجية فاسدة، ولا تعطي ألفا لمن يستحق مائة، ولا مائة لمن يستحق ألفا، فإن فعلت ذلك كان ظلما وسرفا. يابني إياك أن تحملك شهوة الشكر على بذل المال فيفضي بك ذلك إلى الإقلال، فإنه إذا نفذ المال نفذ الشكر.

يابني إياك أن تحتقر ما تجمعه من المال، لا من كثير ولا من اقلال، ولا تتسأهل بإخراجه وإن سهل عليك جمعه من خراجه، فرب بحر تجمعه من نقطة، ورب مستبحر يرف[1] بالترح[2]؛ فإن التبذير يؤدي إلى التدمير، والإمساك يؤدي إلى الهلاك.

فليكن يابني مالك موازيا لجيشك، ومقاوما بجندك، فقد يحدث في الزمان اعتلال من غير عدو ولا قتال، مثل أن يكون قحط في البلاد أو ثوران فتنة تؤذن بالفساد فتجد ما ترجع إليه من المال يقوي جيشك ويعتمد عليه؛ فإن كانت الفتنة فيضعف عليك العدو، وتسكنه إذا ظهر العتو، وإن كان القحط استعنت به على الرعية وانفقته في حقوق الرعية، فلا تؤثر في مملكتك فتنة ولا قحط ومحنة، ولا يبلغ الرعية حيف ولا ضغط ، استغناء بمالك وتدبيرك وسياستك، وضبط أمورك.

وقد ذكرنا لك ترتيب خدمك وجيشك في قاعدة السياسة فلنذكر الآن جمع الجيش وكيفيته وحصره وكميته.

يابني ينبغي لك أن تتشاغل بجمع أجنادك، وتوفير احشادك واعدادك، وترتيب خدمك وقوادك؛ فتعدهم في زمن الرخاء لتجدهم عند الشدة والإواء.

---

1 – ورف يرف ورفا ووريفا، أي: اهتز واشتدت خضرته الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 283.

2 – الترح بالتحريك: البئر التي نزح أكثر مائها. ابن منظور، لسان العرب، م س، مادة نزح.

يابني عليك باستسلاف قلوب الأنجاد من قبيلتك، ومشاركتهم في كثيرك وقليلك، واصطنعهم بالإحسان، ولا تغلظ عليهم فيضمروا لك الشتات، واخفض لهم عند الاحتياج الجناح، وعامل من أظهر لك العداوة منهم بإظهار المودة، وسايسهم حتى يرجعوا إلى حزبك، فإنك تبلغ منهم بحسن المحاولة ما لا تبلغ منه بقبح المعاملة، وتنال بالسياسة واللطف ما لا تدركه بالغلظة والعنف، فإن اصطناع الأعداء مكيدة واستجلابهم بالخير ضرورة وكيدة.

يابني ينبغي لك أن تدخل الدواخل بين بعض اعدائك لتهد بذلك جانب اعدائك، ولتوقع الشتات في قلوبهم، وتصدعهم عن مطلوبهم؛ فإنك إذا ادخلت بينهم الدواخل، وجعلت أسافلهم عوالي وعواليهم أسافل فتطمئن من جوانبهم، وتنحسر عواقبك بسوء عواقبهم، وتأمن من غوائلهم وشواغلهم، فيكون كل واحد يتحرز من صاحبه ويطلب سقطة يوقعها في جانبه، فيعلمك بما انطوت عليه أسراره، وما تحدث به صاحبه اضماره؛ فإذا تشاغل بعضهم ببعض وتشاجروا في رفع وخفض رجعوا إلى صداقتك واصطفائك، ودخلوا في حزب أوليائك، ومالوا إلى جانبك وإن لم يكونوا من أصحابك؛ لأن كل واحد منهم يحذو من صاحبه، ويخشى من سوء عواقبه.

فهذا يابني مما يوجب ضم الجيش بعضه إلى بعض وسلامه من الاختلاف والنقص.

يابني ينبغي لك أن تكون في (كل)[1] سنة تدرك جيشك وتدبر أمرك وترتبه شيئا بعد شيء، وذلك بقدر تنمية المال وتكثيره، وضعفه وتوفيره، وعلى قدر الاستطاعة والسياسة، والحركات والرياسة، لأن زيادة المال والجيش للملك تنويه بملكه وزيادة في نظم سلكه، فيعظم قدرك في أعين أوليائك، وتقطع رهبة في قلوب اعدائك وقل أعوانك، ونقص ملكك وتلاشي سلطانك.

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ويكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيناتهم وشجاعتهم وسباقتهم للخدمة، واصطناعاتهم وصحبتهم وانقيادهم، وألفتهم واجتهادهم.

وهؤلاء أهل الطاعة والمحابي والبلاد وهم القبيل والجماعة بل الحماة والأعضاد والأنصار، ما عدا مماليكك والمنقطعين إليك، المتصرفين في الخدمة بين يديك، فإن جرياتهم في المرتب مشاهرة، وأرزاقهم من بيت المال مياسرة، جريا على توالي الشهور، وهم عندك في جرياتهم على قدر طبقاتهم؛ فأصحاب البلاد يجبونها في أوقات معلومة على حسب ماهي عليهم مقسومة، وذلك بقدر مايقيم أولادهم ويصلح أهلهم وأودهم وخيلهم وعددهم، ثم تتفقد أموالهم جهد استطاعتك ليستمروا على خدمتك وطاعتك، لأن من فرط في جيشه أعان عدوه عليه، ومن تحفظ به فلا يجد العدو سببا إليه.

وبالإضاعة والتفريط فسد كثير من الملوك فأخرجوا على الملك و المملكة، كما اتفق لبني أمية وبني العباس، وكلمتونة والموحدين والشيعة والعبديين، لما اهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير، وركنوا إلى اللذات والتبذير.

القسم الثاني: أن يكون الملك يشتغل بجمع المال ويفرط في الجيش[1]

فهذا حاله غير محمود، وفعله عليه مردود؛ فإنه ربما دهمه عدو أقوى منه فيوشك أن يطلبه ولا ينفك عنه، وإن كان أضعف منه في المال فهو أشد عليه في القتال، فإن العدو يستهين عليك بقوته وكثرة جيشه وشدته، فتأخذ بلاده وتنال اطرافه وبلاده فتكون ذلك سبب خرابه وذلته واكتئابه، لأنه يطلب لمن يعطي المال فلا يجده في نفس الحال، فتدخل عليه الآفة من هنالك فلا يصل بالمنى، وإن اعطى المال فإنه لا يقبل منه ولا ينفعه، ولا يرد عنه بأسه ولا يدفعه، فإن الناس تعودوا منه قلة العطاء في الشدة والرخاء، وأن همته مصروفة بجمع الأموال، مجبولة على قلة

1 - في النسخة الحجرية: ويفرط في الجيش والرجال

الإبذال، فمثل هذا الملك كمثل التاجر المجبول الميول على جمع (المال)[1]، الكادح لغير ولده، الجامع لغير ما ادخره من عدوه.

يروى يابني في اخبار بعض الملوك أنه كان له وزيران أحدهما يشير عليه بجمع الأموال والآخر يشير عليه باصطناع الأبطال؛ فقال أحدهما: أرى أن الرجال إن تفرقوا عليك اليوم فإنك بمالك تجمع كل القوم، فإنه متى احتجت إلى الرجال وعرضت عليهم الأموال جاؤوك من كل مكان، وقضيت الغرض بهم في أي منهم كان، فقال له الملك: ألهذا من شاهد؟ قال: نعم هل بحضرتنا الساعة ذبابة؟ قال: لا، قل فأمرنا بإحضار جفنة عسل فحضرت، فتساقط عليها الذباب لوقتها، فاستشار السلطان بعض اصحابه فنهاه عن ذلك وقال: الرأي الذي يبلغك غاية آمالك أن تصطنع الرجال وتعد الأبطال، فليس في كل وقت أردتهم يحضرون، ولا إذا أهملتهم ثم تطلبهم فينظرون، قال: هل لهذا من دليل؟ قال: نعم؛ إذا امسينا أخبرك وأبرهن لك ما يذكرك، فلما أظلم الليل قال الملك: هات الجفنة من العسل فأحضرت فلم تحضر ذبابة واحدة ولا ظهرت؛ فالفتنة ليل فأعد لها الرجال والخيل.

فينبغي لك أن لا تفرط في الجيش والمال كما ذكرناه، فإن الجيش والمال أمران متلازمان إن ضاع أحدهما ضاع الآخر.

وقد سمعنا عن بعض ملوك مصر اسمه بلدفور كان يجمع الأموال ولا يحفل بالرجال؛ فقال له اصحابه إن أمير الجيوش بالشام يتواعدك وكأنه قد قدم عليك، فاستعد الرجال وأنفق الأموال، فأومأ إلى صناديق موضوعة عنده وقال: الرجال في الصناديق؛ فغزا أمير الجيوش ذلك الملك في مصر فقتله، ولم تسلم الصناديق ولا الملك، وكان رأيه رأيا فاسدا، لأن الرجال لا يقيمهم ويجمعهم عند حاجته إنما يكون أحيانا، وشرذمة ملفقين ليس فيهم عنا[2] ولا عندهم دفاع ولا ممارسة

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - في النسخة الحجرية: ليس فيهم غناء.

الحرب، وكذلك اتفق للسلطان ابن تاشفين حين فرط في جيشه عندما حصره بني مرين مسك يده من العطاء في الحصار، واستعد بالحصر والقليل من الأنصار حتى كاد العدو أن يدخل عليه طلب لمن يعطي المال فلم يلتفت إليه أحد، فلم يجد من يأخذ المال وآل حاله إلى ذلك المآل دخلت عليه البلد عنوة فذل بعد العزة والنخوة، فاياك يابني أن تفرط في الجيش اعتمادا على المال فإن ذلك مفسدة على كل حال.

القسم الثالث: أن يكون الملك يشتغل بجمع الجيش ويفرط في المال

وهذا ايضا غير محمود الفعال، اعلم يابني أنه لا يقبل لك عذر في قلة العطاء، ولا حجة لك في ذلك عند الأولياء؛ لأنك ربما دهمك أمر عدوك، مواز لك، يكون في الجيش مثلك وأقوى في المال يريد أن يدخل عليك بعض إخلال فيعطي المال لجيشه، ويخدع جيشك بماله وغشه، ومثل هذا مثل من قوى عدوه عليه وجلب هلاك إليه، وهذا مثل مصعب ابن الزبير مع عبد الملك بن مروان، وكيفية ذلك: أن مصعب لما التقى مع عبد الملك بن مروان كان عبد الملك كاتب أصحاب مصعب وبعث إليهم أموالا ووعدهم الأماني إن غدروا بمصعب، وكان في جملتهم ابن الأشتر وهو يعده بولاية العراق إن غدر بمصعب، وقال له ابراهيم: ما كتب لي عبد الملك حتى كتب لجميع أصحابك، وماهو في أحد أقل طمعا مني فهل اطلعك أحد منهم على ذلك؟ فقال: لا، قال: فارسل إليهم واضرب اعناقهم فإنهم كتموا عنك خبرا كتبه إلا وقد عزموا على غدرك، فقال له مصعب: لا افعل هذا من غير أن يصح عندي. قال: فارسل فيهم وثقفهم، قال: إذا لا يناصحنا أحد منهم من عشائرهم، يا أبا النعمان يرحم الله أبا بحر، يعنى الأحنف ابن قيس، أنه كان يحذرني غدر أهل العراق.

ثم إن عبد الملك زحف إلى مصعب فالتقيا بالجاثليق[1] فقتل إبراهيم فقال مصعب لقطن بن عبد الله الحارثي: احمل عليكم أبا عبد الله في خيلك، قال: لا ترى ذلك؟ قال: ولم؟ قال: لأني أكره أن يقتل من صح في غير شيء، ثم قال لحجر بن بحرا يا أسيد قدم رأيتك، قال التقدم إلى هؤلاء أو قال ما يتأخر إليه والله أكثر لوما، ثم قال لمحمد بن عبد الرحمن: تقدم، قال: ما أرى أحدا يفعل ذلك فافعله، فقال مصعب يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، يعني إبراهيم بن الأشتر لما كان أشار إليه بما أشار ولم يسمع منه، وعلم أنه كان ناصحا له من بينهم، ثم قال لابنه عيسى بن مصعب: الحق بعمك بمكة فاخبره بما صنع بي أهل العراق، ودعني يابني مقتولا، فقال والله لا تتحدث في قريش إني اسلمتك للقتل أبدا، قال: تقدم يابني بين يدي احتسبك فإني كنت اعرف منك الكرم وأنت في مهدك، فتقدم حتى قتل، فحول أهل العراق وجوههم وصاروا مع عبد الملك وبقي مصعب في شرذمة قليلة، وجاء عبيد الله بن زياد بن طبيان وكان من أصحابه فقال له: اين الناس يا أمير المؤمنين غدروا بل ما اغدركم يا أهل العراق؟ فرفع يده عبيد الله ليضربه فبارزه مصعب وضربه على البيضة[2] فشب السيف في البيضة، فجاء غلام لعبيد الله فضرب مصعب فقتله، ثم جاء عبيد الله برأسه لعبد الملك بن مروان.

فلما نظر عبد الملك لرأس مصعب خر ساجدا، فقال عبيد الله بن طبيان: ما ندمت على شيء ندمي على عبد الملك حين خر ساجدا، اذ لم أكن أضرب عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد.

فلا تفرط يابني في ملك فيؤدي ذلك إلى اختلال حالك وتخونك اعوانك، ولو أنهم إخوانك، كما فعل أهل العراق بمصعب المذكور حين اسلموه وفروا عنه.

---

1 - الجاثليق: من أرض السواد بالعراق.

محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط 2، 1980 م، ص 155.

2 - البيضة: الخصية، انظر الرازي، مختار الصحاح، م س، ص 86.

القسم الرابع: ضد الأول، وهو أن يكون الملك يفرط في الجيش والمال، ولا تصرف همتك في ملكه إلى إصلاح حال

وهذا يابني في الملوك مرفوض معكوس الآراء منقوص، لأنه اشتغل بالانهماك واللذات والمباني والزخاريف والترهات واللهو واللعب والفتك والطرب والحنين للقينات[1] والآلات، والاستغراق في كل الحالات؛ فهذا يابني ملك افسد ملكه بيده، وأعان عدوه على أخذه ونكده.

يابني اعلم أن من يكون على هذا الحال لا يرجى له عاقبة مثال، ولا يدوم له سلطان ولا يعمر له أوطان لسوء فعله وتفريطه في جيشه وماله، واستغراقه في لذاته واشتغاله، وهذا سبب خراب بني أمية واستيلاء بني العباس عليهم بالكلية.

واعلم يابني أنه مازال أمر بني أامية مستقيما حتى افضى إلى أبنائهم المتوفين، فكانت همتهم من عظم شأن الملوك وجلالة اقدارهم من قصد الشهوات وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله سبحانه وسخطه، جهلا منهم باستدراج الأمن وأمنا من مكره، فسلبهم الله العز وأزال عنهم النعمة.

قال عبد الملك بن مروان، هذا هو المعروف بمروان الحمار، وهو آخر ملوك بني أمية: لما زال ملكنا وهربنا إلى أرض النوبة فيمن ابتغى من أصحابي فسمع ملك النوبة بخبري فجاءني وقعد على الأرض، ولم يقعد على فراش افترشته له، فقلت له: ألا تقعد على ثيابنا؟ فقال: لا، قلت: ولم؟ قال: لأني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لله سبحانه إذا رفعه الله، ثم قال لي: لم تشربون الخمور وهي محرمة عليكم؟ ولم تطئون الزرع باقدامكم والفساد محرم؟ ولم تلبسون الحرير والديباج وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرم عليكم؟ فقلت له: لما قل أنصارنا بقوم من الأعلاج دخلوا في ديننا ولنا عبيد واتباع، فعلموا ذلك على كره منا ، فأطرق مليا

---

1 – القينات أي الإماء المغنيات، وتجمع على قيان.
ابن منظور، لسان العرب، مادة قين.

يقلب كفيه وينكث في الأرض، ثم قال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وطلبتم فيما ملككم فسلبكم الله العز بذنوبكم، ولله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي.

يابني لازم التقوى وتجنب اللهو والهوى، ولا تغتر بالدنيا، وكن حازما في جيشك ومالك تبلغ جميع آمالك إن شاء الله تعالـــــــى.

الباب الثالـــــث: في الأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله .

وهي قواعد أربعة: الشجاعة، والكرم، والعفو، والحلم؛ وهذه غرائز وطبائع يضعها الله سبحانه في من يشاء من عبــــــــاده.

الفصل الأول: القاعدة الأولى، وهي الشجاعة

اعلم يابني أن الشجاعة وصف محمود وبها يتفاخر الوجود، وخصوصا في الملوك فإنها لمآثرهم كالوسائط في السلوك.

وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عند المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التقى.

يابني إذا وضعت قتالك في موضعه وحذرت ما يتقى من مصرعه كنت شجاعا كاملا، وفي الحروب شهما باسلا، وإن تركت الحذر في حين القتال وتوكلت على شجاعتك في ملاقات الأبطال، والمباشرة بنفسك للأهوال كانت شجاعتك هرجا، وقوام حربك عوجا.

واعلم يابني إذا كان الملك شجاعا كان منصورا مطاعا ترهبه الأعداء، وتطمئن به الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب؛ فالشجاعة يابني مملكة للمحاسن محبوبة في كل المواطن، فرب الشجاعة بالرعب منصور، وفي زمانه معظم مذكور.

وينبغي لك يابني وإن كنت شجاعا أن تتحذر الوقائع التي تخاف فيها المصارم، واعلم بأن الشجاعة والكرم أخوان، ودليلهما أن الشجاع يجود بنفسه فأحرى أن يجود بماله، والبخيل يبخل بماله، فكيف يجود بنفسه في حاله.

والشجاعة تنقسم على أربعة أقسـام.

القسم الأول: الشجاعة التي يصحبها الرأي

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تكون حاضر الذهن عند الملاقات رابط الجأش عند تلاقي الساعات لا تزحزحك الرياح العواصف ولا ترهبك القواصف ولا الحروب على اختلاف أنواعها ومعظمات إيقاعها.

وقد قدمنا أنه لا ينبغي لك أن تخاطر بنفسك ولو كنت أشجع أبناء جنسك، فإن المخاطرة غير محمودة إلا في طلب الملك والسلطان فإنها محمودة كل أوان. يابني إذا اقتحمت القتال واختلط الأبطال بالإبطال فغايتك أن تكون حاكما على نفسك، صابرا ثابتا في جيشك، ناظرا على ساقاتك التي هي قلب جيشك، فيلتزم بها الثبات، ولا تزحزح إلى جهة من الجهات، ولتشد بثيابك الأنجاد والحماة والمقاتلين والكماة[1]؛ وإن انكسر أحد الجانبين من جيشك فلا تهتم به ولا تنتقل بسببه؛ فإن انكسار الجانبين مع ثبات القلب لا يضر، والصبر في مثل هذا عائد عليك (بما)[2] يسر؛ لأنه إذا كانت رايتك القلب تخفق، وطبوله تزاهر كان ذلك حصنا للجانبين، وأمانا للعسكر من الجبن، وأرجى للظفر بالعدو، وعند خروج الجانبين.

يابني إذا لاقيت عدوك في الحرب فاجعل رأيتك أمامك، ونظرك أمامك، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا؛ فإن الالتفات يورث خبالا ،لأنك ربما رأيت في أحد الجانبين انكسارا فيتشوش خاطرك، ويدعوك الشره ابتدارا فتميل إليهم بمن معك من العساكر، فيكون ذلك سبب فسادك في الباطن والظاهر، لأن ميلانك سبب الفساد، وخروجا عن الاقتصاد، لأنه إذا رءاك جيشك ملت لأحد الجهتين حسبوا أنك منهزم دون ميز، مع أنك لا تقدر على جبر الجانب الذي انهزم، والركن

---

1 – الكماة: الحفاة، تقول: كمئ الرجل، إذا حفى و لم يكن عليه نعل.
انظر: الجوهري، الصحاح في اللغة، م س، ج 2، ص 123.
2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

(الذي)[1] تلثم لما دخل الرعب قلوبهم، وفسد التزحزح أسلوهم؛ فالذي يجب عليك أن تجمع خاطرك، وتثبت في عدوك ناظرك، مصمما إليه، عاملا في اللقاء عليه.

يابني لا تخل شجاعتك عن الرأي تنجح مطالبك في كل سعي يرجى لك الظفر والنصر والاستيلاء على العدو والظفر.

يابني رتب جيشك يوم الحرب واللقاء؛ فإن في ترتيبه إرهابا للأعداء، وهيئه تهيئا حسن الانتظام، مضبوط الأنقسام على أربعة أقسام: ميمنة من حماة أنجادك، وميسرة من كفاة اجوادك، وتقدمة من أبطال فرسانك، (وساقة)[2] من أسود شجعانك، وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقدما مرغاما، فأما التقدمة فتقدم منهم فرسانا بين يدك يكونون في نحر العدو إذا قصد إليك ، من أنجاد قبائلك الشجعان وأهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان، وتقدم عليهم قائدا من الأبطال الخائضين بحور الأموال، واجعلهم على قسمين: قسم يلي الميمنة بين يديها وقسم يلي الميسرة بين يديها، ويكون قتال كل قسم من هذا القسمين الذين في الجهتين مستندين لمن خلفه من الميمنة والميسرة، فتكون الأجنحة بأولئك الحماة منتصرة، وأما الساقة وهي قلب جيشك فاعلم يابني أن الساقة توازي الميمنة والميسرة فإن القلب يوقف الجيش ويشده، ويصد العدو ويرده، فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والنجدة والكفاية والشدة من كل بطل مقاتل وشهم في الحروب باسل، تخافهم الأبطال وتتقيهم أسود النزال، فترتب هذه الساقة وتجعل عليها من زعماء خاصتك الأنجاد وحماتك الأسود الأفراد قائدا عن يمينها وقائدا عن يسارها، ويضبطانها ويحفظانها في إقبالها وإدبارها وإيرادها وإصدارها، لتبقى الساقة موفورة وحماتها مضبوطة محصورة، بحيث لا يقبل أحد من الساقة ولا يختل ولا يتزحزح ولا

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

يتحول، ولو أنكستها الميمنة والميسرة فإن الساقة تبقى معه على حالها، منعقدة بحماتها وأبطالها.

وليكن تشوفك على عدوك غير ملتفت كما قلناه ولا ناظرا لشيء سواه، وتوكل في جميع أمورك على الله تعالى.

يابني وينبغي لك أن تتخذ فرسانا بين يديك تقتد بهم إذا اقبل العدو إليك يكونون[1] يواجهون عدوك وساقته إذا عزمت على ملاقاته، لأنك عند التقاء الجمعان[2] وتزاحم الصفين تلتبس عليك جهة العدو ولا تدري العدو من الصديق، لأنهما إذا اختلط الأبطال بالإبطال وارتفع القتام[3] ارتفاع الأول، والتفت الصفوف ورجفت الرجوف فهنالك يابني تحتاج إلى فرسان الاقتداء وأرسال الاهتداء يعلمونك بجهة عدوك فتقصده متوجها إليه، عاملا بأنصارك عليه، فإن التبس على الأبطال الذين بين يديك جهة العدو ولا يدرون البعد من الدنو، ولا أين تقصد إليه ولا من أي جهة تحمل عليه من اجل اختلاط الناس واقتحامهم وإقدامهم، ثم انكشف غيهب[4] العجاج، وظهرت من الجانبين أسود الصياح، فتبين لك العدو إما عن يمينك وإما عن شمالك غير مواجه لك في إقبالك، فينبغي لك أن تسير سيرا رفيقا تلقاه ،وتحاول في انفتالك مواجهة إلى أن تقصد لقاءه، وليكن ذلك بين توقف وإمهال بحيث لا يشعر جيشك في الانتقال، لأن في ذلك فائدة عقباها بالنجاح لك عائدها، وهي إتراك عدوك مع ثبوت ساقتك ووفورها وعدم تزحزحها ونفورها، فربما ينتقل عدوك بسرعة إليك يريد الهجوم عليك، فيكون ذلك لسبب فساده وانهزامه وقهره وإرغامه، لأن الانتقال في الحروب مؤذن

---

1 - في الأصل يكون، وفي النسخة الحجرية يكونون، وهي الصواب.

2 - في الأصل الجمعان والصواب الجمعين.

3 - القتام: الغبار. والقتمة: لون فيه غبرة وحمرة.

الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 2، ص 62.

4 - الغيهب: الظلمة، والجمع الغياهب.

الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 2، ص 27.

بالأنهزام وفوت المطلوب، لأن الميمنة والميسرة ناظرة للقلب، وعليها المعول في الحرب، فإذا رأى أهل ميمنة الجيش وميسرته أن العلامات انتقلت والساقة تحولت انتقلت الميمنة والميسرة انتقال القلب الذي هو مركز مدار الحرب، فإذا رأى المقاتلون أعلامهم انتقلت وساقتهم انفشلوا وانخذلوا، وطلبوا الفرار لئلا يقتلوا، وظنوا أن ملكهم قد انهزم وأن جمعهم قد أنخرم فيفرون من وجه المعترك، وتقل النجدة ومعظم الحركة، فتختل الساقة باختلالهم، ويفشل الجيش لانفشالهم؛ وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى على من عرف مواقف الطراد.

وهكذا اتفق لأبي الحسن المريني عند لقائه للفنش الطاغية فكانت عليه الفسدة الناكية؛ وكيفية ذلك: أن السلطان أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستولى على هذه الأوطان وملك المغربين الأوسط والأقصى، وبلغ منها الغاية واستقصى، أخذ في الجواز إلى الأندلس غازيا، يريد أن يكون للإسلام حاميا بعد أن فسد ملك الطاغية النصراني، وأخذ ما كان له في البحر من الطرائد والسواقي، وشرع في الجواز من غير تواني، فجوز ما أعد من الأعداد، وما ولف من الأحشاد والإمداد، ونزل بظاهر الجزيرة الخضراء وأرهب بمجموعة الطاغية وجميع الأعداء، وذلك ينيف على ستين ألفا من الأبطال والصناديد والحماة والرماة والرجال.

ثم زحف لبلد طريف لما جاء معه من التليد و الطريف فترل بها محاصرا لها ولو شاء من يومها لدخلها لكنه امسك عن دخولها للحين المتاح، ورأى أن الإبقاء عليها من السداد والصلاح، وأقام عليها مدة إلى أن اقبل الفنش الطاغية بمن معه من الكفرة الباغية، ولما أتى النصراني للقائه بمن معه من حزب الشرك وأوليائه قصد أبو الحسن إليه لما رأى أنه عول عليه؛ فلما تصافت الصفوف وأقبلت نشأة الحرب للرجوف، والتحم القتال، وتقدمت الأبطال، واشتد الحرب، وتولى الطعن والضرب، نظر أبو الحسن إلى الطاغية متحد عن مواجهته، منكبا على جهته يطلب جانبا من جوانبه ليجد فرصة في مناكبه، فانتقل أبو الحسن إليه لما قدر من المحن

عليه (وكان انتقاله إليه بسرعة يريد الهجوم عليه في مرة واحدة)[1] دفعة، فرآه المقاتلون قد انتقل بعلاماته وسياقته يريد الفنش وملاقاته، فظنوا أنه الهزم، وأن قلب عسكره قد انخرم، فانكسرت الميمنة والميسرة، وكانت عليه تلك الهزيمة المنكرة، انكسر لها الإسلام، وفرحت لها عبدة الأصنام، وذلك بسبب انتقاله وقلة ثباته في قلبه وأبطاله.

فإياك يابني والأنتقال عند الملاقات في القتال فإن ذلك سبب الأنفشال، وقد أخبرتك بهذا المثال.

يابني وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالجملة ولتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة فإنه لابد لكل دفعة من رجعة، ولكل كره من رفعة، ليكن انتهاضك إلى عدوك زحفا، فإنك ترهبه خوفا ورجفا، فإن أبطالك تقاتل بين يديك معتمدة في قتالها عليك، فإن انهزم العدو وفر أمامك ونلت من هزيمته مرامك فلتبادر من فورك إليه، ولا تمهل في مسيرك عليه، ولتكن حملتك خلفك وأثقالك وأسبابك وأموالك، ولتصل في أثره مسيرك في ليلك ونهارك، حتى تنال من عدوك غاية اختيارك، فإنك إن بادرته أخذت إقلاله ،وحويت أثقاله، وقتلت حماته وأبطاله، وربما قعد بالعدو جواده وخانته اجواده ، أو كبا حصانه، أو عثر أو دهش وتعذر، فتظفر بعدوك من غير تحرير طلب، ولا تكرير تعب، وان نجا العدو برأسه وفر بنفسه، ثم وصل إلى أمنه وحصنه الذي عول عليه، لأنه لا يصل إلا في جهد وضعف وتزلزل، وزحف منقطعا عن حماته، منفردا من أنصاره وولاته، فيسهل لك أخذه من غير تطويل، ويتسنى لك الامتلاء عليه من غير تعجيل.

يابني وان كان الأمر إليه لا إليك، وتفرق جيشك من بين يديك، ولا ترتجي له خيرا ولا عوده ولا عطفه ولا نجده، ولم يقف عليك أحد من حماتك ولا من قوادك ولا من أنصارك ولا أجنادك، فحينئذ تحتاج إلى جوادك الذي أعددته، وإلى

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

وزيرك الذي تخيرته واستحسنته، فتنفرد بوزيرك المخصوص بتدبيرك، المشاور في قليلك وكثيرك، فتقصد معه إلى معقلك الذي أعددته لحصارك، واستخلصته لحالك ولأنصارك، فإذا استقررت في حصنك الذي هو موضع أمنك ومنشأ سلطانك وقاعدة بنيانك، فتتحيل على عدوك بأنواع الحيل وضروب المكائد التي تبلغ بها الأمل، وتأخذ في مدافعته عن حصارك، ولا تغفل عنه في ليلك ولا نهارك، ولا تكل أمر معقلك إلى أحد من خدامك، و لتباشره في كل أيامك.

فإذا كنت يابني بهذه المثابة في الاجتهاد فلا يتصل منك العدو بمـــــــراد.

القسم الثاني: من الشجاعة ما يصحبه العقل دون الرأي

وهو أن يكون الملك عاقلا في نفسه يقظانا في أحواله، دهقانا غير طالب فتنة، ولا خالف محنة، يشتغل بآخرته، ويغفل عن رعيته، ولا ينظر في أمر جنده، وفي شأن من دخل في عهده، ويرى أنه من زهده، ولا يضر أحدا من الأعداء، ولا تصله يد الأعتداء، حتى إذا نزل به أمر، وساءه من عدوه مكر، أظهر حينئذ شجاعته وبدأ براعيته، وذلك حين لا ينفعه إظهارها، ولا يستحر له نارها، ولا يغنيه استحقارها.

فهذا يابني شجاعته غير محمودة، ومنقلة النجابة معدودة؛ لأنها شجاعة عن الرأي قاصرة، فهي مذمومة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: أن تكون شجاعته غير مفرطة بل بين ذلك متوسطة

فهذه يابني شجاعة محمودة الأثر، جميلة السير وإن كان الذي في قبله أشجع منه فهما يقصران عنه فإن الشجاعة المتوسطة إذا صحبها الرأي لا يكون صاحبها إلا ناجح السعي لأنه يحاول برأيه ما لا يحاول بشجاعته وينتفع بنفسه إن نجا إلى براعته فبرأيه يقص عن الحروب ويبلغ غاية المرغوب لأنه يحاول في دفع المكاره ويلاقي ملاقاة الأسد الشاره، فهذا يابني إذا حل به كرب أو دهمه من عدوه خطب لا يرجف له قلب، ولا يداخله رعب، هذا وإن لم يبلغ في شجاعته الغاية فهو

تدبيره في غاية النجابة الكافية، كصاحب القسم الأول قدمناه، وبالشجاعة والعقل ذكرناه.

فمثل هذا يابني إذا كان الأمر عليه واحد من رايته ما يرجع إليه، فهذا أحسن حال من الذي قبله وإن لم يكن في الشجاعة مثله.

القسم الرابع: الشجاعة التي لا يصحبها عقل ولا رأي

فهذا يابني شجاعة مذمومة وبالجهالة موسومة، وهي في الحقيقة هدر، والعمل بها خطر، لأنه إذا كان جره[1] لا يتمالك أن ينغمس في القتال، ويلمح بهروه[2] في معمعة الأبطال من غير رأي ولا نظر في الأمور ولا تقدير.

فمثل هذا يابني أوله للمك وآخره لزوال الملك.

---

1 – في النسخة الحجرية حرب بدل جره.
2 – هراء، هرو اهرا الرجل في منطقه إذا لم يكن لكلامه نظام، ومنطق هراء كثير.
الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 319

الفصل الثاني: القاعدة الثانية، وهي قاعدة الكرم.

الملك إليها بالنسبة إليها على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الملك كريما متوسطا[1]

اعلم يابني أنه ينبغي للملك أن يكون كريما متوسطا لا مقترا ولا مفرطا.

يابني ليكون كرمك على نفسك ورعيتك من غير تبذير ولا إسراف في التقدير، فإن ذلك هو الكرم المحمود، والذي يستعمله أهل الديانة والجود، لأنك يابني إذا كنت كريما تحبك النفوس، وتميل إليك القلوب، وتخضع لك الرؤوس، وفي الحديث:(جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)[2].

والإحسان أملك شيء للإنسان، والكرم من الشجاعة، والشجاعة من الكرم. وبصفتيهما يتصف كل فرد علم، كما أن البخل من الجبانة، والجبانة من البخل وبصفتيهما يتصف كل لئيم، وكل واحد من هذين[3] الصفتين يرجع إلى أصل يحكم به عليهما: حكم الفضل؛ وذلك أن الشجاع يابني يجود بنفسه فأحرى أن يجود بماله، والبخيل يبخل بماله فأحرى أن يبخل بنفسه؛ فتأمل هذا المثال يظهر لك المقال.

يابني فمن كان كريما شجاعا كان محبوبا مطاعا، يجد من يعضه في المهمات والحروب، ويفرج عنه نوازل الكروب، ويفديه بنفسه، ويود دونه حلول رمسه[4].

يابني وإذا كان الملك شجاعا بخيلا كان في شجاعته دليلا يسلمه قومه في المواقف، ولا يساعده من الشجعان، بل يعد من أهل الحسد والهذيان، فإذا اشتهر

---

1 – العنوان من إضافتنا.

2 – رواه البيهقي في شعب الإيمان، نسخة إلكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع: http://www.alsunnah.com، باب قصة إبراهيم في المعانقة، ج 18، ص 491.

3 – هكذا في الأصل، والصواب: كل واحدة من هاتين الصفتين.

4 – الرمس: القبرالمستوي مع وجه الأرض؛ قال ابن منظور: إذا كان القبر مدرما مع الأرض فهو رمس أي مستويا مع وجه الأرض. لسان العرب، مادة رمس.

الملك بمكارم الأخلاق هرع له الناس من جميع الآفاق، وكثرت له المادة من أنصاره، وتحلى بالمحامد في أمصاره، وتحدث به في غير إقلاله، بل أقالمه وأنصاره، و(توفر)[1] خيره، وعظم مجده، وقل معانده، وكثر مساعده، وانقهر حاسده، ورحبت أوطانه، وتفاخر سلطانه؛ لأنه يتحلى بصفة من صفات الباري فلا يجاريه في سلطانه مجاري.

فهذا يابني غاية الكرم المحمود الذي يتصف به المتحلي بالجود.

القسم الثاني: أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته[2]

أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته، فهذا كرم غير محمود، ولا هو من الجود، لأنه يقتر على نفسه وأهله، ويرى أنه من جميل فعله؛ اللهم إلا أن يكون ذلك إيثارا على أهل الحاجة، فإقتاره على نفسه ليس بسماحة، فهذه صفة أهل الجود، الذين مثالهم قليل في الوجود، قال الله تعالى في مثل هؤلاء: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

فهذا يابني إذا كان بهذه المثابة ففيه أعظم أجر وإصابة.

القسم الثالث: أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته[4]

أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته، فهذا الكرم يابني غير محمود، والمتصف به متصف بصفة الحسود، فإن هذا الكرم يحمله على أخذ أموال الناس، بل الرعية، وجريانه على غير السبيل السوية، ينفق في لذات نفسه الأموال،

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 – العنوان من إضافتنا.

3 – سورة الحشر، الآية 9.

4 – العنوان من إضافتنا.

ولا يؤثر رعيته بأفضال، ولا يواسي من تعلق به من الإبطال؛ فهذا مسرف في السلاطين، والله لا يحب المسرفين.

فهذا يابني يأخذ من الضعيف والقوي، ولا يبالي بفقير ولا غني، فهذا يابني إذا احتاج إلى المال فلا يجد من أين، كان إسرافه قد أفضى به الجبن.

فإياك يابني والجري على هذا المثال فإنه سبب الهلاك والزوال.

القسم الرابع: أن يكون الملك كريما على نفسه دون خاصته ولا رعيته[1]

أن يكون الملك ضد الأول، لا يتكرم إلا على نفسه، ولا يتكرم على خاصته ولا رعيته، بل يحتكر المال بكليته.

فهذا يابني لا يعد من الكرام، ولا ينتظم في هذا النظام، ومثل هذا لا يترك شيئا للرعية، ولا يجري على السوية، بل يأخذ من مستحق وغير مستحق، وينفق ذلك في المغاني والملاهي والمباني، فلا يجد ما يصادر به دنياه ولا ما يلقي به أخراه، ويرى أنه مع ذلك كريم، وهو في الحقيقة مسرف لئيم، ولا كرم له على نفسه، ولا على خاصته ولا على رعيته، وهذا من سوء فعله وهويته.

فإياك يابني والتحلي بهذه الصفات فإنها مجلبة للآفات.

---

1 – العنوان من إضافتنا.

الفصل الثالث: القاعدة الثالثة، وهي قاعدة الحلم

وفي الحلم من الأوصاف المحمودة والأحاديث المسنودة ما يحصى كثرة ولا يستقصى حصره وهو بالنسبة إلى الملك على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته[1]

أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته، يعاملهم بحسن نية، يحلم عنهم في صغار الجرائم، ويقتص منهم في العظائم، فهذا ملك غالب عقله على هواه، فإنما فضله على سواه.

فهذا يابني هو المحبوب عند الناس، الكثير الحلم والإيناس، يحبه الضعيف على حلمه، وصفحه عن صغير جرمه، فرعيته مأمونة، الغالبة لحسن سيرته، سالمين لمجاوزته عن زلاتهم وصفحه عن هواهم، بل هفواتهم، فهذا حلم محمود ينتفع به في الوجود، والحلم وصف من أوصاف الباري تعالى، والمتصف به محمود في الآخرة والأولى.

القسم الثاني: أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة[2]

أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة، لا يؤاخذ إلا خاصته خاصة، فمن عمل من الخاصة ذنبا فتستوجب عليه العقوبة عاقبه، ومن عمل من الرعية عملا يستوجب به العقوبة ترك مطالبته، ولا يأخذ من زلاتهم، بل ويصفح عن هفواتهم، وليعاقبهم لضعفهم، وقلة قدرتهم وخوفهم، وضعف عقولهم وحقارتهم وخمولهم، ولاختلاف طبائعهم، ولقلة وقائعهم؛ إلا أن الخاصة ينتقم منهم، ولا يعفو عنهم؛ يرى أن ذلك زجرا لهم وردعا، وكفا عن العامة وقمعا، لئلا يتأذى الضعيف، ويقع من أهل الجناة لهم التخويف.

---

1 - العنوان من وضعنا.
2 - العنوان من وضعنا.

فهذا علم غير محمود، منكور في الوجود، لأن من العدل المساواة في الأحكام بين الخاص والعام، بل الخاص أولى بالحلم في صغائر الجرائم من العامة.

فإياك أن تعفو إلا عن مستحق العفو.

القسم الثالث: أن يكون حلمه على الخاصة دون العامة[1]

أن يحلم الملك عن الخاصة دون العامة، فهذا عين الآفة الطامة.

اعلم يابني أن الخاصة إذا حلم عليها تأذت الرعية منها، وتلاشت أحوالها بالكلية؛ لأنه يابني من العدل في الحلم المساواة بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، وفي العقوبة كذلك أحسن ما يسلك السالك، فإن كان بخلاف هذا فهو الظلم الصراح، الذي ليس يباح فاعلـــــــــــــــــه.

القسم الرابع: أن يكون حلمه مضطربا[2]

أن يكون حلمه مضطربا أحيانا، فأحيانا، تارة وتارة، لا يقف عند حد في أقواله وأفعاله، ولا يأمن أحد من اغتياله؛ فهو طبع المجانين بغير تأمين.

فهذا يابني حلمه مذموم ولو نسب له الحلم، لأنه لا يامن أحد حلمه، ولا من غائلته وسمه، فالعامة تخاف نكاله، والخاصة لا تأمن اغتياله.

1 - العنوان من وضعنا.

2 - العنوان من وضعنا.

الفصل الرابع: القاعدة الرابعة، وهي قاعدة العفو

اعلم يابني أن العفو وصف محمود، وفضل يتصف به أهل الجود، وتألفه الوجود؛ لا سيما في الملوك عند القدرة، فإنه من أحمد الخصال في الشهوة.

والملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة[1].

أن يعفو الملك عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العقوبة، ويجري في ذلك على حسب الأوقات والأشخاص والطبقات، فرب شخص يستحق العقوبة فيعفو عنه، وآخر لا يترك ويقتص منه، وذلك بمصلحة دنيوية لا لأمور أخروية.

يابني ورب شخص لو عوقب لأدت عقوبته إلى الفساد، وآخر لو ترك خرق المعتاد، واقتضت الحال إلى المشاجرة والعناد.

واعلم يابني أنه لا يسع العفو عن هتك الحرم، وإفشاء السر المكتتم، والقدح في الملوك فيما يحل نظم السلك، فمن اشتهر من هذه الثلاثة أصناف بالأخذ بهذه الأوصاف فجزاؤه القتل بلا خلاف.

يابني لا تبق على هذا الحال إلا أن يكون في الإبقاء عليه مصلحة عامة تعود عليك وعلى رعيتك بالمنفعة التامة، فإبقاءه أولى وعفوك عنه حذر وأحرى، فإن الملك إذا عفا لمصلحة العامة فقد أخمد الفتنة الطامة، وشكر على عفته، وحسن ذلك من سنته، وهذا العفو محمود وصفته من الكرم والجود.

يابني والعفو عند القدرة في الخلافة أصل، وفيه مروءة وفضل، كمال وعقد، تصلح من أحوالك ما لا تصلح بمالك، وتدبر بالعفو ما لا تدبر بالسياسة وتصلح بالسياسة، فإنه قد رأينا أصحاب الجرائم العظام التي لا يجب فيها إلا الحمام يجلبهم العفو إلى الإذعان، ويقودهم ما تعودوا من الأمان، فلو بذلت لهم الأموال وأعددت

---

1 - العنوان من وضعنا.

لهم الحماة والأبطال لما قدرت عليهم، ولا توصلت إليهم، فالعفو من تجاوزات الملوك النافعة وخير ما يجعل الإنسان صنائعه.

يا بنـــي لا يترك ملك لولده اسنى من العفو والصدق والصفوة والإحسان، ولا أحسن منه ولا أجمل ولا اسنى ولا أكمل.

يابني من إفشى سرك سرا فعاقبه سرا، ومن إفشى سرك جهرا فعاقبه جهرا. يابني لا تقتل وزراءك إلا بسبب ظاهر للوجود، فإن قتل الوزراء ليس بمحمود، لأن الملك إذا قتل وزراءه أذن ملكه بالخراب.

يابني إذا قتلت وزيرك على أدنى الأسباب كان فعلك غير صواب، ويخشى عليك ما يتطرق لك من هذا الباب، فلا تأمن غائلتك الوزراء، ولا أنت تأمن شرهم على الولاء، فإن في ذلك فساد النظام، ومذمة عند الخاص والعام.

القسم الثاني: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ومن لا يستحق العفو[1]

أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ومن لا يستحق العفو، فهذا عفو غير محمود، لأن من الجرائم جريمة لا يحسن العفو فيها، والعقاب أجمل لتلافيها. يابني ومثال ذلك في إفشاء الأسرار التي لا يقال فيها لأحد عثار، وكذلك هتك الأستار، لأن ذلك في جنابك هضم (وقلة قدرة)[2] وعجز ووصم، وذلك مما يؤذي الوزراء، ومد اليد من الحجاب والكبـــــراء، و فساد ظاهر للبادي والحاضر.

فاعلم ذلك يابني والهمة وتدبره وخذ به وتعلمه

القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا[3]

أن يكون العفو من الملك متوسطا لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا، لا تنتهي عقوبة الجناية إلى مقدار الجناية، ولا يتوصل فيها إلى الغاية، بل يعاقب من وجب

---

1 – العنوان من وضعنا.

2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

3 – العنوان من وضعنا.

عليه القتل بالقرب، ولا يبالغ في الانتهاك والنكب، ويرى أن ذلك عفو، والعمل به مورد (صفو)[1]، فيرى أن ضربه اتقاءه على نفسه، وهو عفو منه إذ لم يلحقه برمسه.

فهذا يابني عفو غير محمود، لا من صفاة الجود، لأنه يابني من استحق القتل فجزاؤه القتل، ومن استحق الضرب فجزاؤه الضرب، وهو الأصل.

فاعلم ما شرحت لك واسلك فيه أحسن مسلك.

القسم الرابع: أن يعفو الملك عمن لا يستحق[2]

أن يعفو الملك عمن لا يستحق، وذلك كمن يهين البار ويكرم العاق، أو من أفشى سرا وهتك الحرمة، ونقض العهد والذمة ثم عفا عنه.

فهذا يابني عفو غير محمود، والإبقاء على هذا ليس من الجود، أو كمن يعاقب حاجبه وكاتبه في الكلمة تصدر عنه غلطا، أو تبدو منه هفوة وسقطا فيعاقبه فيه بالقتل؛ فهذا يابني خلاف الأصل، فإن عفو هذا مذموم وعقوبته مذمومة، وخلافته بالحماقة موسومة، إلا من كان في العفو مصلحة عامة كما قلناه، فيحمل عفوه كما قررناه.

فاعلم يابني والله يرشدك إلى ذلك ويجزيك أحسن المسالك، بمنه لا رب سواه ولا معبود غيره.

واعلم يا بني أن السياسة بها قوام الملك، وهي سبب النجاة من مواقع الهلك. فاحفظ يابني ما شرحنا لك فيها لتصلح به الدولة، وتحسم به كل علة، واحتفظ بذلك ترشد.

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - العنوان من وضعنا.

الباب الرابع:

في الفراسة وهي خاتمة السياسة

اعلم يابني أن الفراسة قوة نفسانية، وأسرار ربانية، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب لها المعلوم كالمحسوس، وينطبع في مرءاتها كل خفي حتى كان الأمر جليا. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه ولده منكسر الطرف بسبب امرأة لقيته، فجاءه وكان غض بصره من حين رأته إلى أن دخل على أبيه عمر رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله عنه: أيدخل علي عبد الله بن عمر وأثر الزنا على وجهه، بل في عينيه؟ فقـــال عبد الله لأبيه: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (قال لا)[1] وإنما هي فراسة المؤمن، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[2].

وينبغي أن تكون فراستك في وزيرك، وكتابك، وجلسائك، وقاضيك، ومفتيك، وصاحب شرطتك، وعمالك، وصاحب أشغالك، وقوادك، وسائر أجنادك، وعدوك، والأرسال المتوجهات من قبلك إلى الملوك أمثالك، والكتب الواردة عليك من العدو وغيره.

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - أخرجه الترمذي في سننه، باب: ومن سورة الحجر، نسخة إلكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع: http://www.al-islam.com ، ج 10، ص 399.

وقد بحثت عن ما جاء في بداية هذا الحديث بكل رواياته بخصوص مقدمته التي ذكرت ابن عمر، ولم أجد فيها تلك المقدمة.

الفصل الأول: فراسة الملك مع وزيره[1]

فأما فراستك في وزيرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك، وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله؛ فإذا تكلم في المسائل المرة بعد المرة، فيما لا ينفع الخلافة ولا يعود عليها بمسرة، مثل تعين لك عند أحد مال، تعرض لك في تركه في نفس الحال، أو ألح عليك في الكلام، أو أظهر لك وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوبات وإقلاله، وقلة وجدانه ورقة حاله، فتعلم أنه أراد منفعة نفسه فأزجره يابني عن مقاله، ومره أن لا يعود إلى مثله، فإن تمادى عليك بالإلحاح وجدّ في ذلك، فتعلم أنه قد رشي على مالك، وإن كف بعد أن زجرته ولم يعد إلى الكلام الذي عنه زجرته، فتعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض، ولا داعية تدعوه إلى أخذ غرض.

يابني وأن كان لك خديم ناصح في خدمتك، موف لجميع حقوقك وحرمتك ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ويغير خاطرك عليه، ويفسد نيتك وقصدك فخذ معه في ذم ذلك الخديم وقل له ما ليس فيه من حادث وقديم، فإن رأيته وافقك على ذلك وسلك في ذمه كل المسالك ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو له طالبا نكبته بكل فعل ذميم، وأن كلامه باطلا وحاله معه حائل؛ وإذا كرر عليك المرة بعد المرة، وتمادى عليك بالذم والمضرة فإن قال قولا وتغافلت عنه، ولم تنتهره وتغافل هو أيضا ولم يذكره ولا أعاد كلاما ولا أكثر له اهتماما فتعلم أن الحق ما قال وزيرك، وإنما هو نصيحك فيه ومشيرك، فابحث على ذلك واختبره، وتأمله واعتبره، تجده إن شاء الله.

يابني لا تسمع كلام أحد في أحد من أول وهلة حتى تأخذه بحكم الفراسة على التفصيل والجملة.

---

1 - العنوان من وضعنا.

يابني إذا أردت أن تتفرس في وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل، فإذا رأيت أدني الأمور يغضبه ويهمه ويكربه، وأدنى الأمور يرضيه وأقلها يسليه، فتعلم أنه ناقص العقل مضطرب الفعل، فإن كان لا يغضب إلا من أشد الأمور، ولا يكترب إلا بأمر مشهور، ويكون راضيا بما يأتيه منه ويتحمله عنك، لكنه يرى بوافر عقله أنك أنزلته تلك المترلة الكريمة، وأحللته محلا، وأردت به تعظيما فيقابل جميع ما يصدر منك بالقبول، ويتلقاه بالسرور والمأمول إلا فيما يغريك، فلا يوافق عليه ويجنح بعقله إليه، فتعلم أنه كامل العقل، وحيد الفضل، شديد المحبة في جنابك، متودد لك، وآخذ في جميع آرائك.

يابني إذا كان وزيرك كامل العقل آخذا بشمائل الفضل فتفرس في حال انبساطه وانقباضه، وعلوه وانخفاضه، فإن رأيته في حال إقباله إليك مسرورا مبسوطا، طلق الوجه محبورا، فتعلم أنه أتى إليك بمسرة سمعها في جانبك، أوصدرت له على بابك، فإن أبدى لكذلك فالمسرة في جانبك، وإن أخفاها فتعلم أنها في جانبه منك، وإن اقبل إليك على حالته المعتادة فتعلم أنها في جانبه منك، وإن أقبل إليك (فتعلم)[1] أنه لم يتزايد عنده زيادة، وإن اقبل إليك مطرق الرأس منقبضا غير طيب النفس، فإنه سمع مقالة تسوءه في جانبك من أمر عدوك، أو ما يسوء جانبه من قبلك، فإن أخبرك بذلك وأظهره فتعلم أن ما سمع في جانبك غيره، وإن كتم ذلك عنك فتعلم أن ذلك صدر منك.

يابني إذا سمعت عن وزيرك سقطة في جانبك وأردت اختبار حقها من باطلها، وهل صدرت منه كما سمعت من قائلها، ويظن وزيرك أنك سمعتها منه فتفرس في وزيرك، فإن رأيت منه زيادة في البشاشة، والخضوع والتذلل والهشاشة، وتلك خلاف عادته، فإن ذلك دليل على الريبة، وتحقيق لتلك السقطة المغشة (المعيبة)[2]، وإن

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية

2 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية

فحقق ذلك من غير ارتياب، فإنه لا تخفى حالة المرتاب، وإن لم ينتقل عن حالته المعتادة، ولم يظهر في كلامه نقصان ولا زيادة فتعلم أنه بريء مما قيل لك؛ لأن ظاهره دل على ما يخفيه.

يابني وإذا أردت استخراج ما في ضمير وزيرك الغافل فخذه بالرفق والتلطيف والإناس والتأليف، وآته من الباب الذي يوافقه ويحبه، حتى يستخرج ما في ضميره بحسن السياسة وحكم الرياسة.

يابني وأما من كان من وزرائك ناقص العقل فلا تمهله بالقول، وأكثر عليه من الكلام فإنه من ضعف عقله لا يقدر على الإكتام، فيخرج لك ما في ضميره من قليل الأمور وكثيره.

الفصل الثاني: فراسة الملك مع جلسائه[1]

يابني وأما جلساؤك فينبغي لك أن تتفرس في جلسائك وتختبرهم، وتنظر في طبائعهم لتختبرهم من هو المحب في جنابــك، اللائذ ببابك، المسرع لقضاء إربك، ومن هو على غير ذلك، واختبر المفشي منهم لأسرارك والمحافظ على أخبارك، فمن رأيته كثير الكلام، شرها للإقدام لا يتوقى المقام ولا يخفي شيئا من أسراره ولا من أسرار غيره، ولا له في إفشاء ذلك منفعة فتعلم أنه غير محافظ على سرك فاحذره، فإنه كما لم يحافظ على سره فكذلك لا يحافظ على سرك، وكذلك من هو متهم فأمره أعظم وأهم، فإن المتهم يختبر بالناس أو بتأليفه وكثرة الجلاس، وإن كان أقل كلاما في مجلسك فلا تأمنه في سر على نفسك، لأن معرفته بالناس تدعوه إلى إفشاء الأسرار وإذاعتها على وجه الأسرار.

يابني ومن رأيته من جلسائك قليل الكلام، غير مخالط للأنام، لا يجالس أحدا ولا يرى أن فيها مقصدا، ولا يتكلم إلا في محل الكلام، ولا يأخذ إلا فيما يجمع عليه الخاص والعام، وتعلم أن صمته أكثر، وإمساكه معرب عن جوابه، وعقل غالب عليه، وعارفا بكلامه مايؤول إليه، فذلك ممن يكتم الأسرار، ويأخذ بفعل الأخيار، فأودعه جميع سرك، وما يقتضيه من خيرك وشرك.

يابني وإن أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك، عامل على خدمتك وتصافيك، أو من هو بخلاف ذلك، فتفرس في طباعهم، وانظر إلى تملقهم واصطناعهم، واختبرهم إذا ورد[2] عليك سرور على غفلة، وأتاك بشير وارد بعجلة؛ وكيفية اختبارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين تتبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين، فمن رأيت وجهه متهللا دخله السرور، فتعلم أنه محب بسرورك مجبور، ومن رأيته منقبض الوجه حين تنظر إليه، فتعلم من بغضه ما انطوى عليه، لأن

1 - العنوان من وضعنا.

2 - في الأصل: وردوا، وفي الحجرية: ورد، وهي الكلمة المناسبة للسياق.

الأنبساط والأنقباض يفضيان من القلب على الوجه، فيبدوا ما في الباطن على الظاهر، وتطلع من ذلك على السرائر، وإن أبدى لك غير المحب بشاشة حين تظهر هشاشة، لأن السرور يكسو الوجه طلاقة وحمرة، والحقد يكسوه غيرة أو كدرة أو صفرة؛ وذلك بسماعه ما لا يريد، ولشدة حقده تغيره يزيد.

يابني وإذا ورد عليك خبر غير سار فإن وجه المحب يعود منقبضا بظاهر الإنكار، وربما ظهرت على وجه غير محبك أمارة الاستبشار فاعتبر المحب من غير المحب، بهذين الاعتبارين يتبين لك ذلك في الحال، بل في كل الاختبارين.

يابني ومن رأيته يدخل عليك في كل يوم بمسرة، ويكثر ذلك منه المرة بعد المرة، فتعرف أنه شديد المحبة في جانبك، منقطع بخدمتك إلى بابك.

يابني وإذا أردت اختبار جلسائك وخاصتك واوليائك هل متوافقون بقلوبهم جميعا أومختلفون، فتفرس فيهم إذا عرضت لأحدهم عندك حاجة، وتكلموا فيها، وبادروا بأجمعهم إلى استخلاصها وتلافيها، علمت أن قلوبهم متوافقة وأحوالهم بينهم صالحة صادقة، وكذلك إذا أشار أحد منهم برأي وقفوا عنده، لا يتعدون عند ذلك حده، وذلك فيما يسر أويضر، أو ينصح أو يغر، فتعلم أن خواطرهم مجتمعة، وعلى الموافقة منطبعة، وإن اختلفت ءارائهم وتفرقت أهواؤهم فتعلم أن العداوة بينهم قائمة، وأحوالهم بينهم غير متلائمة.

يابني إذا رأيت وزيرك محبا في الشكر والثناء عليه أكثر مما عليك، وميلان الناس إليه أكثر مما إليك، فتعلم أنه مفرط في أموالك وأمور مملكتك، غير ناصح لك في خدمتك، فإنا رأينا أنه من يكون محبا في الشكر والثناء، ويرى أن ذلك يفضي به الأمر إلى قضاء حوائج الناس، بل يضر بخلافتك ويحط من أنافتك، لأن محبته في الثناء عليه لا يريد حاجة من قصد إليه، فيغيب عنه وجه الصواب، ويتسع خوفه من هذا الباب، وإن رأيته محبا فيما يصلح عليك لا عليه، فهذا في الحقيقة يعود بالمنفعة إليك لا إليه، فتعلم أنه لك محب ناصح، و وزير غير مفرط صالح.

يابني إذا رأيت وزيرك تكرهه الخاصة والجلساء والقواد والأنجاد والكبراء والأمراء أخذ في جنابهم بذميمة، فتفرس فيه، فتعلم أنهم إنما كرهوه على نصيحتك وتشديده عليهم في خدمتك.

يابني وإذا رأيت وزيرك محبوبا مع قلة فوائده في حين صدروه وموردِه، مع أنه لا يستخرج منك حقوقهم الواجبة، الخاصة منها والعامة، فتعلم أنه مفرط في أمورك كلها، مما وجب عليه في الخدمة، قلها وجلها؛ فإذا كان على هذه الحالة فاختبر محبته لك، تجدها مفضية لتضييع خدمتك.

الفصل الثالث: فراسة الملك مع كاتبه[1]

وأما كاتب سرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أنك تتفرس في كاتب سرك المباشر لمهم أمرك، إذا كان فيه أربع خصال فهو كامل على كل حال، وهو: أن يكون صحيح المذهب، قاءلا بالحق، قليل الإخوة والأصحاب، ومن ذوي البيتات والأحساب؛ فإنه يابني إذا كان صحيح المذهب، رفيع المنصب، فتفرس فيه؛ فإذا رأيته تكلم بكلمة و لم ينطق إلا بصدق، لا تأخذه في كلمة الحق لومة لائم، فتعلم قوة نفسه في الصدق، وأنه كلما يصدر منه فعن حق، وأما كونه قائلا بالحق فلا يميل في شيء من أقواله إلى الكذب، ولا يقضي به صحيح مذهبه إلى شيئ من الريب، فإن صحة مذهبه توديه إلى كلام الحق، وقول الحق تؤديه إلى كتمان السر، فإنه يخشى إن افشي السر أن يظهر عليه، فلا يدري ما يصير إليه فيسئل عنه فصدقه، وصحة مذهبه تدعوه إلى أن يقول الحق ليعاقب عليه، فيخاف من العقوبة فيكتم السر الذي أسر إليه، وأما كونه قليل القرابة والأصحاب؛ إذا كثرت قرابته لابد أن يستخلص أحدهم للكلام والاخبار، ويودعه من أسراره ما يأمره باستتاره، فلابد أن يفشي صديقه ذلك الذي أودعته، فلا بد لغيره أن يسمعه، واما كونه من ذوي البيتات فلأنه يحافظ على بيتته في كل الحالات، مع ما قدمناه من صدق المقال وصحة المذهب المانع من الاختلال، فيمنعه ذلك من إفشاء الأسرار، والأخذ بالأستتار.

يابني وإذا رأيت كاتب سرك كثير الألفة للناس، طويل اللسان، لا يرجع إلى قياس ولايتحفظ في كلامه، ولا يكف لسانه في جلوسه وقيامه، ويزخرف لك أمور الرأي أنه ينفعك بها، وهي مما تضر الغير بسببها؛ فهذا غير محافظ على دينه، ومن لا يحافظ على دينه لا يحافظ على سرك، فكيف تشاركه في أمرك.

---

1 - العنوان من وضعنا.

يابني وإذا رأيت وزيرك أو جليسك، يمدح كاتب سرك في الغيبة والحضور، ويظهر محبته للجلساء والجمهور، فتعلم أن كاتبك يرفع له الأسرار، ويفاوضه فيما يلقى إليه من الأخبار.

يابني وإذا أردت أن تطلع على ما هو عليه كاتب سرك من كتمان خبرك وسرك، فتحدث معه بسر أهل بلدك الشرفاء والفقهاء والقضاة والأشياخ والوجوه والثقاة، في كل واحد منهم هؤلاء المذكورين ما يخصه ويسر به من إحسان، أو ولاية، أو ما يسر السامع بسببه، فإن إذاعته للأسرار تدعوه إلى الشراهية بالأنتشار، فيبادر أهل البلد بالتبشير، يعرفهم بذلك كل تقدير، ثم تبعث من يسئل في بلادك عن ما أاودعته من ذلك، وتجده قد ظهر هنالك، فتعلم أنه غير محافظ لسرك وسره لإذاعته سرك وسره أيضا.

يابني انظر إن كان لكاتب سرك أعداء وبلغه منهم أداء وأراد أن يقع بهم فلا تشاركه فيما يضرهم، وعده بعقوبتهم وتأديتهم، فإن شراهية البغضاء تدعوه إلى الإفشاء لذلك، لما يريد بهم من المهالك، ثم تجعل من يبحث أيضا عليه هل أذاع سره المودوع إليه، فإن أذاع سرك لأحد (لابد)[1] أن ينتشر ويتمادى ويشتهر، فإن الأسرار إذا انتقلت فشت وبانت وخرجت من حيث كانت، فإن كتم ذلك فتعلم أنه كاتم لسرك ، وإن افشاه فتعلم أنه مظهر لأمرك، وإن كتم مثل هذا فهو محافظ لأسرارك غير مذيع لأخبارك.

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

الفصل الرابع: فراسة الملك مع قضاته وقادته وجيشه [1]

أولا: فراسة الملك مع قضاته[2]

وأما قضاتك اعلم يابني أنه إذا أردت أن تختبر قضاتك[3] فتفرس فيه تفرسا سياسيا، واحكم على اختباره حكما رياسيا، وانظر إلى أحواله؛ فإن كان يميل إلى خطة القضاء، ويعتني بها غاية الاعتناء فتعلم أنه رقيق الدين، وأنه في أحواله ليس بالمتين، وعلامة ذلك يابني: إذا ندبته للقضاء المرة بعد المرة، وتظهر له بذلك وجوده المسرة، فإنه لابد أن يمتنع بالقول وإن كان مريدا للفعل، لأنه إذا أظهر المحبة لها في أول وهلة عثر عليه أنه يريدها، فلا تقدم مثله، فتكرر عليه القول، وتزداد عليه لينااه، وتظهر له لديك مكانة، فإنه لا يمتنع لك بالكلية، ويظهر لك ما فيه من طوية، ويبدو على وجهه التهلل والسرور، ويميل إلى الإذعان بعد النفور، وأن يمتنع القول في الحال، ويتنمس عن نيل الأموال، فإذا وجدته على حالته الأولى ولا أثرت فيه تلك فاعفيه من القضاء، فإذا رأيته أسفر وجهه حين اعفيته من القضاء فتزداد يقينا أنه على القضاء حريص، نادم على الامتناع منه.

يابني وإن كان (القاضي)[4] يمتنع امتناعا كليا و لايريد عزلا ولا توليا، ولا يظهر فيه حرص على القضاء، ولايتنمس بالربا فكلف عليه القضاء واجبره، وإذا تأتى لك فانصره وأعنه، ثم بعد ذلك تفرس فيه تفرس الشيخ الشيم السنية، فإن رأيته محبا في النساء والأولاد، (وله)[5] من الذرية اعداد، فتعلم أنه محب، لابد أن يميل في الحكم إما لغرض أو جهة، فيئول ذلك إلى أخذ الرشا على الأحكام الشرعية، وإن لم يأخذ الرشا، ولم تكن له ذرية ولا له في النساء غرض بالكلية،

---

1 - العنوان من وضعنا.
2 - العنوان من وضعنا.
3 - في النسخة الحجرية قاضيك.
4 - ما بين هلالين من إضافتنا.
5 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

فتفرس فيه بأن تمازحه وتجالسه وتناصحه، حتى تراه قد مال إليك وانبسط لديه، ثم اعرض عليه مسئلة تعينت تطلب له فيها رخصة، وتريه كأنها من مهمات أمورك، وأن في قلبك منها غصة، فإنه ربما تدعوه مجالستك إلى الرخصة في ذلك، فيفتيك فيها على غير مذهب مالك، فإن سمح لك في مسئلتك وجرى على وفق أمنيتك فتعلم أنه يسمح لغيرك مثل ما سمح لك في أمرك، فإن تصمم عليك، ولم يسمح بالكلية إليك، فتفرس أيضا في حديثه وصمته، وفي مشيته وجلوسه وسمته، فإن كان قبل القضاء يعرف بالصمت في لسانه، ثم بعدما قضيته ظهر لك منه انطلاق، ولم يكن من شأنه، وأظهر البشاشة والشكر والثناء والذكر، فتعلم أنه محب في القضاء، وأنه متصنع بالربا، وإن كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء، وأظهر السكون في جملة الأشياء، فتعلم أنه متصنع، وأنه بالناموس متلفع، ثم تختبره في مشيه، فإن زاد على حالته المعتادة وحدث في شيء من نقص أو زيادة ؛ فتعلم أنه متصنع في حاله، متنفس في افعاله.

يابني إن نظرت إلى تلك الزيادة فإن رأيتها خرجت عن العادة وهي بسرعة وبشاشة ومبادرة وهشاشة؛ فتعلم (أنه)[1] فرح بالقضاء واغتبط به، ونال منه غاية مطلوبة، وتلك منه خدمة لأجل ولايتك إياه وتصرفا بين يديك لترضاه، وإن نقص من ذلك فتعلم أنه يتقعد عليك، ويظهر الناموس إليك، لتستحسن حاله، وتظنه على شيء في أموره، فلا تعتبره في شيء، ولا تغرك بغروره.

يابني وإن رأيته غير محببا للأولاد ولا مهتم بهم، ولا بالنساء، ولكن قل لهن فيهن مراد، ولا تؤثر عنده مجالستك، ولا إكرامك له، ولا ممازحتك، ولا تصنع في مشيه ولا جلوسه، ولا أظهر شيئا أبدا على فعله من ناموسه، ولاتبدل عن أحواله، ولا تطور في أقواله وأفعاله، فذلك نعم القاضي وخير من يقع في حكمه التراضي.

يابني وهكذا يكون تفرسك في مفتيك في بلدك وغيره من تريد معرفة خبره.

---

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ثانيا: فراسة الملك مع قادته[1]

وأما قوادك فتكون فراستك فيهم بالأختبار، وزرعك الرشا من غير استشعار، فإذا رأيتهم قبلوا الرشا، وعلقت أذيالهم منه بالرشا فتعلم أنهم أضاعوا حقك، وخرقوا رتقك فلا توليهم أبدا، وإن وليتهم فاعزلهم تكن راشدا؛ اما أخذهم الرشا من الرعية على حق الله عز وجل فذلك أعظم بلية، وما يضر بالرعية افضى إلى فساد الملك بالكلية؛ لأن فساد الرعية يخرب الأوطان، ويقل الجبايا، ويذهب بالعمران، وأما أخذهم الرشا على حقك فإنهم إذاأخذوا الرشا على حقك فسدت نياتهم، وخافوا منك أن تطلع عليهم، فتبدو طوياتهم فيحملهم ذلك على ما يفسد عليك، فلا تأمن لهم غائلة غدر، ولاخائنة مكر، فإن حاملهم على أخذها من الرعية يحملهم على الغدر وخبث الطوية، فيضيع بمثل هؤلاء مالك، وإن سلموا م نأخذ الرشا في حق الله وحقك فتعلم أنهم على وفقك وصدقك فابق من وليت منهم على قيادتك، ومن لم توله فوله لأجل أمانته.

والقائد من هؤلاء محمود، وبه تنال خلافتك المقصود، كما أشرنا لذلك في باب السياسة.

ثالثا: فراسة الملك مع جيشه[2]

وأما جيشك يابني وأجنادك وأنصارك وقوادك فاختبرهم بأن تنظر في أحوالهم وتتوسم في أفعالهم؛ فإن رأيتهم مشتغلين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء فتعلم يابني أن هؤلاء غير معول عليهم في الشدائد، ولا في المواقف والمشاهد، وإن رأيتهم ءاخذين في التفاخر بالخيل والعدد والتداريع وءالة الحرب والنجدة، فتعلم يابني أن هؤلاء يعول عليهم في الشدائد، وبهم في المواقف تزول النكائد، وإذا كانت عادتهم في السلم اشتغالهم بالعدة وءالة الحرب فتفرس فيهم أيضا عند اللقاء، فإن رأيتهم

---

1 – العنوان من إضافتنا.

2 – العنوان من إضافتنا.

عند القرب من العدو يزيدون نشاطا وشجاعة واجتهادا، أو براعة وحرصا على الملاقات، وكلمة خاصتهم وعامتهم كلمة واحدة متفقة فيرجى لك الظفر على عدوك والنصر، وإن رأيتهم عند القرب من اللقاء يقل نشاطهم، ويكثر اختلافهم، فمنهم من يحب اللقاء ومنهم من يكرهه، فحاولهم واجتهد على أن ترد كلمتهم متفقة بالإعطاء والإحسان والكلام الجميل، ولا تلاق بهؤلاء إلا في موضع تملك فيه أمر نفسك، وتسكن به قلوب جيشك، وتقوي نفوسهم[1] بإسناد ظهورهم إليه، واعتمادهم في الكر والفر، وإن لم تجد موضعا في الحال تركن إليهم، ورأيت لعدوك الطائلة باتفاق كلمتهم واختلاف جيشك فاعمل على ما ذكرناه في باب السياسة، وذلك اتخاذ المعقل كما فعل الأركن الذي قدمناه في باب السياسة.

---

1 – في الأصل: نفسهم، وفي النسخة الحجرية: نفوسهم.

الفصل الخامس: فراسة الملك مع صاحب أشغاله وحكامه [1]

أولا: فراسة الملك مع صاحب أشغاله[2]

وأما صاحب اشغالك المقدم إلى اعمالك، الناظر على كافة عمالك، فإنك يابني تختبره وتتفرس فيه، حتى يظهر لك من حاله ما يخفيه.

اعلم يابني أنه إذا رأيت صاحب اشغالك محبوبا عند وزرائك وخاصتك وأهل رأيك مشكور الحالة عندهم، ينالون منه قصدهم، فتعلم أنه مضيع لأمورك بالجملة، ومفرط في أموالك، وتلك أقبح فعلة، وإذا رأيته مبغوضا عند الوزراء والقواد والعمال والأجناد فتعلم أن بغضهم له، إنما هو على استخراج حقوقك ومنافعك منهم، لأن صاحب الأشغال إذا كان مبغوضا عند الخاص والعام دل على نصاحتك في الخدام، وأنه يخاف من الرشا من الناس، ولا يأمن أن يزرع عليه الأعداء بمن يوقع به أعظم البأس، أو ينصب له شركا من المكيدة يجلب بها حينه وتنكيده، ثم إنك تخبره يابني في ملبسه ومركبه ومأكله ومشربه وحاله ومكسبه، فإن زاد زيادة مفرطة فتعلم أن ذلك من غير مالك احتواه والتقطه، وإن لم يظهر عليه إلا قدر منفعة، مع أن الناس يتقولون فيه ليصلوا إلى نكبته، فتعلم أنه نقي الجانب، قليل المعائب، وإن كان مفرطا في أشغالك فهو لا يخونك في مالك، (وعلى الله توكلك وإليه مئالك)[3]، وأما ولاتك تخبرهم، وتتفرس فيهم وتعتبر، فإذا رأيت وإليك يأخذ أموال الناس، ويتقرب بها إليك، ويرى أن ذلك نصيحة إليك، ومسرة يدخلها عليك، ليعلم مكانه عندك، ويرى أن في ذلك بغيتك وقصدك؛ فهو أشر الولاة وأردأهم وأظلمهم وأعداهم، ولا تقربه لخدمتك، وتحليه بحليتك، بل خدمتك؛ فإنه ينقص مالك، ويضر برعيتك، ويفسد عليك دنياك، وحسن نيتك. وكما أنه يأخذ أموال الناس ويعطيها إليك، فكذلك يأخذ مالك ويحرم عليك، ويأخذ خيرك

---

1 – العنوان من إضافتنا.

2 – العنوان من إضافتنا.

3 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ويعطيه غيرك، هذا إن أخذ أموال الناس وأتى بها إليك، وإن لم يأتيك بشيء وأظهر الناموس لديك، تصنعا بالديانة والتحفظ بالأمانة، فاختبره يابني بأن تزرع عليه الرشا، فإن أخذها فتعلم أنه يأخذ مالك، وإن لم يأخذ شيئا من ذلك فتفقد أحواله في داره، وابعث من يتجسس على أخباره، فإن زاد حاله وكثر ماله وظهرت عليه اثار النعمة الشاملة، والرفاهية الكاملة، ولم تكن تعرف له قبل فتعلم أنه من غير مالك مع أنه لم تقع به شكاية ولا تأذت منه رعية فإن تشكت منه الرعية فرفاهيته منهم وهو عين الأذية.

واعلم يابني أن حامل المال كحامل المسك لا يخفى على أحد، وإن اخفاه حامله، وإن اختبرت وعلمت فقره وأمواله، ولم يتزايد عليه حال بالكلية، ولا تظلم أحد من الرعية، فاختبره المرة بعد المرة، فإن لم تصدر عنه شكية ولا مضرة فذلك هو الوالي الآخذ بما يواتي ويولى.

ثانيا: فراسة الملك مع حكامه[1]

وأما حكامك يابني فإنك تتفرس فيهم، وتقع على مخافيهم؛ إذا رأيت حاكمك تبغضه الأخيار، وتحبه الأشرار، فتعلم أنه على غير استقامة، وأنه ءاخذ الرشى على الظلامة، وعلامة ذلك: أن بغض الأخيار له إنما هو لما أحدثه من المظالم، وفعله من إباحة المحارم، وما أتى به من الحوادث الفاسدة، والمناكر البادية بالمشاهدة؛ فهو يكرههم لعثورهم على منكره، وهم يكرهونه على ما رأوا من مخبره.

وأما صحبة الأشرار له وصحبته لهم فإن فائدة منهم محملة على المواساة عليهم؛ فهم يحبونه على مواساته عليهم في المفاسد، ويحبهم لما ينال منهم من الفوائد، فإن الناس لا يألفون إلا لمن وافق طباعهم، وينافرون من نافرهم وطلب اقماعهم؛ فتكرهه الأخيار لمنافرته لفعل الخير، وتحبه الأشرار وإن كان بخلاف ذلك من قمع الأشرار وتوقير الأخيار، فتعلم أنه تابع للحق متحل للصدق.

---

1 – العنوان من إضافتنا.

يابني ثم اختبر حاله بأن تزيد عليه شيئا لم يعرف له قبل ولايته الحكومة، ولا كان له في أول بدايته من مال وأثاث وذخائر غير ذلك، فإنه يرشي في الباطن والظاهر، وإذا لم يتزايد عليه مال ولا ظهرت عليه اثار مال، فهو الحاكم المحمود الذي تفضله الوجوه.

وكذلك يابني تكون فراستك في صاحب الحسبة يجري على هذه النسبة.

وأما فراستك في عدوك يابني اعلم أنه تكون فراستك في عدوك فراسة واحدة، وإن أبدى لك مؤانسة ومواصلة مساعدة، فلتكن مقابلتك له بما ذكرناه في السياسة، فإن ذلك من وجوه الرياسة.

الفصل السادس: فراسة الملك مع عدوه ورسله[1]

أولا: فراسة الملك مع عدوه[2]

يابني إذا أردت عدوك يهاديك ويعاهدك بالحسنى ويواليك، ويأخذ معك فيما يرضيك، ويقضى لك جميع مئاربك، ولا يقتصر بوجه في مطالبك، ورأيته أيضا يواليك بأقبح الموالات، وينافرك في كل الحالات، فالفراسة فيه واحدة لا في المنافرة ولا في المساعدة.

يابني وإذا بعث إليك أرسالا برسم تهنية أو موالاة أو تعزية أو استجلاب مودة تكون،أو ما يدعو إلى المهادنة والسكون، فاعلم يابني إنما بعثهم لاختبارك ليتعرف الصحيح من أخبارك، وما يزيد عنهم وظهر عليك، وما غاب عنهم وحضر لديك، فعلى هذه الحالة جرت أحوالنا مع اعدائنا حين يصلون ويحلون بأندائنا[3]، أنهم متى أظهروا لنا المصافات، وكتبوا إلينا بالموالاة، فتفرس في أحوالهم فتجد ذلك من احتيالهم، فيخرج لك الأمر كما تفرسناه، وما تفرسناه وجدناه.

يابني وكذلك تتفرس في كتبهم قبل وصولها، فتحكم قبل رؤيتها على فروعها وأصولها، وكذلك تتفرس في أرسالهم قبل قدومهم علينا فتظهر أحوالهم إلينا.

ثانيا: فراسة الملك مع الرسل[4]

1- فراسته مع رسله إلى غيره من الملوك[5]

يابني وأما قرابتك في أرسالك المتوجهين من قبلك إلى الملوك امثالك، فينبغي لك ابني إذا وجهت رسولا إلى ملك من الملوك أن تختاره من وجوه قبيلتك، وخيار

---

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - العنوان من إضافتنا.

3 - الأنداء: جمع النادي وهم القوم المجتمعون.
الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 5، ص 90.

4 - العنوان من إضافتنا.

5 - العنوان من إضافتنا.

عشيرتك ممن يليق بالرسالة، ويتصف بالطهارة والجلالة، ولا يكون توجيهك إياه إلا بعد الاختبار، ليكون على وفق الاختيار.

يابني وليكن الرسول مشتملا على أربعة أوصاف ليس عنها محيد ولا خلاف؛ الأول: أن يكون قوي القلب، راجح العقل، الثاني: أن يكون صادق القول، الثالث: أن يكون محافظا على دينه، الرابع: أن يكون صادقا، حافظا على الأسرار، كاتما للأخبار.

ثم تتبع هذه الأوصاف الأربعة الضرورية أربعة أوصاف تكميلية؛ أحدها: أن يكون فصيح اللسان حسن العبارة والبيان، الثاني: أن يكون مليح الهيئة والصورة، فيه محاسن مشهورة، الثالث: أن يكون محبا في سلطانك، عاملا على ما يوافق جميع شأنك، الرابع: أن يكون قليل الطمع متزها عن ما في الأيدي تتره الورع.

يابني إذا اجتمعت هذه الأوصاف في الرسول يبلغ به في الرسالة غاية المسئول.

اعلم يابني إذا وجهت من اجتمعت فيه هذه الأوصاف على الكمال، ومن استقل بمحمود هذه الخصال، فتفرس فيه عند قدومه عليك، ووصوله بعد أداء الرسالة إليك بما نفسره لك، ونبينه ونوضحه ونحسنه؛ فلا تخطيك الفراسة في الرسول إذ تمتحنه.

اعلم يابني أن الملوك بالنسبة إلى القوة والضعف والصداقة والعداوة على ثلاثة أقسام، وعليها في الفراسة جرت الأحكام: يابني لا يخلو حالك من أن ترسل إلى أحد الثلاثة المذكورين على حسب (ما تختلف)[1] به الحوادث، وتدعوه ضرائر البواعث؛ إما أن ترسل لمن هو أقوى منك لأمر حدث عنه، أو صدر منك، فتفرس في رسولك إذا قدم عليك عايبا، وقد قضى لك في الرسالة مئاربا، ووفى الغرض في الحاجة التي أرسلته بسببها، وتيسرت عليه أحوالها في حين طلبها، ثم جاء الرسول شاكرا منه، مثنيا عليه، لما صدر عنه، فشكره له حسن، لأنه أقوى منك، وقضى

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

حاجتك، ووفى لك مطلبك وإرادتك؛ وبعدها فلا تخلي رسولك من الاختبار حتى تقف على الصحيح من الأخبار، ثم اسئله في خلوتك عن حال عدوك، ومايؤتى من قبله، وما ألقى إليه العدو من المحاولة، وما قابله به في تلك المراسلة، فإن أخبرك بسيره ومناقبه، ومصالحه ومثالبه، وحال انبساطه وانقباضه، وارتفاعه وانخفاضه وجلوسه، وأحوال جيوشه وتصرفاته، ولم يخف عنك شيئا من حركاته وسكناته، فذلك نعم الرسول، وخير من يبلغ به الأمال والسؤال، وإن اقتصر على ذلك، ولم تجد عنده إلا مجرد الثناء والشكر، والإطناب بجميل الذكر، فتدبر به من يختبره في أحواله، حتى تعرف صدق مقاله، فإن لم يجد عنده إلا الثناء في جانبه ،غير ذاكر لمثالبه، فتعلم أنه أخرص لسانه بالعطاء، فذلك أطنب عليه بالثناء، فاسئله حينئذ عما أعطاه، وما قدر من به حباه، فإن أخفى عنك بعض العطية فتفرس في كسوته وجهازها بالكلية، فإن كانت كسوته رفيعة، فتعلم أن الإحسان أكثر مما ذكر لك، وأنه مخادع حين أنكر الصنيعة، لأن الإحسان يناسب اللباس، وتلك سيرة من ملك وساس؛ لأن الملوك إذا فضلت في الكسى ضاعفت التفضيل في الإحسان، فإن اعلمهك بجميع ما ناله من الإحسان، وناسب الكسوة على ما قررناه الآن، وأنه أخبر أنه أكرمه غاية الإكرام، وأفاض عليه سوابغ الإنعام، ولم يعرفك بسيرة ولا أتاك بشيء من خبره، فتعلم أنه غير عارف بالرسالة، (سالك)[1] في المحاولة سبيل الجهالة، ولم يحمله على الثناء إلا قضاء الحاجة، والاستبشار بما ناله من جزيل النائل، وسابغ الفضائل، وعدم ذكره لأحواله وسيرته، إنما حمله على ذلك الجهل، وعدم المعرفة بمثاله، فلا ترسل مثله ولا تعتبره، ولا تشرفه بالرسالة، ولا تكبره، فإن الأوصاف المضمونة فيه قد اختلت، و صحته التي حمل عليها قد اعتلت.

يابني وإن أرسلت رسولك لمن أنت أقوى منه من الملوك، وأردت أن تتفرس في رسولك إذا قدم عليك، ووصل بعد أداء الرسالة إليك، ويكون ذلك الملك ذا عقل راجح ودهاء واضح، وتكون الحاجة التي عرضت لك عنده متوسطة الحال،

1 – ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

لا عالية المقدار ولا دون ذلك، بحيث يقع بها الاحتيال في الأرسال، فإن قضى لك تلك الحاجة، وبالغ في قضائها، وبادر إلى إتلافها وإمضائها، ثم قدم عليك رسولك غير شاكر منه ذاما لما لم يصدر به إنعاما منه، فتعلم أنه بعكس ما ظننت فيه من عدم الطمع، لكون الملك قضى حاجتك وذمه رسولك على ما لا يعطيه أنه طمع فيه، ولم يوف له طماعته، ولا نال منه بغيته، ولا إرادته، فتسئله حينئذ عن من أعطاه وعن القدر الذي حياه، فإن أعطاه عطاء أمثاله، ووفى له بما يليق من حاله، فتعلم أنه أراد خداعا، وأن يذيع بعض الأسرار إيذاعا، فلا تطمئن له في حال، ولا تعتبره في مقال، لأنه لم ينفصل عن العدو حتى أخذ معه العهد، أو أبرم فيما بينه وبينه العقد على ما يودعه من الأسرار، ويسعه من الأخبار، فإن كان العطاء أقل مما يليق بأمثاله، فتعلم أنه إنما ذمه لقلة نواله.

يابني وإذا أردت أن تختبر ما أعطي لرسولك في وجهته فانظر إلى ما يظهر عليه من كسوته، فإن كانت الكسوة رفيعة فالإحسان بحسب ذلك، وقد أجزل صنيعه، وإن كان العدو لم يقض لك تلك الحاجة التي أرسلت رسولك في طلبها، وشكره رسولك أو سكت عن شكره، ولم يذمه بسببها، فتعلم أنه ما شكره إلا لما أعطى، أو ما سكت عن ذمه إلا لما رجاه، وإن رجاءه أن يعود إليه بالرسالة الثانية، وينال منه الجائزة الوافرة، فإن ذلك العدو إذا لم يسمع في جانبه منه إلا خيرا فلا يخال إن عاد إليه إلا كرامة وبرا.

فتعلم يابني أن الخيانة في طبع الرسول، وأنه ممن لا يليق به قبل (الرسالة)[1] سول، وأنـــه على خلاف ما ظننته به من الأوصاف المذكورة، وأن أحواله مذمومة مدحورة، فتسئله حينئذ عما أعطاه، فإن أعطاه العطاء الجزيل وأرضاه، فتعلم أن ما أخرس لسانه عن ذمه، مع عدم قضاء الحاجة التي تعد من وصمه إلا ذلك العطاء، ولا أسكته إلا ذلك إلا الحباء.

---

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

يابني وإن أرسلت إلى صديقك من الملوك رسولا لحاجة عرضت لك، وكان الأمر جليلا أو قليلا، ثم قدم عليك رسولك الذي أرسلته، وأدى الرسالة على نحو ما أوصيته، فإن قضى تلك الحاجة فتلك سبيل الصداقة المذكورة، والموالاة المحدودة، وإن ذمه رسولك، فتعلم أن ما ذمه إلا لعدم الفائدة، وأن شكره لحسن الصداقة والعطية الزائدة، وإن لم يقض لك ذلك الصديق حاجتك، وظهر منه في قضائها حاجة، فتفرس فيه كتابه، ومن نحو خطابه، فإن رأيت كتابه خارجا عن المعتاد، وفيه مالا يليق من عدم المراد، فتعلم أن ذلك من قبل الرسول الذي أرسلته، وأنه ألقى إليه أمرا غير باطنه، فلم يسعفه طلبته، فلذلك أغلظ القول في الكتاب، وخرج عن العادة في الجواب، فعلى هذا تكون فراستك في إرسال الملوك الواردة عليك القاصدين من بلادهم إليك إما من قبل الأعداء أو من قبل الأولياء، فلا إشكال أن ذلك موالاة وأفضال.

2- فراسته مع رسل غيره من الملوك إليه[1]

وإن كان (الرسل)[2] من قبل عدوك فينبغي لك أن تتفرس فيهم تفرس النبلاء الأذكياء النجباء، فإذا قبل رسول عدوك إليك، ورأيته طلق الوجه إليك، وأسرع في مشيه، مظهرا للمسرة، فتعلم أنه يبدي لك من كلام ما أسره، ثم يفصح بحسن سلامه، ويظهر الأدب بين يديك في كلامه، ويقدمك في الشكر والثناء على سلطانه، ويظهر لك البشاشة في تبيانه، فإذا كان على هذا الحال فتفرس فيه بأحد وجهين: فإن فراستك لا تخطيك من غير مين؛ إما أن سلطانه ضعيف الملك أو ضعيف العقل، فإن كان ضعيف الملك فتفرس فيه بأحد وجهين: إما أنه يطمع فيما يناله منك، وذلك من خذلانه، أو يطمع فيما يظهر به النصرة عن سلطانه؛ فإذا رأيته كذلك فأذن له بالجلوس في مجلسك، فإنه يظهر ما في باطنه لتأنسك، فتزيد

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - ما بين هلالين من إضافتنا.

فراستك فيه يقينا، وتظهر لك أحواله تبيينا، وييسر أهل مجلسك بما عنده من المساوئ، وتطلع أنت على ما أمكنه من الأسرار، ثم تأمره بالإنزال عند خلاصتك، لتتبين فيه غاية فراستك، ويأتيك بما أضمره من سره، وبما جاء به من خير الأمر وشره، ثم تعده بالمطالب الكبار، وتمنيه بالفوائد الكثار، فإن كتم عن خلاصتك أمر سلطانه، ولم يطلعه على شيئ من أحواله وشأنه، فتعلم أنه رسول ناصح لمولاه، ليس له من طمع فيما سواه، ولا هو غادر ملكه، وإنما أراد الثناء عليك أحسن مسلك سلكه.

يابني وتعلم أن ثناءه عليك لضعف سلطانه، وقلة ذات يده وإمكانه، وعلامة ذلك: أنه لم يستمله طمع، ولا في غرضه إلا ما به ينتفع، لكن قدمك في الثناء على سلطانه لدفع مضرة يتقيها، أو أظهر لك البشاشة والتودد ليحافظ على المحاسنة ويتقيها، فاعرض عليه يابني حينئذ بعض الأشراط، مما ترغب فيه وتحتاط غاية الأحتياط، وخذ معه في الأمور التي لا ينفر عنها، ولا تأخذه عزة الأنفة عنها، ومما لا يعود عليه بوصم، ولا من سلطانه بذم، فإن قبلها من أول وهلة فتحقق ضعف مملكته من إرساله، فلا تترك فيه فرصتك، فإنها قد امكنت، ومهابتك عند مرسله قد تمكنت، فإن شئت المصالحة على وفق اختيارك، وإن شئت القصد إليه بحماتك وأنصارك، فإن عدوك ضعيف وهو منك على تخويف.

وأما الرسول فنعم الرسول، ولا لأحد فيه ما يقول، فإن كان سلطانه قوي الجيش والمال والحماة، والأنصار والأبطال، مع ما صدر من الرسول من البشاشة والثناء والشكر والمشاشة ، فتعلم أن سلطانه ضعيف العقل، لايفرق بين الفرع والأصل، وعلامة ذلك: أن رسوله لم يوف له حقا، ولا أحسن إليه فعلا، ولا أجاد نظما، بل أسقط حرمته، وأساء خدمته حين أخره في الذكر وقدمك عليه في الثناء والشكر.

واعلم يابني أن الرسول الذي يتصف بهذه الصفة قد خرج عن طريق المعرفة، وأنه ما صدر عنه ما صدر إلا لما يرتجيه من المطامع، ولا قصده إلا في نيل المنافع،

وتلك المنافع عائدة على سلطانه بالمضار، وجالبة عليه مناكد الحين والبوار، وأيضا إنما كانت هشاشته لمكيدة عرضت له في جانبك وكيده، وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبد الله وزير ملك المغرب أبي سالم حين أرسله إلينا بالجد العازم، والعهد اللازم، ليتحيل بعض الحيل علينا، ويخادعنا بين يدينا، مع قوة سلطانه، ورفيع مكانه، فتفرسنا فيه المخادعة لما أظهر من التذلل والمصانعة، ولما أظهر من البشاشة والثناء علينا والهشاشة، فعلمنا من ثنائه علينا، وتذلله إلينا ، مع قوة سلطانه ورفيع مكانه، أن تذلله إنما هو لمكيدة او لمطمعة ينال منا مفيدة ، فأنزلناه عند وزيرنا عبد الله بن مسلم لما بينهما من تأكيد متقدم، وكانت رغبة عمر المذكور في ذلك ليتوصل إلى غرضه من هنالك، ثم أمرنا وزيرنا باستخباره إذا اطلعه على أسراره، واستخراج ما عنده، لنعلم مراده وقصده، فوجدناه على ما تفرسنا فيه من المكيدة، والطمع والمحاولة والخدع ، فلما علمنا منه ذلك حاولناه واوعدناه بما أراده وتمناه، إلى أن عادت مكيدته على سلطانه، فكانت سبب هلاكه وخراب أوطانه؛ وأما المكيدة التي أتى بها والمخادعة التي تسبب بأسبابها فأمران؛ أحدهما: أتى بمال يمد به أهل وهران ويعينهم على التمادي على الطغيان، الثاني: أنه أتى إلى وزيرنا بالخديعة، ويرده إلى جانب سلطانه ويطعمه، وذلك لما تقدم بينهما من الوداد وصفاء الاعتقاد.

وقد تفرسنا يابني في وزيرنا أنه لا يخدعه عمر المذكور، ولا يغتر منه بزخرف الغرور من أجل محبته، وخلوص نيته، وصفاء طويته، وعلمنا من حزم وزيرنا أنه يخدعه، ويرد مكيدته عليه، ويحل عزيمته وعقيدته، ولذلك أنزلناه عنده، ورأينا بذلك بغيته وقصده، وكنا يابني ندخله إلى خلوة مجلسنا، ونسره بمحادثتنا، ونمنيه بمواعدتنا، حتى استقناه بكليته، واستخرجنا ما في طويته، وكان يتخيل بعقله أنه يستخلص أسرارنا، ويطلع على أخبارنا، ونحن نكيده بوجه المكائد، ونشيع بما جاء به من المقاصد، إلى أن بلغ خبره لسلطانه، يريد بذلك انخفاض مكانه، وأبطأنا به في

الوداع ولم نودعه حتى علمنا أن سلطانه ساء به ظنا، وأنه إذا وصل إليه لا يلقى منه سلامة ولا أمنا، وأنه غرس عنده ثمار الحقد لسوء ما أتاه من القصد.

ولما علم أنه جنا كبيرة، ولم يحسن في سيره أطلعنا على أسرار مولاه، وأظهر لنا ما أسره وأخفاه، أخذنا معه فيما يضر بسلطانه، ليخلص مما جناه من خذلانه، فأجاب إلى ذلك ووافق عليه، وهجت نفسه ما ندب إليه، فكان من قيامه على سلطانه ما كان، إلى أن أزال عنه الملك والسلطان، وغلق في وجهه أبواب فاس الجديد، ولقي منه أليم التنكيد.

وكيفية ذلك أن عمر المذكور لما انفصل عنا، ولم يقض وطرا مما تمنى؛ لا من صرف المال الذي جاء به إلى وهران، ولا تأتى له وزيرنا في شيء مما أراده من الخذلان، عاهدنا على أن يغدر بسلطانه، وأن يجلس أخاه مكانه، وأن يطلق بني عبد الواد الذين في حكم الثقاف، وأن تكون بعد ذلك مصالحة ليس فيها من خلاف.

وعندما وصل إلى سلطانه أبي سالم وأدى له رسالته على الواجب اللازم اضمر ما عول عليه من غدره، وأخذ في المحاولة في مكره، فكان من قدر الله تعالى أن خرج من فاس الجديد ليسكن فاس القديم، لأنه في المصيف وخيم، فأقام به ما شاء الله أن يقيم.

وعندما انقضى زمان الخريف وأراد الرجوع إلى فاس الجديد وذلك بأثر المذكور من حضرتنا غلق عمر المذكور في وجهه الأبواب وأوقف أخاه أبا عمر بن أبي الحسن بذلك الباب، فخرج أبو سالم مبادرا لتلافيه وقد جف ريق الحياة من فيه، فأخذ في قتاله، فلم يقدر على حاله، فأسلمه بقومه، وفروا عنه وأنكروه، حتى أنهم لم يكونوا منه، وفر بنفسه عند فرار جيشه، ولحق برمسه فقتل منفردا وحيدا، ولم يجد نصيرا ولا عضدا.

فينبغي لك يابني أن تتفرس في أرسال عدوك إذا قدموا عليك، ووصلوا بالرسالة إليك، فتسايسهم أحسن مسايسة، وتمارس حالهم أجمل ممارسة، وتخادعهم بألطف مخادعة، وتصانعهم بوجوه المصانعات، حتى يظهر الخبيث والنصيح، والباطل والصحيح، فتعامل كلا منهم بما يليق به، وتجر معه على ما أثرى من مذهبه.

يابني فإن كان الرسول وزيرا أو ما يقارب منه فتكون فراستك فيه على نحو ما نبين لك مناقبه، وإن كان دون ذلك فيجر على ما تراه من أحوالك.

وليكن نزول كل رسول عند أمثاله من خدامك، ولتكرم كل واحد بما يليق به من إكرامك، وذلك سبب استخلاص الأخبار، والاختبار ما يكنه من الأسرار.

يابني وإن اقبل عليك رسول عدوك، حين دخوله عليك منقبض الوجه، بطيء المشي، مظهرا الكراهة في الوجه والزي، فتفرس فيه بأحد وجهين: إما أن يكون ذلك من قبل الرسول المذكور، يريد بذلك غاية الظهور، وذلك من حيث طباعه وسوء اصطناعه، فلتأمر بالإنزال عند من يختبر حاله ممن يكون في الطبقة مثاله، بعد أن تأخذ الكتب الواصلة صحبته، وتتفرس فيها من عدوك رغبته، ومنها تستدل على حقيقة الحال، ولا تخفى عليك الحقيقة من المحال، فإن كان ما لا يليق بك ولا يرضيك من خطاب ولا من جواب، فتعلم أن الرسول من طبع المرسل والكتاب، فتحضره بعد ذلك بين يديك، وتخلي به مجلسك حتى لا يطلع أحد عليك، ثم تخفي حديثه كما تخفي كتابه، ثم تعطيه بعد ذلك جوابه.

وإن كان في الكتاب ما يسر ويرضي، بأنواع المسرة يقضي، فتعلم أن الخبث في طبع الرسول، اذ لم يكن في الكتاب إلا معاني العمل والسول، فتنعم عليه بالإحسان، وتستمد قلبه بالامتنان، لأن فعله ذلك سبب للانتفاع، وخباثته من جهة الأطماع، فإذا أخذ منك وأعطيته وأكرمته ومنيته دعته الخباثة إلى إفشاء سر سلطانه، لأن إحسانك إليه حمله على اختيانه.

وهكذا يابني كنا نتفرس في الأرسال فنجدهم على ما تفرسنا فيهم من الصحة والاعتلال، وأما الكتب الواردة عليك من قبل عدوك فتكون فراستك فيها على أحد وجهين؛ الأول: إذا كان عدوك أقوى منك وقدرت على أن تصده عنك، وأتتك من قبله كتب واردة، فلتكن فراستك في عداوته فراسة واحدة، فإذا وجدتها بما يرضيك ويسرك، ويوافق غرضك ولايضرك، فتفرس فيها لتعلم ظواهرها مخافيها.

واعلم يابني أنه إنما أراد مفاتنتك، واستعمل الحيلة في محاولتك، ونصب لك بكتبه شر المكيدة، ومموالاتك ليست عليه وكيدة؛ وعلامة ذلك: أن من كان قويا في سلطانه، عزيزا في مكانه وإمكانه، أكثر منك جيشا وأموالا، وأعظم سكنة وحالا، فإنما بعث لك بالموالاة، ودعا إلى حسن الحالات لئلا تتحرز منه، وتأخذ حذرك مما يصدر عنه، فيأتيك على حين غفلة، فيختلك على غير أهبة حيلة، فتحذر يابني من هذه المكيدة، فإنها من الخدع الشديدة، فتحيل عليه بأدهى من حيلة، و لا يغرك برحيلته.

يابني وإن وجدت في كتبه كلاما يدل على الخير والغير فاحترز أيضا منه، وليكن احترازك من الأول أشد، لأن هذا كتب إليك بما يهددك تارة ويهنيك أخرى. واعلم يابني إن الأول أدهى من الثاني، والثاني في عقله انزعاج وليس بمتواني، وعلامته أن جمع في كلامه بين النقيضين الخير والغير.

يابني وإن كان عدوك مساويا لك في الجيش والمال والكفاية والدهاء والاحتيال فمن كتابه يستدل على عقله وما يريد من فعله، فإن كتب لك تارة بما ترضى ويسر، وتارة بما يغيض ويضر، فتعلم أنه ناقص العقل، لكونه مساويا لك فيما ذكرناه، معروفا بما قدرناه، وذلك دليل على انزعاجه، وسوء سير مزاجه، لأنه يقبل حيث لا إقبال، ويدبر حيث لا إدبار، فإذا رأيته بهذه المثابة فاحتل عليه ببعض المحاولات، فإنه لا يعدل بك كل المعادلات، فإنك إن أخذت في أموره وحاولت على فكره، فإنك تبلغ فيه اختيارك، وتدرك فيه ثأرك.

واعلم يابني أنه إذا كتب لك عدوك المساوي لك كتابا على أسلوب واحد لا ترى فيه من زائد ولا من ناقص، ولا كتب لك إلا بما لابد منه فتعلم أنه وافر العقل، ءاخذ بشيم الفضل، لا يغضب إلا لأمر يهمه وحادث يكربه ويعمه، فهذا يابني يجب عليك أن تحتال عليه بأنواع الحيل لتبلغ منه غاية الأمل، وتخادعه بضروب المخادعات، وتصانعه بوجوه المصانعات كما قدمناه لك في باب السياسة.

يابني فإن كان العدو أضعف منك فمن كتابه أيضا يستدل على عقله وجميل سيره وفضله، أو على حماقته وجهله، فإن كتب إليك بالخير المرة بعد المرة، وما لا يقتضي إلابالهداية والمسرة، فتلعم أنه عاقل، وفي تدبيره فاضل كامل، لكونه يوليك ويحاسنك ويصافيك ويهادنك، ويعترف لك بالشفوق عليه، ولتكن حالك معه كما قدمناه في باب السياسة، وإن وجدته مع ضعفه يكتب لك بما لا يرضيك، وكتبه تقرع سمعك بعتبه فتستدل من ذلك على انزعاجه، وضعف عقله وسوء مزاجه، فاعمل الحيلة في طلبه، ولا تمهله فإنك ستظفر به.

تكملة[1] الكتاب

وقد وضعنا لك هذا الكتاب وحررنا كلامه من لباب اللباب، وشرحنا فيه وصايا أخروية وسياسة دنيوية، وجمعنا لك ما يصلح بين الدنيا والآخرة، والسعادة الظاهرة والباطنة، فاجعله مهاجك الذي تقتدي، بهديه وسراجك الذي تستضي به.

وبعد حفظتك لكتابنا هذا واتباعك للأمور الشرعية والسياسة الدنيوية، فتكون عمدتك كلها التوكل على الله في جميع أمورك والتفويض له (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)[2].

يابني اخلص نيتك في الدعاء ترجى لك الإجابة من رب السماء، واعلم أن الملك هبة الله يهبه من يشاء من عباده، وهو يابني بأمره ومراده: **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)**[3].

يابني اخلص سريرتك مع الله، واعلم أنه يطلع على سريرتك، فحسن معه جميل سيرتك، وارجع في أحوالك مع ربك بصيرتك، فإن الله مطلع على السرائر وعالم بما في الضمائر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أسر سريرة ألبسه* الله رداءها)[4].

يابني واعلم أنه كما لا تحب أن يعصيك خديمك فيما تأمره به فكذلك لا ينبغي لك أن تعصي ربك فيما يأمرك به.

يا بني إذا اختلف عليك أمران: أمر يصلح بينك وبين خاصتك وأمر يصلح بينك وبين الله عز وجل فاتبع ما يصلح بينك وبين الله عز وجل.

---

1 - في الأصل: تكملت.
2 - سورة الطلاق، الآية 3.
3 - سورة آل عمران ، الآية 26.
* في الأصل كساه، ولم ترد هذه الكلمة في الحديث لذلك كتبت بدلها الكلمة الواردة فيه وهي كلمة: ألبسه.
4 - رواه أبو يوسف ، الآثار لأبي يوسف، منشور على شبكة الأنترنت، موقع: http://www.alsunnah.com، ج 2، ص 409.

واعلم يابني أن خير الزاد التقوى، والآخرة خير لك من الأولى، وشر معبود عبد في الدنيا الهوى.

يابني أجمل عدة تعتدها وزينة تتزين بها اتباع الحق واجتناب الباطل، وصلة الأرحام؛ فالخير في الواصل.

وتجنب مال الأيتام والتعفف عن الحرام، وارغب فيما عند الله، وازهد عما في أيدى الناس، فمن اتبع الحق هابه الخلق، ومن اجتنب الباطل أمن من الأفات العواطل، وصلة الأرحام زيادة في الأعمار وأمان من البوار.

واعلم يابني أن من أكبر الكبائر أكل مال الأيتام، وأعظم الأوزار ارتكاب تهوين الاحترام.

واعلم يابني أنه لا يبقى للإنسان إلا الثناء الحسن، والعمل الصالح الذي لا يخاف معه محن، وليكن اعتبارك بالأمم الماضية والقرون الخالية، فإنه قد ذهبت أموالهم وبقيت أعمالهم.

يابني إياك والغفلة، واستعمل الزاد للقلة، فإن الموت أقرب إليك من نفسك إليك، ومن رد طرفك عليك.

يابني واعلم أن الناس (يخوضون ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون)[1]؛ فمن غرس خير اجتنى مسرة وكرامة، ومن غرس شر اجتنى مضرة وندامة.

واعلم يابني أن جوارحك شهود عليك، وقدم الأعمال الصالحة بين يديك.

يابني عليك بالصدق فإن الصدق رفعة وديانة، والكذب مذلة وخيانة وإهانة.

يابني اجعل عقلك أميرك، وصمتك وزيرك، والعدل جليسك، والحق أنيسك.

---

1 – إشارة إلى قوله تعالى: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ). سورة الزخرف، الآية 83.

يابني عليك بالجود والإيثار وخصوصا لعباد الله الأخيار، واكرم العلماء والصالحين، والتحريرات للمرابطين، وشد معالم العلم، وعليك بالتقوى والحلم، واعتبر بقصة نظام الملك وزير البارسلان: ذكر الطرطوشي أنه كان بالعراق حين وزر نظام الملك خراجا لملك الترك الفتح بن البارسلان، وكان قد وزر قبله لأبيه، فقام بدولتها أحسن قيام، شد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، وولى الأولياء، واستعمل الكفاة، وعم إحسانه العدو والصديق، والقريب والحبيب والبعيد، حتى ألف الملك بجيرانه، وذل الخلق لسلطانه، فكان مهد له ذلك باذن الله وتوفيقه إياه، لأنه اقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، وبني دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعبّاد وأهل الصلاح والزهاد والفقراء، ثم أجرى لهم الجريان والكسى والنفقات مشاهرة، وأجرى الخير على من كان من أهل الطلب والعلم، مضافا إلى ارزاقهم المرتبة، وعم ذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام، وهي بيت المقدس إلى ءاخر الشام الأعلى، وهي ديار بكر والعراقين وخراسان وأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر حيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو متعبدا أو زاهدا في زاوية بيته إلا وكرامته شاملة له، سابغة عليه.

وكان الذي يخرج من بيت أمواله في هذه الأسباب ستمائة ألف دينار في كل سنة، فوشى به الوشاة إلى أبي الفتح الملك، وأوغروا صدره عليه، وقالوا له: إن هذا المال الخارج من بيت الأموال تقيم به جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية، فخامر ذلك قلب أبي الفتح، فلما دخل عليه قال: ياأبت بلغني أنك تخرج من بيت أموالنا في كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا، فبكى نظام الملك وقال: يابني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أبلغ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك غساك تبلغ ثلاثين دينارا، وأنت مشتغل بلذاتك ومنهمك في شهواتك، وأكثر ما تصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا حشدوا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان وأقواس لا ينتهي مد

مرماها ثلاثة مائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزامر والطنبور، وإنما اقفت لك جيشا يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيشك، فأنت وجيوشك في غفارتهم تعيشون، وبدعائهم تثبتون، وببركتهم تمطرون وترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع؛ فبكى أبو الفتح بكاء شديدا ثم قال: شبابا قش [1] أكثر لي من هذا الجيش.

ومن مناقب هذا الرجل وفضله أن رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفي فقال له: يا خواجا أنا أبني لك مدرسة بمدينة السلام لايكون في معمور الأرض مثلها، يخلد بها ذكرك إلى يوم تقوم الساعة ، فقال له: افعل، وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال؛ فأتيا بقعة على شاطئ دجلة واختط بها المدرسة النظامية، وبناها أحسن بنيان، وكتب عليها اسم نظام الدولة، وبنى عليها أسواقا تكون محبسة عليها، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات، واوقف ذلك كله عليها، وكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسئدد، وذكر جميل طبق الأرض خبره، وعم المشارق والمغارب أثره في عشر الخمسين والأربعمائة للهجرة، ثم رفع حساب ذلك إلى نظام الدولة، فبلغ ما يقارب ستين ألفا، فوشى إليه بأبي سعيد الصوفي بأن قيل له: لم تبلغ نفقة المدرسة ذلك القدر، وأن سائر الأموال احتجبها أبو سعيد الصوفي لنفسه وخانك فيها، فدعاه نظام الملك إلى الحساب إلى اصبهان، فلما احس أبو سعيد بذلك أرسل إلى الخليفة العباسي يقول له: هل لك أن اطبق الأرض بذكرك، وأنشر لك فخرا لا تمحوه الأيام؟ قال امح اسم نظام الملك من هذه المدرسة واكتب عليها اسمك، وتزن المال ستين ألف دينار، فارسل إليه الخليفة وقال له: أنفذ من يقبض المال، فلما استوثق منه مضى إلى اصبهان، فقال له نظام الملك: إني

---

1 - لم اتمكن من فهم هذه الكلمة ، ولعلها غير عربية.

دفعت لك نحوا من ستين ألف دينار نفقة، وأحب إخراج الحساب، فقال له أبو سعيد: لا تطل الكلام إن رضيت وإلا محوت اسمك المكتوب على المدرسة واكتب عليها اسم من يقبض المال، فلما أحس نظام الملك قال له: يا شيخ قد سوغت لك جميع ذلك كله ولا يمح اسمنا.

ثم إن أبا سعيد بنى بتلك الرباطات الصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين وأوقف جميع ذلك على الصوفية، فالصوفية إلى وقتنا هذا في رباط أبي سعيد الصوفي وأوقافه، يتقلبون ببغداد.

واعلم يابني أن أفعال الخير كثيرة، واسبابها لمن يسر عليه التوفيق يسيرة، وأفضلها اتخاذا، وأحسنها ملاذا، وأزكاها قربة، وأسماها عند الله يوم القيامة رتبة، الجهاد الذي هو ركن من أركان الدين، وفرض على من ولاه من أمراء المسلمين في كل إقليم، ولله من خلفه حماة لدينه وأنجاد.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لاتزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)[1].

وفي التفسير أنهم إخواننا (في)[2] الأندلس، الذين هم بين بحر زاخر وعدو كافر، النائم منهم على فراشه كالمجاهد في سبيل الله.

فإذا كان أهلها بهذه المزية، ولهم عند الله هذه المرتبة السنية ،فليكن اهتمامك يابني بأهل الأندلس أكثر الاهتمام، وأخذك في موالاتهم ومعونتهم الأخذ التام، فتمدهم بما تستطيع عليه، من الزرع والمال والخيل والحماة والأبطال والقوة التي أمر الله نبيه عليه السلام أن يستعد بها لعدوه، ليسكن بها من علوه، وهي الرمي ورباط الخيل، تؤثرهم بذلك كل سنة، ولا تغفل عنهم في يقظة ولا سنة، ولتحمل أهلها

---

1 - رواه أبو عوانة في المستخرج، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع: http://www.alsunnah.com، ج 14، ص 491.

2 - ما بين هلالين من إضافتنا.

القاصدين إلى بلادك على البر والإكرام، والرعى والاحترام، وتيسر عليهم أسباب إيساق الطعام، فإن مسعاهم لإقامة إخوانهم المجاهدين، ومنحاهم لما يقيم بأولاد المسلمين المرابطين، ولاسيما تصرفهم في الميرة، واقتحامهم عليها كل مخافة عسيرة، تخوضون إلى الإتيان بها في بحر زاخر، ويقاتلون عليها كل طاغية كافر، اذ الميرة قوام الأجسام، وحياة الأنفس، وحفظ هذا الأنام، فإنها إذا اقبلت أضعفت الأناسي، وأقلت الأنعام.

واعلم يابني إن بلادك بحمد الله أكثر البلاد زرعا، وأغزرها ضرعا، وأخصب الأوطان، وأحسنها إقليم في هذا الشأن، فلتؤثر الأندلس مما أفاء الله عليك مغانم النعم، وتجعل نوافلك لهم قبل من تعلق بك من العرب والعجم، فإنك إن فعلت ذلك كنت مجاهدا، ولحزب الله معاضدا، فتكثر البركات في بلادك وفي حماتك وأجنادك، وتتحفك منابر الإسلام دعاء، ثم تصلح لك بها الأمور، وتظهر لك من بركاتك الظهور إن شاء الله تعالى.

يابني عليك بإقامة شعائر الله عز وجل، وابتهل إليه في مواسم الخير، وتوسل واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد الرسول عليه السلام، واستعد لها مما تستطيع من الإنفاق العام، واجعله سنة مؤكدة في كل عام، تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، وإن ركبت فيك الغريزة الشعرية وتحليت بالحلية الأدبية زدت جمالا إلى جمالك، وكمالا إلى كمالك، فانظم المولديات، واجر مع جملة السابقين في الأدبيات تحوز بذلك أفضل المزيات.

وهذا يابني دأبنا في كل عام وسنتنا على الاستمرار والدوام؛ فمن بعض ما نضمناه في ذلك وسلكنا فيه أحسن المسالك قولنا:

ألفت الضنا[1] وألفت النحيبا[1] ... وشب الأسى في فؤادي لهيبا

1 – الضنا: الهزال والضعف وأثر المرض.

وحق لنفسي أسا أن تذوبا ... وللدمع من مقلتي أن يصوبـــــا

فقد كنت بالوصل منكم قريبا ... فاصبحت بالهجر أخشى الرقيبا

جفاني الحبيب فسر الحسود ... وأدنى البعيد وأقصى القريبـــا

فياليت شعري هل عطفة ... بوصل وعيش يكون خصيبـــــا

فمالي على الهجر من قدرة ... يريب النفوس ويغشى القلوبـــا

وقفت رجائي بكم فارحموني ... وقوفي على بابكم مستريـــــا

فريد غريب أنا بينكم ... وماشأنكم تفردون الغريـــــــــا

ومالي ذنب سوى حبكم ... وتالله عن حبكم لن أتوبـــــــا

فإن تقتلوني حلالا لكم ... أنا أرتضى مايرضى الحبيـــــــا

وإن تبعدوني على زلتي ... فشيمتكم تغفرون الذنوبـــــــا

وإن ترحموا صبكم ... فظل رضاكم يغطي العيوبـــــا

أسير هواكم قتيل نواكم ... لعل رضاكم يكون قريـــــــــا

فؤادي عليل وجسمي نحيل ... وسقمي طويل قد أعي الطبيـــــا

هجرت المحوع نثرت الدموع ... فسري أذيع والقلب وقلبي أديـــــا

بكيت الرسوم رعيت النجوم ... إذا ري الهموم معا الخطوبـــــــا

أعاتب نفسي على زلتي ... فيزداد جسمي ضنا وشحوبـــــــا

انظر ابن الأثير الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، 1399 هـ - 1979 م، ج 5،ص 140.

1 - النحيب: رفع الصوت بالبكاء.

انظر ابن منظور، م س، مادة نحب.

مسيئ ألم بذنب أدم وأجمع ... لما أساء أن يتوبــــــــــا

سألتك ياخالقي توبة ... فمازلت للسائلين مجيبـــــــــا

وأنت رقيبي يوم الحساب ... كفى بك يوم الحساب رقيبـــــا

خشيت المعاصي يوم القصاصي ... إذا ما النواصي تشيب مشيبـــا

فكم قد لهوت وكم قد سهوت ... ولكن دعوت سميعا مجيبـــــا

عليما بخطئي يفرج كربي ... فمازال ربي يزيل الكروبـــــا

مضى العمر ياحسرتي في ... الضلال واشتعل الرأس منى شيبـــا

وأضحى من الشوق جسمي ... عليلا وأمسى من الكفر قلبي كئيبـــا

أحن إلى الفجر عند الطلوع ... وللشمس حين تروم الغروبـــــا

إذا هبت الريح من طيبة... تعطرت الأرض مسكا وطيبــــــا

فأصبوا إليها ومن أجلها ... أحب الصبا وأحب الجنوبــــــــا

تهب النواسم من أرضه... فتزداد نار اشتياقي هبوبــــــــا

حنينا وشوقا إلى المصطفى... أثار الغليل وأذكى الوجيبــــــا

إلى خيرها دهرا للرشاد ... جميع العباد وجل الخطوبــــــــا

أجل شفيع مكين رفيع أتا ... في ربيع فأوحى القلوبــــــــا

فأكرم بشهر حوى كل فخر ... بمولد بدر بدى لن يغيبـــــــا

كريم السجايا عظيم المزايا ... جميل العطايا جليلا وهوبـــــا

فياحادي العيس[1] نحو الحما ... إذا جئت ذاك الجناب الرحيبـــــا

---

1 – العيس هو البياض الخالص ؛ جمل أعيس وناقة عيساء من إبل عيس.

وزاد الهوى حين زال النوى ... وجيئت اللوى[1] واعتمدت الكثيبـــا

لقبر التهامي لبدر التمامي ... لخير الأنام شفيعا حبيبـــا

فبلغ إليه سلامي عليه ... فإن لديه لسقمي طبيبـــا

وإن جئت نجدا وأعلامها ... فشق ثراها بدمع سكيبـــا

فقبر الرسول مناي وسول ... عسى بالوصول ساحظى نصيبـــا

فياسعد قوم جدوا كل يوم ... وعن وضع نوم تجافوا جنوبـــا

حدوا النياق فزاد اشتياق ... وسالت سواقي دموعي صبيبـــا

تمنا لهم قصدهم عندما ... تسنم كل نجيب نجيبـــا

ورموا الحمولا وأموا الرسولا ... وجابوا السهولا معا والسهوبـــا

ساروا عني ففاضت عيني... وقد خلفوني مشوقا كئيبـــا

فقلبي بالشوق في مشرق... وجسمي بالمغرب أضحى غريبـــا

سقوني كؤسا تذيب النفوسا ... ويرجوك مونسي تزيل الكروبـــا

بحرمة أحمد خير الورى ... رجائي وطني به لن يخيبـــا

نبي أتى رحمة للعباد ... فمحى ومحض عنا الذنوبـــا

وسن الشريعة للمؤمنين ... وشق على الكافرين الحروبـــا

بمولده أشرق الأفق نورا ... وألبست الأرض حسنا قشيبـــا[2]

ابن دريد، م س، ج 1، ص 415.

1 - اللوى وجع في البطن.

ابن منظور، م س، مادة لوي

2 - قشيب: جديد. انظر ابن دريد، م س، ج 1، ص 157.

وكسرى تساقط إيوانه ... وكاد من الرعب يلقى شغوبـــــا

ونيران فارس قد خمدت ... وإخمادها كان سرا عجيبـــــا

وخفت موارد أنهارهم ... وقد أعقبت بعد ري نصوبـــــا

وحن له الجذع مستوحشا ... وأبدا له البكاء والنحيبـــــا

دعا العباد لسقي البلاد ... فأخصب ما كان منها جذيبـــــا

وشق له البدر عند التمام ... وكلمه الضبي يشكو الخطوبـــــا

وكم معجزات له أعجزت ... جميع الورى شاعرا او خطيبـــــا

عليه السلام ما تباكى الغمام ... وأفاضي للروض ثغرا شنيبـــــا

وقولنا أيضا هذه المخمسة

درفت لتذكار العقيق دموع ... وازداد شوقي للحما و ولوعي

والحب شبا أواره بضلوعي ... من لي بشمل الهوى مجموعي

ولحن قلبي بالهوى مصدوعي

هب النسيم من أرض نجد شاقني ... والحب أرقني سناه وأراقني

والذنب عن وصل الأحبة عاقني ... وجرت دموع كالعقيق وخانني

صبري وكان الشوق باب خضوعي

حبي شفيع للحبيب أن أعرضا ... والحب باب للشفاعة والرضى

لكنى ضعيف فيما قد مضى ... رمت المسير فلم يوافقنى القضى

ولكم نشرت إلى الرحيل قلوعي

قضيت عمرى في لعل وفي عسى ... فالعبد يرغب في الصباح وفي المسا

والقلب منفطر يذوب لهم أسا ... والدمع منحور كما الينبوعي

شأن المحب على زيادة حبه ... عزم المسير إلى زيارة حبه

لو كان ساعدني الزمان بقربه ... لحططت رحالي مقدس تربه

وهجرت خلاني له وربوعي

أخطأت مرماي وغيري ما خطا ... واتبعت غيي[1] في الذنوب وفي الخطا

والشيب وافا والشباب تفرطا ... ياسعد ساعدني على زمان سطا

هل الزمان مساعد برجوعي

سقي الثري من مدمعي لما هما ... ولقلب هام ونار أشواقي اضرما

شوق المحبوب منامي قد حما... ولقد شغفت بحب من سكن الحما

وحرمت لذاتي معا وهجوعي

قد زاد شوقي للعقيق[2] والصفا ... ولروضة الهادي الشفيع المصطفا

يأهل ود أنتم أهل الوفا ... وأنا المحب لكم وقد برح الخفا

وإليكم دون الأنام رجوعي

صب صبا قلبي ودمعي قد جرا ... وهجرت سلواني ولذات الكرا

وبحالتي من شوق نجد ترا ... وجدني لمن ركب البراق وقد سرا

لمقام علي في السما رفيع

يا ليلة الإثنين نورك قد سما ... وانجابت الظلمات عن أفق السما

---

1 - الغي: الضلال.

انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 159.

2 - العقيق: وادي معروف بالمدينة المنورة.

وأخمد إيوان كسرى عندما ... ولد النبي الهاشمي إلا كرما

في ليلة غرا في شهر ربيع

بمدى رسول الله أمته اهتدت ... بظهوره الأصنام خرت وارتدت

وبنوره نيران فارس أخمدت ... وعجائب بانت وآيات بدت

وبشارة جاءت لكل مطيع

والبدر شق بغير شك يعترى ... لمحمد المختار من خير الورى

والجذع حن إليه من غير امترا ... والماء نبعا من أنامله جرى

من غير ممنون ولا ممنوع

سعد الأنام بخير من وطئ الثرى ... في ليلة الاثنين لاح وأقمرا

ياحاد يا يحدوا إليه بالسر... رفقا علي فما أطيق تصبرا

عمن تحكم حبه في ضلوعي

يارب كم بالذنوب أنوسا ولكم ... أعطيت مع العصاة جلوسا

وسقيت من فقد الحبيب كؤسا ... يارب يرجو منك عبدك موسا

عفوا بمن يوصل مترل الترفيع

أدعوك دعوة مستهام واله ... أوليتني منك الإحسان فواله

واسمح لعبدك عن قبيح فعله ... فوسيلتى حب النبي وآله

خير الأنام وهو خير شفيع

وقلت أيضا:

قفا أخبراني عن رسوم نواهج ... وعن معلمات طيبات الأرائج[1]

وعن أرض نجد والعريب وبارق ... ولا تخبران عن ذوات الدمالج[2]

وشد خماصا كالجدوع حدائدا ... وجد السرى باليعلميات الدوالج[3]

وجوبا الفيافي والمهامه[4] واستعن ... على قطع أسباب النوا بالنواعج[5]

وعوجا بواد الطلح من أرض رامة ... وزما الهواد عند رملة عالج

وإن جئت نجد فانتشق من ترابها ... كصرف عبير وكطيب النوافج[6]

وإن أبصرت عيناك أرض تهامة ... فبشراك قد وافيت أسنى المناهج

فاسر بطرف فوق طرف مضمر ... وحط حمول البزل[7] بين الغوانج[1]

---

1 - الأرائج: جمع أريج وهو الرائحة الطيبة.
انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 134.

2 - الدمالج جمع مفرده الدملج وهو، بضم الدال وسكون الميم وضم اللام، السوار الذي يلبس في العضد للزينة.
الدكتوران محمد روا قلعة جي و حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط 1، 1985، ج 1، ص 212.

3 - الدواج جمع دولج وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير. وأصل الدولج وولج لأنه فوعل من ولج يلج إذا دخل فأبدلوا من الواو تاء فقالوا تولج ثم أبدلوا من التاء دالا فقالوا دولج . وكل ماولجت فيه من كهف أو سرب ونحوهما فهو تولج ودولج .
انظر ابن الأثير الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 2، ص 350.

4 - المهامه: جمع مفرده مهمه، وتعني الأرض المقفرة التي لا نبات فيها.
انظر ابن منظور، م س، مادة مهه.

5 - النواعج من النعج: ضرب من سير الإبل نعجت الناقة تنعج نعجا ونعجا، وهي ناعجة والجمع نواعج.
ابن دريد، م س، ج 1، ص 240.

6 - النوافج :جمع مفرده النافجة، بكسر الفاء وفتح الجيم، وهي وعاء المسك.
الدكتوران محمد روا قلعة جي و حامد صادق قنيبي، م س، ج 1، ص 472.

7 - البازل هو الجمل الذي أتم السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابه فهو حينئذ بازل وكذلك الأنثى بغير هاء جمل بازل وناقة بازل وسمي بازلا من البزل وهو الشق وذلك أن نابه إذا طلع يقال له بازل لشقه اللحم عن منبته شقا.
ابن منظور، م س، مادة بزل.

وقل لسلمى لست أسلو بحبها ... وأن طريقي لست فيها بناهج

وإن برقت من أرض نجد بوارق ... تذكرني عهد الهوى والهوادج

فصرح بذكر العقيق وحاجر... لأن بها يشفى غليل اللواعج

وإن جئت أرضا بالحجاز عرفتها ... فشق ثراها بالدموع الموارج[2]

أقول لأضعان وقد غالها السر... أوأنسها الحادي وأوحشها الزجر

رويدك بعد العسر يسرا فابشري ... بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر

ولله فينا سر غريب وربما ... أتى النفع من حال أريد به الضر

وإن تخن الأيام لم تخن النهى ... وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر

وإن حركت منى الخطوب مجربا ... لغابا تساوى عنده الحلو والمر

فقد اعجمت عودا طيبا على القوى ... وعزما كما تمضى المهندة البتر

إذا أنت بالبيضاء أقررت مترلى ... فلا اللحم حل ما حييت و لا الظهر

زجرنا بإبراهيم برء همومنا فلما ... رأينا وجهه صدق الزجر

بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا ... الخطب لم يكذب لعزمته فخر

تناقلت الركبان طيب حديثه... فلما رأته صدق الخبر الخبر

ندى لو حواه البحر لذ مذاقه ... ولم يتعقب مده أبدا جزر

وبأس غدا يرتاع[1] من خوفه الردى ... وترفل[2] في أذياله الفتكة[3] النكر

---

1 – الغوانج من فيهن غنج ، وقال ابن منظور في بيان معنى غنج: (امرأة غنجة حسة الدل وغنجها وغناجها شكلها... وقيل الغنج ملاحة العينين). لسان العرب، مادة غنج.

2 – الموارج: جمع مورج وهي في الأصل ألوان النبات إذا اصفرت واحمرت، واستعملها الكاتب من باب المجاز كأنه يريد أن يقول: إن الموع كادت أن تكون مختلطة بالدم من كثرة البكاء.

انظر في معنى الموارج: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، م س، ج 1، ص 185.

أطاعته حتى العصم[4] في قنن[5] البا[6]... وهشت[7] إلى تأميله الأنجم الزهر

قصدناك يا خير الملوك على النوا... لتنصفنا مما جنا عبدك الدهر

كففنا بك الأيام عن علوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر

وعدنا بذاك المحمد فانصرم[8] الردى ... ولذنا بذاك العز فانهزم الدهر

ولما اتينا البحر يرهب موجه ذكرنا ... نداك العمر فاحتقر البحر

خلافتك العظما ومن لم يدر بها ... فإيمانه لغو ومعروفه نكر

ووصفك يهدى المدح قصد صوابه ... إذا ظل في اوصافه من دونك الشعر

دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت ... وقد طاب منها السر لله والجهر

ومدت إلى الله الأكف ضراعة ... فقال لهن الله قد قضى الأمر

وألبسها النعمى ببغيتك التي لها ... الطائر الميمون والمحتد الحر

فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا ... وقد كان مما ناله ليس يعتر

وأمنت بالسلم البلاد وأهلها ... فلا ضنة[1] تعرى و لا روعة تعر

---

1 – يرتاع: يفزع ويتحير.

2 – ترفل وارفل الرجل ثيابه، إذا أرخاها. ابن منظور، م س، مادة رفل.

3 – الفتكة من الفتك وهو القتل مجاهرة. ابن سيده، م س، ج 2، ص 5.

4 – العُصْم: جمع مفرده أعصم وهو: من الظباء والوعول الذي في ذراعه بياض، وفي التهذيب في ذراعيه بياض وقال أبو عبيدة الذي بإحدى يديه بياض والوعول عُصْم. ابن منظور،م س، مادة عصم.

5 – القنة بالضم: أعلى الجبل، مثل القلة، والجمع قنان، وقنن وقنات.
الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 2، ص 98.

6 – الربا ،هكذا في الأصل ولعله الربى، لأن الربا لا تستقيم مع القنن، ويقصد بالربى : جمع ربوة وهي الأرض المرتفعة. انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 176.

7 – هشت :جمعت. الزَّبيدي، م س، مادة هش.

8 – انصرم: من الصرم وهو القطع،قال بعض أهل اللغة: إذا انصرم الليل عن النهار فهو صريم، وكذلك النهار إذا انصرم عن الليل.
ابن دريد، م س، ج 1، ص407.

وقد كان مولانا أبوك مصرحا ... بأنك في أولاده الولد البر

وأوحشت من دار الخلافة هالة ... رضانا لا يلوح له البدر

فرد عليك إلا حقك اذ قصى ... بأن النعمى وينسدل السر

وقاد إليك الملك رفق لخلقه ... وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا

وزادك بالتمحيص عزا ورفعة وأحرا ... ولولا السبك ما عرف النصر

وأنت الذي تدعى إذا دهم الردا ... وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... ومن علياك يلتمس الجبر

غريب يرجى منك ما أنت أهله ... فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر

ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بآل مرين جاءه العز والنصر

وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففي ضمن ما تأتي به العز والجبر

وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق فما زيد يرجى و لاعمر

فإن قيل مال مالك الدثر وافر .. وإن قيل جيش عبدك العسكر المجر

يكف بك الغادي ويحي بك الهدى ... ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر

أعده إلى أوطانه عنك راضيا ... وطوقه نعماك التي مالها حصر

وعاجل قلوب الناس فيه غبرها ... فقد صدهم عنه التغلب والقهر

وهم يرقبون الفعل منك وصفقه ... تحاولها مناك ما بعدها حسر

مرامك سهل لا تؤزدك كلفة سوى ... عرض ما إن له في العلى حصر

---

1 – الضنة: الضنة والضن والمضنة كل ذلك من الإمساك والبخل.

ابن منظور، م س، مادة ضنن.

وما العمر إلا زينة مستعارة ... ترد ولكن الثناء هو العمر

ومن باع ما يفنى بباق مخلد ... فقد أنجم المسعى وقد ربح الأجر

ومن دون ما تبغيه يا ملك العلى ... جياد المراكى[1] والمحجلة[2] الضمر

وراد وشقر واضحات شباتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در

وشهب إذا ما صمرت[3] يوم غارة ... مظهمة غارت بها الشهب الزهر

عليها من المبادي كل معاضة[4] ... تدافع في أعطافها اللجج[5] الخطر.

أنتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وكان الفراغ منه اوائل شعبان المعظم عام تسعة وعشرين ومائة وألف.

---

1 – المراكي: الدائم المقيم. الصاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 62.

2 – المحجلة: جمع مفرده المحجل و هو الجواد الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين لأنهما مواضع الأحجال وهي الخلاخيل والقيود؛ ويقال: خير الخيل الأفرح المحجل. ابن الأثير الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 1،ص 899.

3 – صمر: قال الليث في بيان معنى صمرت :صمر الماء صمورا جرى من حدور في مستوى فسكن. انظر الصاحب بن عباد، م س، مادة صمر.

4 – المعاضة: من عض يعض عضا، قال ابن منظور: (العض الشد بالأسنان على الشيء وقد عضضته أعضه وعضضت عليه عضا وعضاضا وعضيضا وعضضته... والأمر منه عض واعضض... وفي حديث العرباض وعضوا عليها بالنواجذ... هذا مثل في شدة الاستماك بأمر الدين لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم والأسنان وهي أواخر الأسنان وقيل هي التي بعد الأنياب... وكذلك المعاضة والعضاض... وعض الرحل بصاحبه يعضه عضا لزمه ولزق به وفي حديث يعلى ينطلق أحدكم إلى أخيه فيعضه كعضيض الفحل أصل العضيض اللزوم وقال ابن الأثير في النهاية المراد به ههنا العض نفسه لأنه بعضه له يلزمه.. وعض عليها لزمها... وأعض الرمح الثقاف ألزمه وعضضت بمالي عضوضا وعضاضة لزمته) لسان العرب ، مادة عضض.

5 – اللجاج: جمع مفرده اللج وهو السيف.
انظر الجوهري، م س، ج 2، ص 134.

ملحـــــــق

بعض ما قيل في أبي حمو من الشعر والنثر

أولا: من شعر لسان الدين بن الخطيب

1- الميمية[1]

صبور على البلوى طهور من الهوى ... قريب من التقوى بعيد المآثم

ومن يبغ درك المعلوات ونيلها ... يساق بخلق الشهد مر العلاقم

ولايمة لما ركبنا إلى العلا ... بحار الردى في لجها المتلاحم

تقول بإشفاق أتنسى هوى الدما ... وتنثر درراً من دموع سواجم

إليك فإنا لا يرد اعتزامنا ... مقالة باك أو ملامة لايم

ألم تدر أن اللوم لوم وأننا ... لنجتنب اللوم اجتناب المحارم

فما بسوي العليا همنا جلالة ... إذا هام قوم بالحسان النواعم

بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب إلينا من بروق المباسم

وأما صميل السابحات لذي الوغى ... فأشجى لدينا من غنا الحمايم

وأحسن من قد الفتاة وخدها ... قدود العوالي أو خدود الصوارم

إذا نحن جردنا الصوارم لم تعد ... إلا غمادها الأبحر الغلاصم

نواصل بين الهند وأبي الطلا ... بتفريق ما بين الطلي والجماجم

فيرغب منا السلم كل محارب ... ويرهب منا الحرب كل مسالم

نقود إلى الهيجاء كل مضمر ... ونقدم إقدام الأسود الضراغم

---

1 - تسمية القصيدة بالميمية من وضعنا

وما كل من قاد الجيوش إلى العدا ... يعود إلى أوطنانه بالغنائم

وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... إذا شيك مظلوم بشوكة ظالم

ويأوي إلينا المستجير ويلتجي ... ويحميه منا كل ليث صيارم

ألم تر إذ جاء السبيعي قاصدا ... إلى بابنا يبغي التماس المكارم

وذلك لما أن جفاه صحابه ... وكل خليل وده غير دايم

وأزمع إرسالاً إلينا رسالة ... بإخلاص ود واجب غير واجم

وكان رأى أن المهامة بيننا ... فخلى لذات الخف ذات المناسم

وقال ألا سل من عليم مجرب ... أبث له ما تحت طي الحيازم

فيبلغ عنه الآن خير رسالة ... تودي إلى خير الملوك الأعاظم

على ناقة وجناء كالحرف ضامر ... تخيرها بين القلاص الرواسم

من اللايي يظلمن الظليم إذا عدى ... ويشبهه في جيده والقوايم

إذا أتلعت فوق السحاب جوابها ... تخليتها تعض السحاب الرواكم

وإن هلمجت بالسير في وسط مهمه ... نزلت كمثل البرق لاح لشايم

ولم يأمن الخلان بعد اختلالهم ... فأمسى وفي أكبادها أي جاحم

فقالوا فحملها الحمايم قال لا ... لبعد المدا أو خوف صيد الحمايم

وما القصد إلا في الوصول بسرعة ... فقالوا فحملها أكف النواسم

فقال لنعم المرسلات وإنما ... لها ألسن مشهورة بالنمايم

فلم يلف فيها للأمانة موضعا ... وكل امرئ للسر ليس بكاتم

فحينئذ وافى إلينا بنفسه ... فكان لدينا خير واف وقادم

يجوب إلينا البيداء قصداً وبشرنا ... يضيء له الظلماء في كل عاتم

طلاب العلا تسري مع الوحش في الفلا ويصحب منها كل باغ وباغم

على سلهب ذي صوتين مطعم ... من المغربات الصافنات الصلادم

إذا شاء أي الوحش أدركه به ... فتحسبه في البيد بعض النعائم

ويقدمه طوعاً إلينا رجلؤه ... حمايتنا إياه من كل ظالم

ألا أيها الآتي لظل حناننا ... نزلت برحب في عراص المكارم

وقوبلت منا بالذي أنت أهله ... وفاض عليك الجود فيض الغمائم

كذا دأبنا للقادمين محلنا ... حمى وندأ ينسي به جود حاتم

وهذا جواب عن نظامك إننا ... بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم

ونحن ذوو التيجان من آل حمير ... لعمرك ما التيجان غير العمائم

بهمتنا العليا سمونا إلى العلا ... وكم دون إدراك العلا من ملاحم

شددنا لها أزراً وشدنا بناءها ... وكم مكثت دهراً بغير دعائم

نظمنا شتيت المجد بعد افتراقه ... وكمم بات نهباً شمله دون ناظم

ورضنا جياد الملك بعد افتراقه ... وكم بات نهباً شمله دون ناظم

ورضنا جياد الملك بعد جماحها ... فذلت وقد كانت صعاب الشكائم

مناقب زيانية موسوية ... يذل لها عز الملوك القماقم

يقصر عن إدراكها كل مبتغ ... ويعجز عن إحصايها كل ناظم

فلله منا الحمد والشكر دايماً ... وصلى الله على المختار من آل هاشم

وتختصكم منا السلام الأثير ما ... تضاحك روض عن بكاء الغمايم[1]

2- السينية[2]

أطلعن في سدف الفروع شموسها ... ضحك الظلام لها وكان عبوسا

وعطف قضبا للقدود نواعما ... بوئن أدواح النعيم غروسا

وعدلن عن جهر السلام مخافة ال ... واشي فجئن بلفظه مهوسا

وسفرن من دهش الوداع وقومهن ... إلى الترحل قد أناخوا العيسا

وخلسن من خلل الحجال إشارة ... فتركن كل حجالها مخلوسا

لم أنسها من وحشة والحي قد ... زجر الحمول وآثر التغليسا

لا الملتقي من بعدها كثب ولا ... عوج الركاب تسأم التخييسا

فوقفت وقفة هائم برحاؤها ... وقفت عليه وحبست تحبيسا

ودعوت عيني عاتبا وعيونها ... بعصا النوى قد بجست تبجيسا

نافست يا عيني در دموعهم ... فعرضت درا للدموع نفيسا

ما للحمى بعد الأحبة موحشا ... ولكم تراءى آهلا مأنوسا

ولسر به حول الخميلة نافرا ... عمن يحس به وكان أنيسا

ولظله المورود غمر قليبه ... لا يقتضي وردا ولا تعريسا

حييته فأجابني رجع الصدى ... لا فرق بينهما إذا ما قيسا

ما إن يزيد على الإعادة صوته ... حرفا فيشفى بالمزيد نسيسا

---

1 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 446.

2 - تسمية القصيدة بالسينية وضعها المقري. انظر أزهار الرياض، ص 83.

نضب المعين وقلص الظل الذي ... ظللنا وقوفا عنده وجلوسا

نتواعد الرجعى ونغتنم اللقا ... ونديرمن شكوى الغرام كؤوسا

فإذا سألت فلا تسأل مخبرا ... وإذا سمعت فلا تحس حسيسا

عهدي به والدهر يتحف بالمنى ... وقد اقتضت نعماه أن لا بوسا

و العيش غض الريع والدنيا قد اج ... تليت بمغناه على عروسا

أترى يعيد الدهر عهدا للصبا ... درست مغاني الأنس فيه دروسا

أوطان أوطار تعوض أفاقها ... من رونق البشر البهي عبوسا

هيهات لا غني لعل ولا عسى ... في مثلها إلاّ لآية عيسى

والده في دست القضاء مدرس ... فإذا قضى يستأنف التدريسا

تفتن في جمل الورى أبحاثه ... لا سيما في باب نعم وبيسا

و سجية الإنسان ليس بناصل ... من صبغها حتى يرى مرموسا

يغتر مهما ساعدت آماله ... فإذا عراه الخطب كان يئوسا

فلو إنّ نفسا مكنت من رشدها ... يوما وقدسها الهدى تقديسا

لم تستفز رسوخها النعمى ولا ... هلعت إذا كشرت إليها البوسا

قل للزمان إليك عن متذمم ... بضمار عز لم يكن ليخيسا

فإذا استحر جلاده فأنا الذي اس ... تغشيت من سرد اليقين لبوسا

وإذا طغا فرعونه فأنا الذي ... من ضره أذاه عذت بموسى

أنا ذا أبو مثواه من يحمي الحمى ... ليثا ويعلم بالزئير الخيسا

بحمى أبي حمو حططت ركابي ... لمّا اختبرت الليث والعريسا

أسد الهيجاء إذا خطا قدما سطا ... فيخلف الأسد الهزبر فريسا

بدر الهدى يأبى الظلال ضياؤه ... أبدا فيجلو الظلمة الحنديسا

جبل القار رسا وأشرف وأعتلى ... وسما فطأطأ الجبال رءوسا

غيث النوال إذا الغمام حلوبة ... مثلث بأيدي الحالبين بسوسا

تلقاه يوم الأنس روضا ناعما ... و تراه بأسا في الهيجاء بئيسا

كم غمرة جلى وكم خطب كفى ... إن أوطأ الجرد العتاق وطيسا

كم حكمة أبدى وكم قصد هوى ... للسالكين أبان منه دريسا

أعلى بني زيان والفذ الذي ... لبس الكمال فزين الملبوسا

جمع الندى والباس والشيم العلا ... والسودد المتواتر القدموسا

والحلم ليس يباين الخلق الرضا ... والعم ليس يعارض الناموسا

والسعد يغني حكمه عن نصبة ... تستخبر التربيع والتسديسا

كم راض صعبا لا يراض معاصيا ... كم خاض حربا لا يخاض ضروسا

بلغ التي لا فوقها متمهلا ... وعلا السها واستسفل البرجيسا

يا خير من خفقت علي سحابة ... للنصر تمطر أجش بجيسا

وأجل من حملته صهوة سابح ... إن كرم الله وجهه ضعضع كره الكردوسا

قسما بمن رفع السماء بغير ما ... عمد ورفع فوقها إدريسا

و دحا البسيطة فوق لج مزبد ... ما إن يزال على القرار حبيسا

حتى يهيب بأهله الوعد الذي ... حشر الرئيس إليه والمرءوسا

ما أنت إلاّ ذخر دهرك دمت في الص ... وان الحريز ممتعا محروسا

لو ساومته الأرض فيك بما حوت ... لرآك مستاما باب الرجل مبخوسا

حلف البرور بها ألية صادق ... ويمين من عقد اليمين غموسا

من قاس ذاتك بالذوات فإنه ... جهل الوزان وأخطأ التقييسا

لا تستوي الأعيان فضل مزية ... و طبيعة فطر الإله وسوسا

لعناية التخصيص سر غامض ... من قبل ذرء الخلق خص نفوسا

من أنكر الفضل الذي أوتيته ... جحد العيان وأنكر المحسوسا

من دان بالإخلاص فيك فعقده ... لا يقبل التمويه والتلبيسا

والمنتمي عيصك لم تكن ... لترى دخيلا في بنيه دسيسا

بيت البتول ومنتمى الشرف الذي ... تحمى الملائك دوحه المغروسا

أما سياستك التي أحكمتها ... فرميت بالت أسطاليسا

فلوان كسرى الفرس أبصر بعضها ... ما كان أن يعد سؤوسا

لو سار عدلك في السنين لمّا اشتكت ... بخسا و لم يك بعضهن كبيسا

ولو الجواري الخنس انتسبت إلى ... أقوام عزك ما خنسن خنوسا

قدت الصعاب فكل صعب سامح ... لك بالقياد و كان قبل شموسا

تلقى الليوث وللقتام غمامة ... قدح الصفيح وميضها المقبوسا

و كأنها تحت الدروع أراقم ... ينظرون من خلل المغافر شوسا

ما لابن ملمة في القديم وحاتم ... ضرب الزمان بجودهم ناقوسا

من جاء منهم مثل جودك كلما ... حسبوا المكارم كسوة أو كيسا

أنت الذي أفتك السفين وأهله ... إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا

أنت الذي أمددت ثغر الله بالص ... دقات تبلس كرة إبليسا

وأعنت أندلس بكل سبيكة ... موسومة لا تعرف التدليسا

وشحنته بالبر في سبل الرضا ... والبر قارب قاعها القاموسا

إن لم تجر بها الخميس فطالما ... جهزت فيها النوال خميسا

وملأت أيديهم وقد كادت على ... حكم القضاء تشابه التفليسا

صدقت للآمال صنعة جابر ... وكفيتها التشميع والتشميسا

والحل والتقطير والتصعيد والت ... خمير والتوصيل والتكليس

فسكبت من آمالها مالا ومن ... أوراقها ورقا وكن طروسا

بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا ... وزنا ولا لونا ولا ملموسا

تدبير من قلب السطور سبائكا ... منها ومن طبع الحروف فلوسا

ونحوت نحو الفضل تعضد منه بال ... مسموع ما ألفيت منه مقيسا

وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا ... تغني العديم وتطلق المحبوسا

ونشرت راية عزهم من بعدما ... دال الزمان فسامها تنكيسا

أحكمت حيلة برئهم بلطافة ... قد أعجزت في الطب جالينوسا

وفللت من حدّثني الزمان وإنه ... أوحى وأمضى من غرار الموسى

وشحذت حدا كان قبل مثلما ... ونعشت جدا كان قبل تعيسا

لم ترج إلاّ الله جل جلاله ... يقال شدة تكفي وجرح يوسى

قدمت صبحا فاستضأت بنوره ... ووجدت عند الشدة التنفيسا

ما أنت إلاّ فالح متيقن ... بالنجح تعمر ممرعا ويبيسا

ومتاجر جعل الأريكة صهوة ... عربية والمتكا القربوسا

ما إن تبايع أو تشاري واثقا ... بالربح إلاّ المالك القدوسا

والعزم يفترع النجوم بناؤه ... مهما أقام على التقى تأسيسا

ومقام صبرك واتكالك مذكر ... بحديث الشبلي أو طاووسا

ومن ارتضاه الله وفق سعيه ... فرأى العظيم من الحظوظ خسيسا

ما ازددت بالتحميص إلاّ جدة ... ونضوت من خلع الزمان لبيسا

ولطالما طرق الخسوف أهله ... و لطالما اعترض الكسوف شموسا

ثم انجلت نسماتها عن مشرق ... للسمد ليس بحاذر تتعيسا

خذها إليك على النوى سينية ... ترضي الطباق وتشكر التجنيسا

إن طوولت بالدر من حول الطلى ... يوما تشكت حظها الموكوسا

لولاك ما أصغت لخطبة خاطب ... ولعنست في بيتها تعيسا

قصدت سليمان الزمان وقاربت ... في الخطو تحسب نفسها بلقيسا

لي فيك ود لم أكن من بعدما ... أعطيت صفقة عهده لأخيسا

كم لي بصحة عقده من شاهد ... لا يحذر التجريح والتدليسا

يقفو الشهادة باليمين وأنّه ... لمؤمن من أن يعد فسيسا

لا يستقر قرار أفكاري إلى ... أن أستقر لدي علاك جليسا

وأرى تجاهلك مستقيم السير لل ... قصد الذي أعملته معكوسا

هي دين أيامي فان سمحت به ... لم يبق من شيء عليه يوسى

لا زال صنع الله مجنوبا إلى ... مثواك يهدي البشر والتأنيسا

متتابع كتتابع الأيام لا ... يذر التعاقب جمعة وخميسا

فلو أنصفتك إيالة الملك التي ... رضت الزمان وكان شريسا

قرنت بذكرك والدعاء لك الذي ... تختاره التسبيح والتقديسا

القلب أنت لها رئيس حياتها ... لم تعتبر مهما صلحت رئيسا[1]

ثانيا – من شعر يحي بن خلدون

نظم الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خدلون كاتب الإنشاء أيام السلطان ابى حمو

موسى بن يوسف الزياني رحمه الله قصيدة بديعة، ورفعها إلى السلطان أبي حمو في الاتفال بالمولد سنة ثمان وسبعين وسبع مائة، ونص القصيدة:

ما على الصب في الهوى من جناح ... أنّ يرى حلف عبرة وافتضاح

وإذا ما المحب عيل اصطبارا ... كيف يصغي إلى نصيحة لاحي

يا رعي الله بالمحصب ربعا ... آذنت عهده النوى بانتزاح

كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجا ... رُبَّ جدٍ من الجوى في المزاح

هل إلى رسمه المحيل سبيل ... يا حدادة المطى تلك الطلاح

نسأل الدار بالخليط ونسقى ... ذلك الربع بالدموع السفاح

أي شجو عانيت بعد نواها ... من أسى لازم وصبر مزاح

أهل ودى إنّ رابكم برح وجدوى ... من صبا بارح وبرق لياح

فأسألوا البرق عن خفوق فؤادي ... والصبا عن سقام جسمي المتاح

1 – المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 85.

يا أهيل الحمى نداء مشوق ... ما له عن هوى الدمى من براح

طالما استعذب المدامع ورداً ... في هواكم عن كل عذب قراح

عاده بالطلول للشوق عيد ... من حمام بدوحهن صداح

من لقلب من الجوى في ضرام ... ولجفن من البكا في جراح

ولصب يهيجه الذكر شوقاً ... فهو سكراً يرتاح من غير راح

وليال قضيت للهو فيها ... وطرا والشباب ضافي الجناح

راكبا في الهوى ذلول تصاب ... ساحباً في الغرام ذيل مراح

ونجوم المنى تنير إلى أن ... روع الشيب سربها بالصباح

أي مري حمدت لم ادخل منه ... بسوى حسرةٍ وطول افتضاح

واخسارى يوم القيامة إن لم ... يغفر الله زلتي واجتراحي

لم اقدم وسيلةً فيه إلاّ ... حب خير الورى الشفيع الماحي

سيد العامين دنيا وأخرى ... اشرف الخلق في العلا والسماح

سيد الكون من سماء وأرض ... سره بين غاية وافتتاح

زهرة الغيب مظهر الوحي معنى الن ... ور كنه المشكات والمصباح

آية المكرمات قطب المعالي ... مصطفى الله من قريش البطاح

أوّل الأنبياء تخصيص زلفى ... آخر المرسلين بعث نجاح

صفوة الخلق أرفع الرسل قدراً ... وسراج الهدى وشمس الفلاح

من لميلاده بمكة ضاءت ... من قرى قيصر جميع الضواحي

وخبت نار فارس وتداعت ... من مشيد الإيوان كل النواحي

من رقى في السماء سبعاً طباقاً ... ورأى آي ربه في اتضاح

ودنا منه قاب قوسين قرباً ... ظافراً في العلى بكل اقتراح

من هدى الخلق بين حمر وسودٍ ... وجلا ليل غيهم بالصباح

من يجير غدا يوم يجزى ... كل عاص وطائع باجتراح

من إلى حوضه وظل لواه ... يلجأ الناس بين ظامٍ وضاحي

أحمد المجتبى حبيباً وإني ... فوق عز الحبيب مرمى طماح

في أناجيله المسيح تلاه ... باسمه والكليم في الألواح

ولكم حجةٍ وبرهان صدقٍ ... في سماعٍ أتى بها والتماح

إنَّ في النجم والنبات لآياً ... بهرت والجماد والأرواح

معجزات فتن المدارك وصفاً ... وحساباً كالزهر أو كالصباح

يا رواة القريض ولا شعر عجزاً ... ما عسى تدركون بالأمداح

إنما حسبنا الصلاة عليه ... وهي للفوز آية استفتاح

يا الهي بحق أحمد عفواً ... عن ذنوبٍ جنيتهن قباح

و أدم دولة الخليفة موسى ... ذي المعالي المبينة الأوضاح

مفخر الملك مستقر المزايا ... مظهر اللطف ذو التقى والصلاح

ناصر الحق خاذل الجور عدلا ... ملجأ الخائفين بحر السماح

يتلقى لاندى بوجه حييٍ ... ويلاقي العدا ببأس صفاح

وله المكرمات إرثاً ولبساً ... حاز حمدا بها معلى القداح

من علا باذخٍ وفخرٍ صميم ... وكمال بحتٍ ومجدٍ صراح

وأحاديث في المعالي حسانٍ ... رويت عنه في العلى الصحاح

عاقد صفقة العلا كل حين ... فائز فيه سعيه بالرباح

للنى والهدى يروح ويغدو ... أي مغدي إلى العلا ومراح

ملك تشرق الأسرة منه ... في سماء السرير نور صباح

وإذا ما علا بعالي العوالي ... صهوة الجود فهو ليث الكفاح

لبس الدهر منه حلة حسن ... وثنى للسرور عطف مراح

وعلا عاتق الخلافة منه ... طراز فخر سبي النهى بالتماح

ورث الملك شامخاً عن سراةٍ ... شيدوا ركنه بأيدي الصفاح

من بني القاسم الذي تحلوا ... بالمعالي واستأثروا بالفلاح

فرعوا هضبة الخلافة مجداً ... رفعوا سقفه على الأرماح

نشروا راية المفاخر حمداً ... خافق النور بالرابا والبطاح

يا إماما بذلك الملك جلالاً ... وجمالاً فديت بالأرواح

أنت شمس الكمال دمت علياً .. في اغتباق من المنى واصطباح

وبنوك الأعلون أنجم سعدٍ ... زاهرات بنورك الوضاح

وأبو تشافين بدر منير ... زانه الله بالخلال الصباح

أكمل العالمين خلقاً وخُلقاً ... اشرف الناس في الندى والكفاح

وبكم زينت سماء المعالي... واهتدى الناس في الدجى والصباح[1]

ثالثا : من قصائد الفقيه الكاتب محمد الثغري

---

1 - اوردها المقري في أزهار الرياض، م س، ص 215.

1- قصيدة أيّها الحافظون عهد الوداد

نظم الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبي حمّو موسى بن يوسف الزياني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة، هذا نصها:

أيّها الحافظون عهد الوداد ... جدّدوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصلائلاً بليالٍ ... كلآل نظمن في الأجياد

في رياضٍ منضدات المجاني ... بين تلك الربى وتلك الوهاد

وبروج مشيدات المباني ... باديات السنا كشهب بواد

رقّ فيها النسيب مثل نسيبي ... وصفا النهر مثل صفو ودادي

وزها الزهر والغصون تثنّت ... وتغنّت عليه ورق شواد

وانبرى كل جدول كحسام ... عاري الغمد سندسيّ النّجاد

وظلال الغصون تكتب فيه ... أحرفاً سطّرت بغير مداد

تذكر الوشم في معاصم خودٍ ... نصبت فوقه ذوات امتداد

وكؤوس المنى تدار علينا ... بجنى عفّةٍ ونقل اعتقاد

واصفرار الأصيل فيها مدامٌ ... وصفير الطيور نغمة شاد

كم غدونا بها لأنس ورحنا ... جادها رائح من المزن غاد

رقّت الشمس في عشاياه حتى ... أحدثت منه رقةً في الجماد

جدّدت بالغروب شجو غريبٍ ... هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا الزمن حيّها من بلادٍ ... غرس الحب غرسها في فؤادي

وتعاهد معاهد الأنس منها ... وعهود الصبا بصوب العهاد

حيث مغنى الهوى، وملهى الغواني ... ومراد المنى، ونيل المراد

ومقرّ العلا، ومرقى الأماني ... ومجرّ القنا، ومجرى الجياد

كل حسن على تلمسان وقف ... وخصوصاً على ربى العبّاد

وسما تاجها على كل تاجٍ ... ونما وهدها على كلّ ناد

يدّعي غيرها الجمال فيقضي ... حسنها أنّ تلك دعوى زياد

بشعري فهمت معنى علاها ... من حلاها فهمت في كلّ وادي

حضرة زانها الخليفة موسى ... زينة الحلي عاطل الأجياد

وحباها بكلّ بذل وعدل ... وحماها من كلّ باغ وعاد

ملك جاوز المدى في المعالي ... فالنهايات عنده كالمبادي

معقل للهدى منيع النواحي ... مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحل والأعادي ... جميعاً بغرار الظبى وغرّ الأيادي

كلّما ضنّت السحائب أغنت ... راحتاه عن السحاب الغوادي

كم هباتٍ له وكم صدقاتٍ ... عائدات على العفاة بواد

فأيادي خليفة الله موسى ... أبحرٌ عذبة على الورّاد

ركّب الجود في بسيط يديه ... فتلافى به تلاف العباد

جلّ باريه ملجأ للبرايا ... كالحيا ضامناً حياة البلاد

جلّ من خصّه بتلك المزايا ... باهرات من طارف وتلاد

شيم حلوة الجنى وسجايا ... شهد المجد أنها كالشّهاد

يا إمام الهدى وشمس المعالي ... وغمام الندى وبدر النادي

لك بين الملوك سرٌّ خفيٌّ ... ليس معناه للعقول بباد

فكأنّ البلاد كفك مهما ... كان فيها من ينتمي لعناد

قبضت كفّك البنان عليه ... فأتى بالإذعان حلف انقياد

بكم تصلح البلاد جميعاً ... إنّ آراءكم صلاح البلاد

لم تزل دائماً تحنّ إليكم ... كحنين السقيم للعوّاد

لو أعينت بمنطق شكرتكم ... مثل شكر العفاة للأجواد

قد أطاعتكم البلاد جميعاً ... طاعةً أرغمت أنوف الأعادي

فأريحوا الجياد أتعبتموها ... وأقرّوا السيوف في الأغماد

واهنأوا خالدين في عزّ ملك ... قائم السعد دائم الإسعاد

وإليكم من مذهبات القوافي ... حكماً سهّلت ليان المقاد

كلّ بيت من النظام مشيدٍ ... عطّر الأفق بالثناء الجاد[1]

2 – قصيدة تاهت تلمسانٌ بحسن شبابها

تاهت تلمسانٌ بحسن شبابها ... وبدا طراز الحسن في جلبابها

فالبشر يبدو من حباب ثغورها ... متبسّماً أو من ثغور حبابها

قد قابلت زهر النجوم بزهرها ... وبروجها ببروجها وقبابها

حسنت بحسن مليكها المولى أبي ... حمو الذي يحمي حمى أربابها

ملك شمائله كزهر رياضها ... ونداه فاض بها كفيض عبابها

أعلى الملوك الصّيد من أعلامها ... وأجلّها من صفوها ولُبابها

غارت بغرة وجهه شمس الضحى ... وتنقبت خجلاً بثوب ضبابها

والبدر حين بدت أشعّتها له ... حسناً تضاءل نوره وخبا بها

لله حضرته التي قد شرّفت ... خدّامها فسموا بخدمة بابها

1 – أوردها المقري في نفح الطيب ، م س ، ج 7، ص 122.

فاللثم في يمناه يبلغها المنى ... والمدح في علياه من أسبابها[1]

3- قصيدة اللامية

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ووصف بلاد تلمسان، وأجاد فيها إلى الغاية؛ وهي:

قم مبصراً زمن الربيع المقبل ... تر ما يسرّ المجتني والمجتلي

وانشق نسيم الروض مطلولاً وما ... أهداك من عرفٍ وعرفٍ فاقبل

وانظر إلى زهر الرياض كأنّه ... درٌّ على لبّات ربّات الحلي

في دولة فاضت يداها بالندى ... وقضت بكل منى لكلّ مؤمل

بسطت بأرجاء البسيطة عدلها ... وسطت بكلّ معاندٍ لم يعدل

سلطانها المولى أبو حمو الرضى ... ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي

تاهت تلمسان بدولته على ... كلّ البلاد بحسن منظرها الجلي

راقت محاسنها ورقّ نسيمها ... فحلا بها شعري وطاب تغزّلي

عرّج بمنعرجات باب جيادها ... وافتح بها باب الرجاء المقفل

ولتغد للعبّاد منها غدوة ... تصبح هموم النفس عنك بمعزل

وضريح تاج العارفين شعيبها ... زره هناك فحبّذا ذاك الولي

فمزاره للدين والدنيا معاً ... تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلي

وبكهفها الضحّاك قف متنزهاً ... تسرح نفوسك في الجمال الأجمل

وتمشّ في جنباتها ورياضها ... واجنح إلى ذاك الجناب المخضل

تسليك في دوحاتها وتلاعها ... نغم البلابل واطّراد الجدول

---

1 - ن م، ج 7، ص 125.

وبربوة العشاق سلوة عاشق ... فتنت والحاظ الغزال الأكحل

بنواسمٍ وبواسم من زهرها ... تهديك أنفاساً كعرف المندل

فلو امرؤ القيس بن حجر راءها ... قدماً تسلّى عن معاهد مأسل

أو حام حول فنائها وظبائها ... ما كان محتفلاً بحومة حومل

فاذكر لها كلفي بسقط لوائها ... فهواي عنها الدهر ليس بمنسل

كم جاد لي فيها الزمان بمطلب ... جادته أخلاف الغمام المسبل

واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً ... وبه تسلّ وعنه دأباً فاسأل

وادٍ تراه من الأزاهر حالياً ... أحسن به عطلاً وغير معطل

ينساب كالأيم انسياباً دائماً ... أو كالحسام جلاه كفُّ الصيّقل

فزلاله في كلّ قلب قد حلا ... وجماله في كل عين قد جلي

واقصد بيوم ثالث فوّارة ... وبعذب منهلها المبارك فانهل

تجري على درّ لجيناً سائلاً ... أحلى وأعذب من رحيق سلسل

واشرف على الشّرف الذي بإزائها ... لترى تلمسان العلية من عل

تاج عليه من المحاسن بهجة ... أحسن بتاج بالبهاء مكلّل

وإذا العشية شمسها مالت فمل ... نحو المصلّى ميلة المتمهل

وبملعب الخيل الفسيح مجاله ... أجل النواظر في العتاق الحفّل

فلحلبة الأشراف كلّ عشية ... لعب بذاك الملعب المتسهل

فترى المجلّي والمصلّي خلفه ... وكلاهما في جريه لا يأتلي

هذا يكرّ وذا يفرّ فينثني ... عطفاً على الثاني عنان الأول

من كل طرف كلّ طرف يستبي ... قيد النواظر فتنة المتأمّل

وردٌ كأن أديمه شفق الدّجى ... أو أشهب كشهاب رجم مرسل

أو من كميت لا نظير لحسنه ... سام معمٌّ في السوابق مخول

أو أحمر قانٍ الأديم كعسجد ... أو أشقر يزهو بعرف أشعل

أو أدهم كاللّيل إلا غرّةً ... كالصبح، بورك من أغر محجّل

جمع المحاسن في بديع شياته ... مهما ترقّ العين فيه تسله

عقبان خيلٍ فوقها فرسانها ... كالأسد تنقضُّ انقضاض الأجدل

فرسان عبد الواد آساد الوغى ... حامو الذمار أولو الفخار الأطول

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها ... فإلى تلمسان الأصيلة فادخل

من باب ملعبها لباب حديدها ... متترهاً في كلّ نادٍ أحفل

وتأنّ من بعد الدخول هنيهةً ... واعدل إلى قصر الإمام الأعدل

فهو المؤمّلُ والديار كنايةٌ ... والسرُّ في السكان لا في المترل

فإذا أمير المؤمنين رأيته ... فالثم ثرى ذاك البساط وقبّل

فالمجد لفظ في الحقيقة مجملٌ ... وحلاه تفصيل لذلك المجمل

بشرى لعبد الواد بالملك الذي ... خلصوا به من كلّ خطب معضل

بأعزّهم جاراً، وأمنعهم حمىً ... وأجلّهم مولى، وأعظم موئل

بالعادل المستنصر المنصور ... والمأمون والمهديّ والمتوكّل

وكفاهم سعداً أبو حمو الذي ... يحمي حماهم بالحسام الفيصل

وبحسن نيّته لهم وبجده ... وبسعده وبسعيه المتقبّل

ذو الهمّة العليا التي آثارها ... حلّت به فوق السماك الأعزل

بحر الندى الأحلى وفخر المنتدى ... وسنا الدجى الأجلى وزين المحفل

ينهل منه لنا الجدا وبه الدجى ... تجلى بمشرق وجهه المتهلّل

هنئ به زمن الربيع وقلْ له ... بشرى بأملح من حلاك وأجمل

وعلى علاه من صنيعة فضله ... ترداد نافحة السلام الأكمل[1]

رابعا: موشح لطبيب الدولة محمّد بن أبي جمعة التلاليسي

كان مما خوطب به السلطان أبو حمو في مولد سنة سبع وستين وسبعمائة قول طبيب دولته أبي عبد الله محمّد بن أبي جمعة الشهير بالتلاليسي رحمه الله تعالى.

لي مدمع هتان ينهل مثل الدرر

قد صير الأجفان ما إن لها من أثر

حق له يجري دما على طول الدوام

مذ جد في السير ناس إلى خير الأنام

وعاقني وزري يا صاح عن ذلك المقام

وسارت الأظعان يحدي بها في السحر

فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر

يا سعده من زار قبر النبي المصطفى

محمّد المختار قطب المعالي والوفا

في مدحه قد حار الخلق طرا وكفى

في محكم القرآن وشرحه والسير

فضله الرحمن على جميع البشر

يا حادي الركب بالله إن جئت البقيع

تحية الصب بلغ إلى الهادي الشفيع

غرب بالمغرب عن ذلك المغني الرفيع

1 - المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 126 - 128.

ولیس لي إمكان ينهضني للسفر

إلاّ من السلطان الملك المظفر

من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين

ذاك أبو حمو المولى أمير المسلمين

طاعته غنم نلنا بها دنيا ودين

أظهر في البلدان من عدله المشتهر

وعم بالإحسان للبدو ثم الحضر

قابله إسعاد تكل عنه الألسنة

قبيل عبد الواد به غدت في سلطنة

أيامه أعياد يا ليتها ألف سنة

ملك بني زيان بالمشرفي الذكر

أحياه إذا قد كان ليس له من خبر

تاهت تلمستان بملكه على البلاد

صار لها شان وسعدها حلف ازدياد

قد ضل إنسان قال بها يشكو السهاد

ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر

والصبر لي خوان والنوم من عيني بري[1]

---

1 - المقري، أزهار الرياض، ص 83.

الفهارس

أولا: فهرس الآيات

ثانيا: فهرس الأحاديث

ثالثا: بعض المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق

1. ابن الأثير أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد، الكامل في التاريخ، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

2. ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل ، تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2001.

3. ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

4. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

5. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

6. ابن خلدون أبو زكريا يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1903.

7. ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

8. ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، مطبعة الدولة التونسية، عام 1279هـ، 1862م.

9. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

10. أبو حمو موسى الثاني، مخطوط واسطة السلوك في سياسة الملوك.

11. الأشعري أبو الحسن بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق محمد بشير أبو عون، نشر مكتبة دار البيان، دمشق، ط 3، 1990.

12. السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد، أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت، 1963.

13. البغدادي إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

14. التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، عام 1985.

15. الجاحظ عمر بن بحر، التاج في أخلاق الملوك، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

16. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

17. د. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، عام 2002.

18. د. محمد جلال شرف، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1982.

19. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq. com

20. الزَّبيدي السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

21. ا لزركلي خيرالدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د ت.

22. الزمخشري جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

23. الشيرزي عبد الرحمن بن عبد الله، المنهج المسلوك، تحقيق ودراسة علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1987.

24. الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.http://www.alwarraq.com

25. الماوردي أبو الحسن علي بن حبيب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي الدين هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، عام 1981.

26. محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913.

27. المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.www.alwarraq.com

28. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997.

29. الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ت د.

30. محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913.

31. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

.www.Al.warraq.com

32. الجاحظ عمر بن بحر، التاج في أخلاق الملوك، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع الوراق وعنوانه:

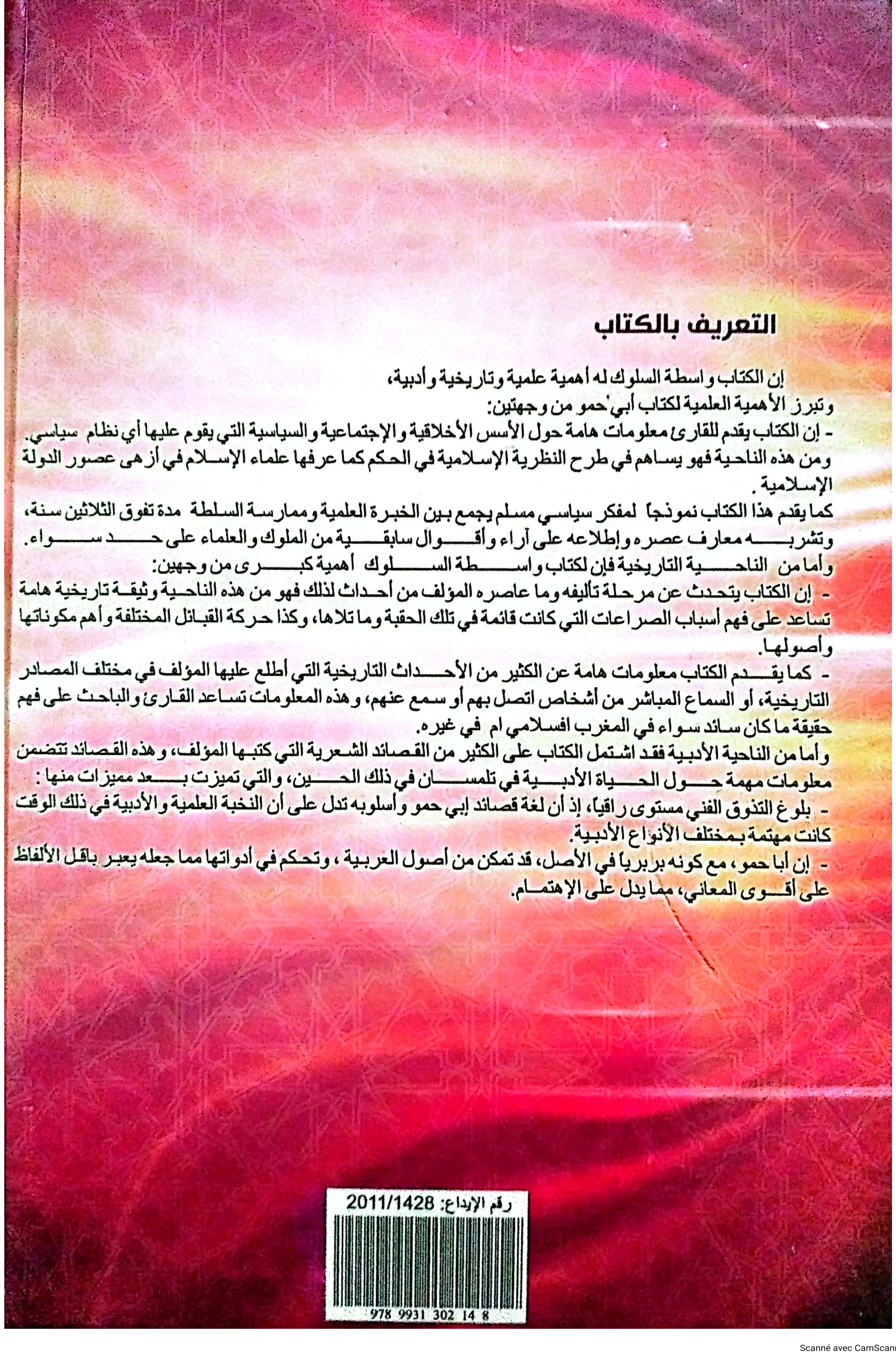
.www.alwarraq.com

33. الحمداوي عبد الكريم محمد مطيع، في النظام السياسي الإسلامي، محاولة نقدية للتأصيل والتطوير، منشور على موقع الشبيبة الإسلامية المغربية بصيغة html، وعنوان الموقع هو: www.achabibah.com

تاريخ الدخول: 2010/12/23.

34. د. محمد جلال شرف، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1982.

رابعا: فهرس الموضوعات


التعريف بالكتاب
إن الكتاب واسطة السلوك له أهمية علمية وتاريخية وأدبية،
وتبرز الأهمية العلمية لكتاب أبي حمو من وجهتين:
- إن الكتاب يقدم للقارئ معلومات هامة حول الأسس الأخلاقية والإجتماعية والسياسية التي يقوم عليها أي نظام سياسي.
ومن هذه الناحية فهو يساهم في طرح النظرية الإسلامية في الحكم كما عرفها علماء الإسلام في أزهى عصور الدولة الإسلامية.
كما يقدم هذا الكتاب نموذجا لمفكر سياسي مسلم يجمع بين الخبرة العلمية وممارسة السلطة مدة تفوق الثلاثين سنة، وتشربه معارف عصره وإطلاعه على آراء وأقوال سابقية من الملوك والعلماء على حد سواء.
وأما من الناحية التاريخية فإن لكتاب واسطة السلوك أهمية كبرى من وجهين:
- إن الكتاب يتحدث عن مرحلة تأليفه وما عاصره المؤلف من أحداث لذلك فهو من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامة تساعد على فهم أسباب الصراعات التي كانت قائمة في تلك الحقبة وما تلاها، وكذا حركة القبائل المختلفة وأهم مكوناتها وأصولها.
- كما يقدم الكتاب معلومات هامة عن الكثير من الأحداث التاريخية التي أطلع عليها المؤلف في مختلف المصادر التاريخية، أو السماع المباشر من أشخاص اتصل بهم أو سمع عنهم، وهذه المعلومات تساعد القارئ والباحث على فهم حقيقة ما كان سائد سواء في المغرب افسلامي ام في غيره.
وأما من الناحية الأدبية فقد اشتمل الكتاب على الكثير من القصائد الشعرية التي كتبها المؤلف، وهذه القصائد تتضمن معلومات مهمة حول الحياة الأدبية في تلمسان في ذلك الحين، والتي تميزت ببعض مميزات منها:
- بلوغ التذوق الفني مستوى راقيا، إذ أن لغة قصائد إبي حمو وأسلوبه تدل على أن النخبة العلمية والأدبية في ذلك الوقت كانت مهتمة بمختلف الأنواع الأدبية.
- إن أبا حمو، مع كونه بربريا في الأصل، قد تمكن من أصول العربية، وتحكم في أدواتها مما جعله يعبر بأقل الألفاظ على أقوى المعاني، مما يدل على الإهتمام.
رقم الإيداع: 2011/1428
978 9931 302 14 8